2020
31.12.2019

يوهانا شبيري

هايدي

ترجمة: بثينة الإبراهيم







يوهانا شپيري



هايدي

رواية

ترجمة

بثينة الإبراهيم



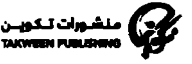



هايدي

الكاتب: يوهانا شپيري
عنوان الكتاب: هايدي
ترجمة: بثينة الإبراهيم

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله
تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-29-8
الطبعة الأولى - سبتمبر / أيلول - 2019
5000 نسخة



الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

publishing@takweenkw.com — takweenkw
www.takweenkw.com — @takweenKw

لبنان - بيروت / الحمرا
تلفون: 683 345 1 961+ / 980 541 1 961+
بغداد - العراق/ شارع المتنبي، عمارة الكاهجي
تلفون: 07810001005 / 07830070045

daralrafidain@yahoo.com — Dar alrafidain
info@daralrafidain.com — Dar.alrafidain
www.daralrafidain.com — @Dar alrafidain

الجزء الأول

الفصل الأول
صعود الجبل إلى الخال ألم

تخلل الدرب المروج الخضراء الظليلة من القرية القديمة الهادئة مينفيلد إلى سفح الجبال التي تطل من هذا الجانب، من قممها العالية الوعرة على الوادي في الأسفل. وغدت الأرض أكثر وعورة شيئًا فشيئًا كلما علا الدرب، ولا يمكن للصاعد التقدم أكثر دون أن يستنشق شذا العشب القصير والنباتات الجبلية القوية، فالدرب شاهق ويؤدي إلى القمم في الأعلى مباشرة.

ذات صباح مشمس من أيام يونيو، شوهد شخصان يصعدان الدرب الجبلي الضيق، أحدهما شابة طويلة قوية البنية، تمسك بيدها طفلة اتقدت وجنتاها من الحرارة، وتسهل رؤية اللون القرمزي حتى على البشرة الداكنة التي لوحتها الشمس. ولم يكن هذا مثار استغراب، لأن الطفلة أُلبست ثيابًا كأنما تقيها من البرد القارس، رغم شمس يونيو الحارة. لم تبد أنها تتجاوز الخامسة من عمرها، إن لم تكن أقل من ذلك، ويصعب وصف قوامها لأنها ارتدت فيما يبدو ثوبين أو ثلاثة، واحدًا فوق الآخر، وقد لُفت بوشاح صوفي سميك

أحمر، فبدا الجسد الصغير مبهم الملامح، وقد انتعلت حذاء جبليًا متينًا ذا مسامير، وتهادت في صعودها في الجو الحار ببطء وعناء. لا بد أن الاثنتين قد خلفتا الوادي وراءهما بعد ساعات من المشي وبلغتا القرية المسماة دورفلي، التي تقع في منتصف الطريق الصاعد نحو الجبل. وقوبلت عابرتا السبيل بالتحيات من كل الجوانب، بعضها آت من النوافذ وأخر آتية من الأبواب المفتوحة، وبعضها من الخارج لأن الشابة كانت في بلدتها الآن. غير أنها لم تقطع سيرها للرد على صيحات الترحيب من أصدقائها وأسئلتهم، بل واصلت المشي دون توقف للحظة حتى وصلت آخر البيوت المتناثرة في القرية. عندها ناداها صوت من الباب: «انتظري لحظة يا ديته، إن كنت ستصعدين الجبل، فإني ذاهبة معك».

فوقفت الفتاة المخاطَبة عندئذ، وأفلتت الطفلة يدها على الفور وجلست على الأرض.

«هل أنت متعبة يا هايدي؟»، سألتها رفيقتها.

«كلا، أنا أشعر بالحر»، أجابت الطفلة.

«سنصل إلى القمة سريعًا. لا بد أن تمشي بهمة قليلًا بعد، وامشي بخطوات كبيرة، وسنصل في غضون ساعة»، قالت ديته بصوت متحمس.

ها قد انضمت إليهما امرأة بدينة دمثة الهيئة، وسارت مع صديقتها القديمة، وبدأت الاثنتان من فورهما حديثًا مثيرًا عن كل امرئ وكل شيء في دورفلي ومحيطها، والطفلة تتجول خلفهما.

«وإلى أين أنت ذاهبة مع الطفلة؟»، سألت المرأة التي انضمت توًا للفتاتين، «أليست هذه الطفلة التي أنجبتها أختك؟».

أجابت ديته: «بلى. سآخذها إلى الخال في الأعلى حيث يجب أن تقيم».

«الطفلة تقيم في الأعلى مع الخال ألم؟! لا بد أنك فقدت صوابك يا ديته! كيف خطر لك أمر كهذا؟! سيرسلك الرجل العجوز أنت واقتراحك إلى المنزل سريعًا على أية حال!».

«ليس بوسعه فعل ذلك، فهو جدها. ولا بد أن يفعل شيئًا من أجلها. لقد اعتنيت بها حتى اليوم، وبوسعي أن أقول لك يا باربل إنني لن أتخلى من أجلها عن الفرصة التي سنحت لي في الحصول على مكان جيد. على جدها الآن أن يقوم بواجبه تجاهها».

ردت باربل البدينة جازمة بحرارة: «سيكون هذا أمرًا لا بأس به لو كان مثل الناس الآخرين. لكنك تعرفينه، وما الذي سيفعله مع الطفلة، خاصة أنها طفلة صغيرة جدًا! لا يمكن قطعًا للطفلة أن تعيش معه، ولكن إلى أين تفكرين بالذهاب؟».

أجابت ديته: «إلى فرانكفورت، حيث ينتظرني مكان ممتاز. كان الناس الذين سأقصدهم في الحمامات المعدنية الصيف الماضي وكان جزءًا من عملي الاعتناء بغرفهم. وودوا حينئذٍ لو أخذوني معهم، لكني لم أستطع الذهاب. وذهبوا إلى هناك الآن وكرروا عرضهم علي، فعزمت على الذهاب معهم، لا شك أنك ستختارين هذا أيضًا!».

«أنا سعيدة أنني لست الطفلة»، قالت باربل بشيء من الشفقة والذعر، «لا أحد يعرف شيئًا عن الرجل العجوز في الأعلى! فهو لم يختلط بأي أحد، ولم يطأ بقدمه كنيسة السنة تلو الأخرى. وحين ينزل من الجبل بين الفينة والأخرى، يبتعد الجميع عن دربه ودرب عصاه الكبيرة. فرؤيته مخيفة جدًا، بحاجبيه الكثين الرماديين ولحيته الكثة. إنه يبدو مثل وثني أو هندي عجوز، وقلة أولئك الراغبون برؤيته وحدهم».

«حسن؟ وماذا في ذلك؟»، قالت ديته بصوت متحدٍ، «إنه الجد على أية حال، ولا بد أن يعتني بالطفلة. وليس من المحتمل أن يؤذيها، وإن فعل فسيكون مسؤولًا عن ذلك، ولست أنا».

واصلت باربل بنبرة متسائلة: «أود كثيرًا أن أعرف ما الذي يعتمل في وجدان العجوز حتى يبدو هكذا، ويعيش في أعلى الجبل مثل ناسك، ونادرًا ما يسمح لأحد برؤيته. قيلت كثير من الأمور عنه. ولا بد أنك يا ديته، عرفت عنه الكثير من أختك، ألست محقّة؟».

«بلى، إنك محقة. لقد عرفت عنه الكثير لكني لن أكرر ما سمعته، إذ سأقع في المتاعب إن وصل الأمر إلى مسامعه».

ظل فضول باربل متقدًا الوقت طويل لتتأكد من بعض التفاصيل عن الخال ألم، لأنها لم تفهم لماذا يحمل هذه البغضاء تجاه الناس ويصر على العيش وحيدًا، أو لماذا يتحدث الناس عنه همسًا، كأنهم يخافون من قول شيء ضده، وفي الوقت نفسه راغبون عن الوقوف

في صفه. وعلاوة على ذلك، تجهل باربل سبب تسمية الناس كلهم في دورفلي له بالخال ألم، فليس من المحتمل أن يكون خالًا لجميع سكانها. لكنها على أية حال فعلت مثل الجميع وصارت تدعوه بالخال العجوز كما جرت العادة. لم تسكن باربل في دورفلي إلا منذ زواجها، الذي لم يمض عليه وقت طويل، وقبل ذلك عاشت في الأسفل في پرتّغاو، ولذا لم تعرف كل الأحداث التي جرت، ولا كل الناس الذين يعيشون في دورفلي وما جاورها. أما ديته فقد كانت على العكس منها، إذ ولدت في دورفلي، وعاشت فيها مع أمها حتى موت الأخيرة قبل عام، ثم ذهبت إلى الحمامات في راغاتز وبدأت العمل في الفندق في خدمة الغرف. لقد قطعت الطريق من راغاتز هذا الصباح مع الطفلة، إذ أوصلهم صديق بعربة التبن إلى مينفيلد. ولهذا عقدت باربل العزم على ألا تضيع الفرصة لإشباع فضولها، فوضعت ذراعها حول ديته بطريقة حميمة وقالت: «أعلم أن بوسعي معرفة الحقيقة منك، ومعنى كل هذه الحكايا التي تحوم حوله. فأنا واثقة أنك تعرفين القصة بأكملها، فهيا أخبريني ما خطب الرجل العجوز، وهل كان متجنبًا طوال حياته، وهل كان دائمًا مبغضًا للبشر؟».

«وكيف لي أن أخبرك إن كان هكذا طوال حياته، فأنا لم أتجاوز السادسة والعشرين من عمري وهو قد بلغ عامه السبعين على الأقل؟ لذا لا تتوقعي مني معرفة الكثير عن شبابه. لو تأكدت أن ما سأقوله لك لن يشيع في أنحاء پرتّغاو، لأخبرتك بكل ما أعرفه عنه؛ فأمي تنحدر من دوملسشغ مثله».

أجابت باربل وقد شعرت بشيء من الإهانة: «غير معقول، ماذا تقولين يا ديته؟ لم تصل النمائم إلى مستوى مروّع في پرتّغاو كما في غيرها، كما أنني قادرة على حفظ لساني إن دعت الحاجة».

«حسن جدًا، سأخبرك. لكن انتظري لحظة»، قالت ديته بصوت حذر، والتفتت للخلف لتتأكد أن الطفلة ليست قريبة فتسمع ما ستقوله، غير أنها لم تستطع رؤية الطفلة في أي مكان. لا بد أنها كفت عن اللحاق برفيقتيها منذ بعض الوقت، حين كانتا منهمكتين في أحاديثهما ولم ينتبها لها. وقفت ديته في مكانها وأخذت تنقل نظرها في كل الاتجاهات، فقد تعرج الدرب هنا وهناك، غير أنها لم تتمكن من رؤيتها على طول الدرب حتى دورفلي، ولم تر عليه أحدًا في هذه اللحظة.

فقالت باربل: «إنني أراها. انظري هناك!»، وأشارت إلى بقعة بعيدة عن الدرب. «إنها تصعد المنحدر هناك مع الراعي وعنزاته. لا أدري لماذا تأخر في أخذها للأعلى هذا اليوم. غير أن هذا يناسبنا جميعًا، على أية حال، إذ يمكنه الآن أن يعتني بالطفلة، ويمكنك أن تخبريني حكايتك».

«أوه، أما عن اعتنائه بها، فلا حاجة بالصبي لفعل ذلك، فهي ليست غبية البتة نظرًا لسنواتها الخمس. وتعرف كيف تستخدم عينيها، وتنتبه لكل ما يجري حولها، كما تبينت في مناسبات عدة، وهذا سيجديها نفعًا ذات يوم، لأن الرجل العجوز لا يملك شيئًا سوى عنزتيه وكوخه».

«هل كان لديه أكثر من قبل؟»، سألت باربل.

«العجوز؟ أظن ذلك»، أجابت ديته بحيوية، «لقد كان ذات يوم مالكًا لإحدى كبريات المزارع في دوملسشغ، وهو الأكبر بين أخوين. الأصغر كان هادئًا عاديًا، وليس ثمة شيء يسعد الآخر سوى لعب دور الرجل الكبير والتجول في الأرياف والاختلاط بصحبة السوء من الغرباء الذين لا يعرفهم أحد. فشرب الخمر ولعب القمار على كل ما يملك، وحين عرف والداه بذلك ماتا كمدًا، واحدًا تلو الآخر. والأخ الأصغر الذي صار فقيرًا أيضًا رحل غاضبًا ولا أحد يعلم مكانه. كما اختفى الخال نفسه بعد أن لم يبق له شيء سوى سمعته السيئة. لم يعرف أحد له مكانًا لبعض الوقت، ثم تبين لأحدهم أنه ذهب جنديًا إلى ناپولي، ولم يُسمع عنه شيء بعد ذلك لاثنتي عشرة أو خمس عشرة سنة. وبعد انقضاء هذا الوقت ظهر ثانية في دوملسشغ، جالبًا معه طفلًا صغيرًا حاول أن يسكنه مع بعض أقربائه. غير أن كل الأبواب سدت في وجهه، ولم يرغب أحد أن يكون له صلة به. ولحنقه من هذه المعاملة، أقسم على ألا يطأ دوملسشغ ثانية، فجاء إلى دورفلي حينئذٍ، وظل يعيش مع ابنه الصغير. كانت زوجته من أهالي غريسنز، التقاها هناك، وماتت بعد فترة قصيرة من زواجهما. لم يكن معدمًا لأنه علم ابنه توبياس على أن يكون نجارًا. لقد كان فتى قويًا، وأحبه الجميع في دورفلي، غير أنهم نظروا بعين الريبة إلى الرجل العجوز، وشاعت أقاويل إنه اضطر للهرب من ناپولي، أو إن الأمور ساءت معه لأنه قتل رجلًا، ليس في قتال عادل، كما تتخيلين، بل في شجار. أما نحن، فلم ننكر

قرابتنا به، فجدتي من طرف أمي أخت جدته، لذا ندعوه بالخال، وأما من جهة أبي فنحن أقرباء لكل عائلة في دورفلي تقريبًا، فصار يعرف في أنحاء المكان بالخال، ولما ذهب للسكنى أعلى الجبل، فقد بات يعرف باسم الخال ألم[1].

«ماذا حدث لتوبياس؟»، سألت باربل التي أصغت باهتمام شديد.

«انتظري لحظة، سآتي على ذكر ذلك، لكني لا أستطيع إخبارك كل شيء دفعة واحدة»، أجابت ديته. «تعلم توبياس صنعته في ميل، وحين أنهى تدريبه عاد إلى دورفلي وتزوج بأختي آديليد. لقد أغرما ببعضهما دومًا، وعاشا بسعادة بعد أن تزوجا. لكن سعادتهما لم تدم طويلًا، فقد لقي زوجها حتفه بعد عامين فحسب من زواجهما، إذ وقعت عليه رافدة أثناء عمله وقتلته في مكانه. ونقل إلى المنزل، وحين رأت آديليد الجسد المسكين المشوه لزوجها غلبها الخوف والحزن فأصيبت بحمى لم تتعاف منها قط. لقد كانت دومًا واهنة وتتعرض لنوبات غريبة لم يعرف أحد خلالها إن كانت نائمة أم مستيقظة. وهكذا بعد أن ووري توبياس الثرى بشهرين لحقت به زوجته. وصار مصيرهما الحزين حديثًا للقاصي والداني، وقيل سرًا وعلانية إن هذا عقاب استحقه الخال ألم نظير حياته العاصية. وتجرأ بعضهم على قول ذلك له في وجهه، وواظب كاهننا على إيقاظ وجدانه وحثه على التوبة، لكن الرجل العجوز أمعن في غيّه وعناده

(١) ألم Alm في الألمانية تعني حرفيًا المرعى على الجبل، وفي المسلسل الكرتوني دعي بشيخ الجبل.

ورفض التحدث إلى أحد، وبذل الجميع جهدهم للابتعاد عن دربه. ثم سمعنا فجأة أنه ذهب للسكنى أعلى الجبل ولا ينوي النزول ثانية. ومنذئذ عاش حياة العزلة على الجبل في عداوة مع الرب والبشر. أخذنا أنا وأمي طفلة آديليد لرعايتها، وكانت في عامها الأول. حين ماتت أمي العام الماضي، وذهبت أنا إلى الحمامات المعدنية لأجني بعض المال، دفعت للعجوز أورسولا التي تعيش في القرية في الأعلى لتبقي الطفلة عندها وتعتني بها. وقد ظللت في الحمامات طوال الشتاء ولم أجد صعوبة في العثور على العمل لأن بوسعي أن أحيك وأخيط، وفي أول الربيع، عادت العائلة نفسها التي انتظرتها قبلًا من فرانكفورت، وكرروا طلبهم عليّ في الذهاب معهم، وسنغادر بعد غد، ويمكنني القول إنه مكان ممتاز لي».

«وستتركين الطفلة مع الرجل العجوز في الأعلى هناك؟ إن لساني لينعقد دهشة لأن بمقدورك التفكير بفعل أمر كهذا يا ديته»، قالت باربل بصوت ملؤه التوبيخ.

فأجابت ديته: «ماذا تعنين؟ لقد أديت واجبي نحو الطفلة، وماذا تريدين مني أن أفعل الآن؟ ليس بوسعي حتمًا أخذ طفلة في الخامسة معي إلى فرانكفورت. ولكن إلى أين تذهبين يا باربل؟ لقد بلغنا منتصف الطريق نحو الجبل».

«لقد وصلنا المكان الذي أريده»، أجابت باربل، «لدي ما أقوله لزوجة الراعي، التي تغزل لي في الشتاء. فإلى اللقاء يا ديته، وحظًا طيبًا لك!».

صافحت ديته صديقتها وظلت واقفة حين ذهبت باربل إلى كوخ صغير لونه بني داكن، يبعد بضع خطوات عن الدرب في نقرة أمّنت له شيئًا من الحماية من ريح الجبال. يقع الكوخ في منتصف الطريق نحو الجبل، ويعتبر من دورفلي، ومن حسن الحظ أن له شيئًا من الحماية لأنه بالٍ متهالك، وليس آمنًا للسكن. وحين تهب ريح الجنوب العاصفة على الجبل، يهتز كل شيء في داخله من الأبواب والنوافذ ويرتج، وتصدر الروافد المتعفنة صريرًا وتهتز. في أيام كهذه، وبفعل وقوع مسكن الراعي في مكان مكشوف في الجبل، فمن المحتمل أن ينجرف إلى الوادي دون تحذير.

هنا عاش بيتر، الولد ذو الأحد عشر عامًا الذي يذهب كل صباح إلى دورفلي لجلب الماعز فيقودها إلى الجبال في الأعلى حيث تكون حرة حتى المساء في تناول ما اشتهت من نباتات الجبل اللذيذة.

ثم يذهب بيتر مع حيواناته الرشيقة راكضًا وقافزًا إلى أسفل الجبل ثانية حتى يبلغ دورفلي، فيطلق صفيرًا حادًا بأصابعه، فيأتي كل مالكي الماعز لأخذ حيواناتهم. ويأتي بالعادة فتية وفتيات صغار استجابة لصفير بيتر، إذ لم يشعر أي منهم بالخوف من العنزات الطيبة، وكانت هذه الساعة الوحيدة من اليوم طوال أشهر الصيف التي يحظى فيها بيتر بالفرصة لرؤية رفاقه الصغار، بحكم أنه يمضي بقية وقته وحيدًا مع الماعز. صحيح أن في بيته أمًا وجدة عمياء، لكنه مضطر دومًا للانطلاق في وقت باكر جدًا من الصباح، ويعود

إلى البيت في وقت متأخر من المساء من دورفلي، لأنه يمكث بقدر ما يشاء وهو يتحدث ويلعب مع الأطفال الآخرين، ولا يبقى في البيت إلا لتناول خبزه وحليبه صباحًا، ويحصل على وجبة مماثلة مرة أخرى في المساء، ثم يستلقي على فراشه وينام. مات أبوه، الذي يعرف أيضًا بالراعي لأنه كسب عيشه من الرعي في شبابه، حين كان يقطع الخشب قبل بضع سنوات. أما أمه التي كان اسمها الحقيقي بريجيتا، فقد دعيت دومًا بزوجة الراعي من أجل زوجها الراحل، وسميت الجدة العمياء بالجدة لكل الكبار والصغار في الجوار.

ظلت ديته واقفة عشر دقائق تبحث في كل اتجاه عن أثر للطفلين والماعز. ولم تر لهم واحدًا، فصعدت إلى بقعة أعلى حتى تحصل على إطلالة أوسع على الجبل الذي ينحدر تحتها إلى الوادي. ثم واصلت تفحصها للمنحدرات المجاورة بقلق متزايد في نظراتها وحركاتها. في أثناء ذلك صعد الطفلان على الدرب البعيد المتعرج، لأن بيتر يعرف الكثير من الأماكن التي يتوفر فيها الكلأ اللذيذ من شجيرات ونبتات نبتت لأجل عنزاته، وقد اعتاد على سوق قطيعه بعيدًا عن الدرب المألوف. لهثت الطفلة المرهقة من الحرارة وثقل درعها الثقيل من الثياب، وجهدت خلفه بشيء من الصعوبة في البدء. لم تقل شيئًا غير أن عينيها الصغيرتين ظلتا تراقبان بيتر وهو يقفز بحيوية هنا وهناك بقدميه الحافيتين ولم يرتد إلا سرواله القصير الخفيف، ثم العنزات الرشيقة السيقان التي مضت تتقافز على الصخور والشجيرات وعلى المرتفعات بسهولة أكبر. فجلست من فورها على الأرض وبقدر ما أمكن لأصابعها الصغيرة أن تتحرك بسرعة أخذت تخلع حذاءها

وجوربيها. وبعد أن فرغت من هذا، نهضت وفكت وشاحها الأحمر الحار ورمته ثم أخذت تخلع ثوبها، وخلعته في لحظة. غير أن لديها آخر عليها أن تفكه، لأن ديته قد ألبستها ثوب الأحد فوق ثوبها اليومي لتتحاشى مشقة حمله. وبسرعة البرق لحق الثوب اليومي بالآخر، فوقفت الطفلة وهي ترتدي رداءها الداخلي ذا الأكمام القصيرة، وتمد ذراعيها الصغيرين العاريين بجذل. ثم وضعت كل ثيابها في كومة مرتبة صغيرة، ومضت تقفز وتصعد خلف بيتر والعنزات برشاقة كأي واحدة من المجموعة. لم يكترث بيتر البتة بما فعلته الطفلة حين تخلفت عنه، ولكن حين جرت إليه بهيئتها الجديدة، علت وجهه ابتسامة اتسعت حين نظر إلى الخلف ورأى الكومة الصغيرة للثياب ملقاة على الأرض، حتى وصلت الابتسامة أذنيه، غير أنه لم ينبس ببنت شفة. أخذت الطفلة، وقد باتت حرة في الحركة، تتحدث مع بيتر، الذي تلقى أسئلة كثيرة ليجيبها، لأن رفيقته أرادت معرفة عدد العنزات، وأين يأخذها، وما الذي سيفعله عند وصوله. أخيرًا وبعد مضي بعض الوقت اقتربا مع الماعز من الكوخ في مرمى نظر الخالة ديته. وما إن رأت ديته الرفيقين يصعدان نحوها حتى صاحت: «ما الذي فعلته يا هايدي؟! أي مظهر هذا الذي تظهرين به؟ وأين ثوباك والوشاح الأحمر؟ والحذاء الجديد الذي اشتريته، والجوربين الجديد اللذين حكتهما لك، كل شيء ذهب! لم يبق شيء! ما الذي تفكرين به يا هايدي، أين ثيابك كلها؟».

فأشارت الطفلة بهدوء نحو بقعة أسفل الجبل وأجابت: «في الأسفل هناك». تبعت ديته اتجاه أصبعها، واستطاعت تمييز شيء

ملقى على الأرض تعلوه بقعة حمراء، فلم يخامرها الشك أنه الوشاح الصوفي الأحمر.

قالت ديته غاضبة: «يا عديمة الفائدة! كيف خطر لك أن تفعلي هذا؟ ما الذي جعلك تخلعين ثيابك؟ ما قصدك من هذا؟».

«لا أريد ثيابي»، قالت الطفلة دون إظهار أي علامة للندم لفعلها السابق.

«أيتها الطفلة المدللة الغبية! أليس لك عقل أبدًا؟»، تابعت ديته موبخة ومعنفة: «من سينزل كل هذا الطريق لجلبها؟ إنها نصف ساعة من المشي. اذهب يا بيتر واجلبها إلي بأسرع ما يمكنك، ولا تقف هناك فاغرًا فمك أمامي، كأنك مسمر إلى الأرض».

«إنني متأخر»، أجاب بيتر ببطء دون أن يتحرك قيد أنملة من مكانه واضعًا يديه في جيبيه مصغيًا إلى هياج ديته غضبًا وحيرة.

«حسن، لن تصل إلى مكان ما وأنت تواصل الوقوف هناك وعيناك تبرزان من رأسك»، كان جواب ديته الحانق، «ولكن اسمعني، ستحصل على شيء جيد»، وأخرجت له قطعة جديدة من النقود تلألأت في ضوء الشمس. فنزل بيتر الجبل الوعر من فوره، قاطعًا طريقًا مختصرًا، وفي وقت قصير جدًا وصل كومة الثياب التي ضمها تحت ذراعه وعاد ثانية بسرعة، فأثنت عليه ديته وهي تسلمه المكافأة الموعودة. ألقاها بيتر حالًا في جيبه وقد أشرق وجهه سرورًا، فلم يكن يومًا المالك السعيد لثروة كهذا.

«بوسعك حمل الأشياء لي حتى نصل بيت الخال، ما دمت ذاهبًا

في الاتجاه نفسه»، واصلت ديته التي استعدت لمتابعة صعودها إلى الجبل، وقد علا في مرتفع حاد بعد كوخ الراعي. وافق بيتر بسرور على فعل هذا ولحق بها بقدميه الحافيتين متأبطًا اللفة تحت ذراعه الأيسر وبالأيمن يؤرجح عصا الراعي، وهايدي والماعز يقفزن ويجرين بسرور قربه. بعد صعود دام أكثر من ثلاثة أرباع الساعة وصلوا إلى قمة الجبل. يقع كوخ الخال في مقابل صخرة، عرضة للرياح، غير أن كل شعاع من الشمس يسقط عليه ويمكن منه رؤية الوادي بأكمله في الأسفل. خلف الكوخ انتصبت ثلاث شجرات تنوب لها أغصان طويلة ثخينة غير مشذبة. وخلف هذه انتصب جانب من الجبل، ومرتفعاته الأقل انخفاضًا ما زالت مكسوة بالعشب والنبتات الجميلة، وفوقها منحدرات صخرية غطتها الشجيرات، تقود شيئًا فشيئًا إلى القمم الشاهقة العارية الصخرية.

مقابل الكوخ في الجانب المطل على الوادي، وضع الخال كرسيًا. وكان يجلس هناك واضعًا غليونه في فمه ويديه على ركبتيه، ينظر بهدوء حين لاح فجأة الطفلان والعنزات وابنة الأخت ديته وهم يصعدون. وصلت هايدي إلى أعلى أولًا، فذهبت في الحال إلى الرجل العجوز، ومدت يدها قائلة: «مساء الخير يا جدي».

«يا سلام، يا سلام، ما معنى هذا؟»، سأل بفظاظة، حين صافح الطفلة مصافحة عجولة، وأمعن النظر بها طويلًا متفحصًا إياها من تحت حاجبيه الكثين. فبادلته هايدي النظر بإمعان بعينين لا ترمشان، لأن هيئة جدها بلحيته الطويلة وحاجبيه الكثين الرماديين اللذين التصقا معًا فوق أنفه وبديا مثل شجيرة، كانت مظهرًا لافتًا عجزت

هايدي عن رفع نظرها عنه. ثم صعدت ديته يتبعها بيتر وقد وقف بهدوء ليراقب ما سيحدث.

«أرجو لك يومًا طيبًا يا خالي»، قالت ديته وهي تسير نحوه، «لقد أحضرت لك طفلة توبياس وآديليد. سيصعب عليك تذكرها، لأنك لم ترها قط منذ أن كان عمرها عامًا».

«ولأي شيء جاءت الطفلة إلي هنا؟»، سأل الرجل العجوز بجفاء. «أنت هناك»، وأخذ يتحدث إلى بيتر، «اذهب مع عنزاتك، فقد تأخرت عن موعدك، وخذ عنزتّي معك».

أطاعه بيتر سريعًا واختفى على الفور، لأن الرجل العجوز نظر إليه نظرة جعلته يشعر أنه لا يرغب بالبقاء أكثر.

«الطفلة هنا لتبقى معك»، قالت ديته، «لقد أديت واجبي نحوها، كما أظن، طوال هذه السنوات، وقد حان الوقت الآن لتؤدي واجبك».

«هذا هو الأمر إذن، أليس كذلك؟»، قال الرجل العجوز وهو ينظر إليها وقد احمرت عيناه، «ماذا لو أخذت الطفلة تعول وتبكي للحاق بك، كما هي الحال مع هذه الكائنات الصغيرة الغبية، فماذا أفعل بها حينئذٍ؟».

فأجابت ديته: «هذا شأنك. أعلم أنني اضطررت للالتزام بها دون شكوى حين كانت في عهدتي وهي رضيعة وفعلت ما يكفي أنا وأمي. أما الآن فعلي الذهاب والاعتناء بكسب قوتي، وأنت

قريب الطفلة الآخر. إن لم تستطع إبقاءها معك فافعل ما يحلو لك، وإن حدث لها مكروه فستكون أنت المسؤول، رغم أنني أرى أنك لا تود إرهاق ضميرك بعبء جديد».

لم يكن ضمير ديته مرتاحًا تمامًا فيما تفعله، وأخذت تشعر بالحر والضيق وقالت أكثر مما عزمت أن تقول. وحين قالت كلماتها الأخيرة، نهض الخال من مقعده ونظر إليها نظرة جعلتها تتراجع إلى الخلف خطوة أو اثنتين، ثم قال لها وهو يلوح بيده بصوت آمر: «اغربي عن وجهي هذه اللحظة، وعودي بأسرع ما تستطيعين إلى المكان الذي جئت منه، ولا تدعيني أرى وجهك ثانية في وقت قريب».

لم تنتظر ديته لتسمع الأمر مرتين: «فالوداع يا خالي إذن والوداع يا هايدي»، قالت وهي تستدير سريعًا وتنطلق لتنزل الجبال جريًا، ولم تخفف من سرعتها حتى وجدت نفسها آمنة في دورفلي ثانية، لأن شيئًا من الغضب الداخلي قد دفعها كأن محركًا بخاريًا يعمل في داخلها. وانهالت عليها الأسئلة مرة أخرى من كل الجوانب، لأن الجميع يعرفون ديته ووقائع ولادة الطفلة وتاريخها السابق، وكلهم سألوها عما فعلته بها. وجاء صوت من كل باب ونافذة يسأل: «أين الطفلة؟»، «أين تركت الطفلة يا ديته؟»، وظلت ديته تكرر الجواب بتأفف: «في الأعلى هناك مع الخال ألم!» «مع الخال ألم، ألم أخبرك لتوي؟».

ثم أخذت النسوة يكلن اللوم لها، فصاحت بها الأولى: «كيف استطعت فعل ذلك؟!، ثم أخرى: «كيف فكرت بترك طفلة لا

حول لها في الأعلى هناك؟»، ومرة بعد مرة انهالت عليها الكلمات: «يا للطفلة المسكينة!» تتبعها وهي تمضي في طريقها. جرت ديته بأسرع ما استطاعت بعد أن عجزت عن احتمال المزيد حتى صارت بعيدة عن أصواتهن. لقد انتابها الحزن بعد تفكيرها بما فعلت، لأن أمها الراحلة تركت الطفلة في رعايتها. غير أنها هدأت نفسها بأنها ستتمكن من فعل شيء أفضل للطفلة إن استطاعت جني الكثير من المال. وشعرت بالراحة لأنها سرعان ما ستبتعد عن هؤلاء الناس الذين أحدثوا جلبة حول الأمر، وزاد سرورها لأنها غدت حرة في الذهاب إلى مكان أفضل.

الفصل الثاني
في البيت مع الجد

عاد الرجل العجوز إلى مقعده ما إن رحلت ديته، وظل جالسًا هناك يحدق في الأرض دون أن ينبس ببنت شفة، وقد طفت فوقه غيوم كثيفة من دخان غليونه. سلت هايدي نفسها أثناء ذلك في محيطها الجديد، فبحثت هنا وهناك حتى عثرت على عرزال بني قبالة الكوخ تحفظ فيه العنزتان. فاسترقت النظر ووجدته خاليًا، فتابعت بحثها ووصلت أخيرًا إلى شجر التنوب خلف الكوخ. كان النسيم القوي يهب خلالها وساد في أغصانها العليا بعض الحفيف والهدير، فوقفت هايدي صامتة وأصغت. وحين أخذ الصوت يخفت عاودت المشي ثانية إلى الزاوية البعيدة للكوخ، وإلى المكان الذي جلس فيه جدها. وحين رأت أنه لم يزل جالسًا في المكان نفسه الذي تركته فيه، ذهبت ووقفت أمام الرجل العجوز واضعة يديها خلف ظهرها ووقفت وحدقت به. رفع جدها نظره وحين ظلت واقفة دون أن تتحرك سألها: «ما الذي تريدينه؟».

«أريد أن أرى ماذا لديك داخل البيت»، قالت هايدي.

«تعالي إذن!»، ونهض الجد وتقدمها إلى الكوخ.

«أحضري حزمة ثيابك معك»، أمرها حين تبعته.

«لن أحتاجها بعد الآن»، أجابت سريعًا.

فاستدار الرجل العجوز ونظر بإمعان إلى الطفلة، التي تلألأت عيناها الداكنتان في ترقب نشوان لما ستراه في الداخل «لا شك أنها لا تفتقر للذكاء»، غمغم لنفسه، «ولماذا لست بحاجة إليها بعد اليوم؟» سأل بصوت عال.

«لأنني أريد أن أمشي مثل العنزات بسيقانها الرشيقة النحيلة».

«حسن، بوسعك فعل ذلك إن أردت»، قال جدها، «ولكن أدخلي متاعك، علينا وضعه في الصوان».

ففعلت هايدي ما قيل لها. فتح الرجل العجوز الباب وخطت هايدي للداخل بعده، فوجدت نفسها في غرفة كبيرة احتلت الطابق الأرضي من الكوخ بأكمله، ولا أثاث سوى طاولة وكرسي، وفي أحد الأركان فراش الجد والموقد في الركن الآخر وفوقه إبريق كبير، وفي الجانب البعيد رأت بابًا في الجدار؛ كان ذلك الصوان. فتحه الجد وكان فيه ثيابه بعضها معلق وبعضها موضوع على رف، وهي بضعة قمصان وبعض الجوارب والمناديل. وعلى الرف الثاني أطباق وأكواب وكؤوس، وعلى رف أعلى رغيف مدور، ولحم مدخن وجبن وكل ما يحتاجه الخال ألم لطعامه وملبسه موجود في الصوان. وما إن فتح، حتى جرت هايدي وألقت بحزمة ثيابها، بعيدًا خلف

ثياب جدها بقدر ما استطاعت، فلا يعثر عليها بسهولة مرة أخرى. ثم أمعنت النظر في أرجاء الغرفة، وسألت «أين سأنام يا جدي؟».

«أينما أردت»، أجاب.

سُرت هايدي، وأخذت من فورها تتفحص كل الزوايا والأركان لتبين أيها أفضل منامًا. رأت في الزاوية قرب فراش جدها سلمًا قصيرًا قبالة الجدار، فصعدته ووجدت نفسها في علية، فيها كومة كبيرة من التبن الطازج برائحته الزكية، ومن خلال نافذة دائرية في الجدار استطاعت أن تطل على الوادي.

«سأنام هنا في الأعلى يا جدي»، نادته من مكانها، «إن المكان جميل هنا. اصعد وانظر كم هو جميل!».

«أوه، إنني أعرفه»، قال لها مجيبًا.

«سأعد الفراش الآن»، قالت ومضت جيئة وذهابًا تؤدي عملها بنشاط، «لكني أود منك أن تحضر لي ملاءة، فلا فراش بلا ملاءة، يحتاجها المرء ليستلقي عليها».

«حسن»، قال الجد واتجه نحو الصوان بسرعة وبعد التنقيب داخله لبضع دقائق سحب قطعة قماش طويلة خشنة هي كل ما يملكه لتقوم مقام الملاءة. فحملها إلى العلية، حيث وجد هايدي قد أعدت فراشًا جميلًا. لقد وضعت مزيدًا من التبن الطازج في زاوية ليكون وسادة، وصنعتها لتتمكن من الرؤية عبر النافذة بسهولة إن كانت في فراشها.

«هذا جميل»، قال جدها، «والآن علينا وضع الملاءة، ولكن انتظري لحظة». وذهب وجلب كومة كبيرة أخرى من التبن ليجعل الفراش أسمك، فلا تشعر الطفلة بصلابة الأرض تحتها، «والآن هاتها». أمسكت هايدي بالملاءة لكنها ثقيلة جدًا عليها، وكان هذا جيدًا لأن القماش السميك سيمنع عيدان التبن الحادة من التحرك ووخزها. وبسط الاثنان الملاءة على الفراش، وأدخلت هايدي أطراف الملاءة تحت التبن. فبدا الفراش مرتبًا ومريحًا بقدر أي فراش تتمناه، ووقفت هايدي تحدق بصنع يدها بتفكر.

«لقد نسينا شيئًا يا جدي»، قالت بعد صمت قصير.

«وما ذاك؟»، سألها.

«الغطاء، فأنت تندس بين الملاءات والأغطية حين تأوي إلى فراشك».

«أوه! هذا ما يفعله الناس، صحيح؟ غير أنني لا أظنني أملك غطاء»، قال الرجل العجوز.

«حسن، لا تلق بالًا يا جدي»، قالت هايدي بنبرة مواسية، «يمكنني وضع مزيد من التبن فوقي»، فاستدارت لتجلب ملء ذراع من التبن حين أوقفها جدها قائلًا: «انتظري لحظة». ونزل من السلم ثانية وذهب نحو فراشه، ثم عاد إلى العلية حاملًا زكيبة كبيرة سميكة مصنوعة من الكتان ومدها قائلًا: «إليك، أليس هذا بأفضل من التبن؟».

أخذت هايدي تجهد لبسط الزكيبة بكل قوتها الصغيرة، رغبة

منها لجعلها ناعمة وممددة، لكن يديها الصغيرتين ليستا مناسبتين لهذا العمل الشاق. فجاء جدها لعونها. وحين بسطاها بأناقة على الفراش، بدت جميلة ودافئة ومريحة فجعلت هايدي تنظر إليه بسرور. «إنه غطاء رائع، والفراش يبدو جميلًا أيضًا! أتمنى لو أن الوقت ليل، فآوي إليه على الفور».

«أظن أن علينا تناول شيء أولًا»، قال الجد، «ما رأيك؟».

نسيت هايدي كل شيء آخر في غمرة حماسها لإعداد الفراش، وما إن أخذت تفكر بالطعام حتى شعرت أنها تتضور جوعًا، لأنها لم تتناول شيئًا سوى قطعة الخبز وكوب القهوة الخفيفة التي أفطرت عليهما باكرًا هذا الصباح قبل الانطلاق في رحلتها الطويلة الحارة. فأجابت بلا تردد: «أجل، أنا أظن ذلك أيضًا».

«لننزل إذن، ما دمنا متفقين»، قال الرجل العجوز وتبع الطفلة في النزول من السلم. فاتجه إلى الموقد، ودفع الإبريق الكبير جانبًا، وتناول الإبريق الصغير المعلق على السلسلة، وجلس على المقعد المدور ذي القوائم الثلاث أمام النار ونفخها حتى صارت لهبًا مضطرمًا لامعًا. سرعان ما أخذ الإبريق يغلي، فحمل الرجل العجوز قطعة كبيرة من الجبن على شوكة طويلة من الحديد فوق النار، مدورًا إياها على الجانبين حتى تحمصت وصار لونها أصفر ذهبيًا جميلًا من كل جانب. راقبت هايدي كل ما يجري بفضول وتحفز. وخطرت لها فكرة فجأة، فاستدارت وجرت نحو الصوان وأخذت تمضي جيئة وذهابًا بحماس. نهض الجد أخيرًا وجاء حاملًا

الإبريق والجبن إلى المائدة، فوجدها قد أعدت إعدادًا أنيقًا وعليها رغيف مدور وطبقان وسكينان كل منها في مكانه الصحيح، لأن هايدي انتبهت بدقة هذا الصباح لكل ما كان في الصوان، وعرفت الأشياء التي تلزمهما لتناول طعامهما.

«آه، هذا حسن»، قال الجد، «يسعدني أن أراك تبادرين من نفسك»، ووضع أثناء حديثه الجبن المحمص على طبقة من الخبز، «ولكن ما زلنا بحاجة لشيء ما».

نظرت هايدي إلى الإبريق الذي يتصاعد منه البخار مثيرًا الشهية، وركضت ثانية نحو الصوان. لم تر في البدء إلا وعاء صغيرًا ترك على الرف، ولم تطل حيرتها كثيرًا لأن نظرها وقع بعد لحظة على كأسين في المؤخرة، ودون أن تضيع لحظة عادت بهما وصُحيْفة ووضعتها على الطاولة.

«جيد، أرى أن بوسعك ترتيب الأمور، ولكن ماذا ستستخدمين للجلوس؟»، جلس الجد على الكرسي الوحيد في الغرفة. جرت هايدي إلى الموقد وسحبت المقعد ذا القوائم الثلاثة إلى الطاولة وجلست عليه.

«لقد عثرت على مقعد لنفسك كما أرى، غير أنني أخشى أنه منخفض جدًا»، قال الجد، «لكنك لست طويلة لتصلي الطاولة حتى لو جلست في كرسي. على أية حال أول ما علينا فعله هو تناول شيء من الطعام فتعالي».

ونهض عندئذ وملأ الصُحيفة بالحليب ووضعها على الكرسي

ودفعه أمام هايدي الجالسة على المقعد الصغير ذي القوائم الثلاث، فصار لديها طاولة لها وحدها. ثم جلب لها شريحة كبيرة من الخبز وقطعة من الجبن الذهبي وقال لها أن تأكل. وبعدها ذهب وجلس على زاوية الطاولة وبدأ بتناول طعامه. رفعت هايدي الصُحيْفة بكلتا يديها وشربت دون توقف حتى أفرغتها، فقد عاد إليها العطش الذي شعرت به في رحلتها الطويلة الحارة. ثم أخذت نفسًا عميقًا، إذ حبست أنفاسها في غمرة إرواء عطشها، ثم وضعت الصُحيْفة.

«هل الحليب لذيذ؟»، سأل جدها.

«لم أشرب ألذ منه قبلًا»، أجابت هايدي.

«عليك أن تشربي المزيد إذن»، وملأ الرجل العجوز وعاءها ثانية حتى حافته ووضعه أمام الطفلة، التي بدأت بجوع تقضم خبزتها، وقد دهنتها أولًا بالجبنة التي صارت طرية كالزبدة بعد تحميصها، وكان طعمها شهيًا. وبدت الطفلة غاية في الرضا وهي جالسة تأكل، وفي وقفاتها تشرب جرعات من الحليب. حين انتهت الوجبة، خرج الجد ليرتب عرزال العنزتين، وراقبته هايدي باهتمام وهو يكنسه أولًا، ثم يضع قشًا جديدًا لتنام عليه العنزتان. ثم ذهب إلى السقيفة الصغيرة وقطع بعض العصي الطويلة المدورة ولوحًا مدورًا صغيرًا، حفر فيه بعض الثقوب وأدخل العصي فيها، وبشيء يشبه السحر صنع مقعدًا ثلاثي القوائم، مثل مقعد جدها إلا أنه أعلى. وقفت هايدي ونظرت إليه وقد أخرستها الدهشة.

«ماذا يكون هذا برأيك؟»، سأل جدها.

«إنه مقعدي، أعرف ذلك لأنه عالٍ، وقد صنعته في لحظة»، قالت الطفلة ولم تزل مشدوهة تعجبًا وانبهارًا.

«إنها تدرك ما ترى، وعيناها في مكانهما الصحيح»، قال الجد لنفسه، وهو يواصل طريقه نحو الكوخ يدق مسمارًا هنا وهناك أو يعدل بسرعة جزءًا من الباب، ومضى يتنقل من بقعة لأخرى حاملًا المطرقة والمسامير وقطعًا من الخشب، يصلح أو ينجز عملًا أينما دعت الحاجة. تبعته هايدي خطوة بخطوة، وعيناها تحفظان بانتباه كل ما فعله، وبات كل ما رأته مصدرًا جديدًا لبهجتها.

ومر الوقت بسعادة حتى المساء. ثم أخذت الريح تعصف أعلى من قبل خلال أشجار التنوب، وأصغت هايدي إلى الصوت مسرورة، وعمر قلبها بالسعادة حتى أنها جرت ورقصت حول الأشجار الكبيرة، كأنما أصابها جذل لم يعرفه أحد. ووقف الجد وراقبها من السقيفة. سُمع صفيرٌ حادٌ فجأة، فكفت هايدي عن الرقص، وخرج الجد. أسفل المرتفعات العالية نزلت العنزات تتقافز واحدة تلو الأخرى، وفي وسطها بيتر. قفزت هايدي إلى الأمام وأطلقت صرخة فرح واندفعت بين القطيع تحيي واحدة بعد الأخرى من صديقات الصباح. وقفت العنزات بهدوء حين اقتربت من الكوخ، ثم جرت اثنتان منها، اثنتان جميلتان رشيقتان -واحدة بيضاء والأخرى بنية- إلى حيث يقف الجد وأخذتا تلعقان يديه، لأنه يحمل قليلًا من الملح يحضره دومًا لعنزتيه عند عودتهما إلى البيت، واختفى بيتر مع بقية قطيعه. ربتت هايدي بلطف على العنزتين بالتوالي، وهي تجري إلى واحدة منهما ثم إلى الأخرى،

وتقفز من فرحتها برؤية العنزتين الصغيرتين الجميلتين. «هل هما لنا يا جدي؟ هل كلتاهما لنا؟ هل ستدخلهما إلى العرزال؟ هل ستظلان معنا دومًا؟».

اندفعت أسئلة هايدي واحدًا إثر الآخر، فلم يتح لجدها الوقت لإجابتها إلا بقوله «أجل، أجل». حين فرغت العنزتان من لعق الملح، أخبرها جدها أن تذهب وتجلب صُحيْفتها والخبز.

أطاعت هايدي وعادت بسرعة. حلب الجد المعزة البيضاء وملأ الوعاء، ثم أخذ كسرة من الخبز وقال «تناولي عشاءك، واذهبي للنوم بعدها. تركت لك ابنة الأخت ديته حزمة أخرى فيها ثوب للنوم وأشياء صغيرة أخرى فيها، ستجدينها أسفل الصوان إن أردتها. يجب أن أذهب لوضع الماعز في العرزال، فاذهبي ونامي جيدًا».

«ليلة طيبة يا جدي! ليلة طيبة. ما اسماهما يا جدي، ما اسماهما؟»، نادته وهي تجري خلف جدها والعنزتين وهم يبتعدون.

«سميت البيضاء بلتل سوان (البجعة الصغيرة)، والبنية لتل بير (الدب الصغير)»، أجاب.

«ليلة طيبة يا لتل سوان، ليلة طيبة يا لتل بير!»، نادت ثانية بأعلى صوتها، لأنهما صارتا في العرزال. ثم جلست على المقعد وأخذت تأكل وتشرب، لكن الريح كانت قوية جدًا كادت أن تطيّرها، فأنهت عشاءها على عجل ودخلت وصعدت إلى فراشها، حيث استلقت سريعًا بهدوء وسعادة بقدر أي أميرة صغيرة على فراشها الحريري.

خلد الجد إلى الفراش أيضًا بعدها بقليل والوقت لم يزل غسقًا، لأنه يستيقظ كل صباح مع شروق الشمس، والشمس تطلع متسلقة الجبال في ساعة باكرة أثناء شهور الصيف هذه. عصفت الريح أثناء الليل بشدة، وهبت بهياج على الجدران فاهتز الكوخ وأنّت العوارض القديمة وصرّت. وجاءت الريح تعول وتنوح من المدخنة مثل صوت امرئ يتألم، وثارت غضبًا بين أشجار التنوب الكبيرة حتى اقتلعت بعض أغصانها وتساقطت هنا وهناك. نهض الرجل العجوز منتصف الليل وهمهم بصوت شبه مسموع «ستصاب الطفلة بالذعر»، وصعد السلم وذهب ووقف قرب فراش الطفلة.

في الخارج كان القمر يصارع الغيوم الداكنة السريعة التي تتركه ساطعًا وصافيًا مرة وتغزوه مرة فيظلم ثانية. تسلل ضوء القمر من النافذة المدورة على فراش هايدي مباشرة، وقد استلقت تحت الغطاء الثقيل، ووجنتاها ورديتان من النوم، ورأسها مسجى بهدوء على ذراعها الممتلئة الصغيرة، وعلى وجهها تعبير سعيد كأنها تحلم بشيء سار. وقف الرجل العجوز ينظر إلى الطفلة النائمة حتى اختفى القمر ثانية خلف الغيوم ولم يعد بوسعه الرؤية، فنزل عائدًا إلى فراشه.

الفصل الثالث
الخروج مع الماعز

استيقظت هايدي باكرًا في الصباح التالي على صوت صفير عالٍ، وكانت الشمس تسطع عبر النافذة المدورة وتسقط في أشعة ذهبية على فراشها على الكومة الكبيرة من التبن. وما إن فتحت عينيها حتى بدا كل شيء في العلية يتلألأ كأنه من الذهب. نظرت حولها في دهشة ولم تدرك للحظة أين هي. لكنها سمعت صوت جدها الهادئ خارجًا، فأخذت هايدي تتذكر كل ما حدث؛ وأنها جاءت من منزلها السابق وكانت على الجبال مع جدها بدلًا من أن تكون مع أورسولا العجوز. كانت الأخيرة صماء تقريبًا وتشعر بالبرد دومًا، فتجلس إما قرب الموقد في المطبخ أو قرب مدفأة غرفة الجلوس، وكانت هايدي ملزمة بالبقاء قربها، لأن المرأة العجوز ضعيفة السمع ولا تعرف مكان الطفلة إن لم ترها. وحُبست هايدي بين الجدران الأربعة، وكثيرًا ما تاقت إلى الخروج. فشعرت بالسعادة هذا الصباح حين استيقظت في بيتها الجديد وتذكرت كل الأشياء الجديدة التي رأتها البارحة والتي ستراها ثانية هذا اليوم،

وإلى جانب هذا تذكرت العنزتين الحبيبتين بسعادة. قفزت هايدي سريعًا من فراشها وكفتها لحظات قليلة لترتدي ثيابها التي خلعتها الليلة الماضية، فهي ليست بكثيرة. ثم نزلت السلم وجرت خارجة من الكوخ. وهناك وقف بيتر مع قطيع الماعز، والجد يخرج عنزتيه من العرزال لتنضما للأخريات، فتقدمت هايدي لتتمنى صباحًا طيبًا له وللعنزتين.

«هل تودين الذهاب معهما إلى الجبال؟» سألها جدها. لم يكن شيء ليسعد هايدي أكثر من ذلك، فقفزت مرحًا إجابة له.

«ولكن عليك أولًا أن تغتسلي وترتبي نفسك، وإلا سخرت منك الشمس الشديدة السطوع في الأعلى لقذارتك. إليك، لقد أعددت كل شيء من أجلك» وأشار جدها وهو يتحدث إلى حوض كبير مليء بالماء، تحت الشمس أمام الباب. جرت إليه هايدي وأخذت ترش وتدعك حتى صارت تلمع من النظافة. دخل الجد إلى الكوخ داعيًا بيتر ليتبعه وأن يجلب حقيبته. أطاع بيتر مندهشًا، ووضع الحقيبة الصغيرة التي يخبئ فيها غداءه الضئيل.

«افتحها»، قال الرجل العجوز ووضع داخلها قطعة كبيرة من الخبز وقطعة كبيرة مثلها من الجبن، ما جعل بيتر يفتح عينيه دهشة، لأن كلًا منهما تفوق بضعفين القطعتين اللتين يحملهما غداء له.

«ولم يبق إلا الصُحيفة الصغيرة»، أضاف الجد، «لأن الطفلة لا تستطيع شرب حليبها من ضرع العنزة كما تفعل أنت، فلم تعتد ذلك. عليك أن تحلب لها ملء وعاءين حين تتناول غداءها، لأنها

ستذهب معك وتظل معك حتى تعود مساءً، ولكن انتبه لئلا تسقط على الصخور، هل سمعتني؟».

جاءت هايدي تجري وسألت بقلق: «هل ستسخر مني الشمس الآن يا جدي؟». ترك جدها منشفة خشنة معلقة قرب الحوض، وقد دعكت بها وجهها وذراعيها وعنقها جيدًا، خوفًا من الشمس، ووقفت هناك حمراء مثل قريدس، فضحك ضحكة قصيرة.

«كلا، ليس لديها سبب لتسخر منك»، أكد لها، «ولكن دعيني أخبرك أمرًا، حين تعودين هذا المساء عليك أن تدخلي إلى الحوض مثل سمكة لأنك إن جريت مثل الماعز ستصبح قدماك قذرتين. يمكنك الذهاب الآن».

فانطلقت نحو الجبال جذلة. أبعدت الرياح أثناء الليل كل الغيوم، وامتدت السماء الزرقاء الداكنة عاليًا، وفي وسطها سطعت الشمس الباهرة على المنحدرات الخضراء للجبل، حيث فتحت الزهور كؤوسها الزرق والصفر، ونظرت إليها باسمة. مضت هايدي تجري هنا وهناك وتصرخ من الفرح، فقد وجدت هنا رقعًا كاملة من أزهار الربيع الحمراء الرقيقة، وهناك الوميض الأزرق للجنطايا الجميلة، وفوقها ضحكت القُرّيضة الذهبية ذات الأوراق الرقيقة وتمايلت. نسيت هايدي بيترَ والعنزاتِ عند رؤيتها هذا الحقل المتموج من الزهور الملونة الزاهية. فجرت إلى الأمام ثم جرت جانبًا، ويستهويها جانب ثم آخر حين يقع نظرها على بقعة مشرقة من الأحمر القاني أو الأصفر الفاقع. وظلت طوال الوقت

تقطف حفنات من الزهور وتضعها في مئزرها الصغير، لأنها أرادت أخذها إلى البيت وغرسها في التبن، فتجعل فراشها يبدو مثل المروج في الخارج. كان على پيتر أن يظل يقظًا، وعملت عيناه المدورتان اللتان لا تتحركان سريعًا، أكثر مما استطاعتا لأن العنزات نشيطات بقدر هايدي، فتجري في كل الاتجاهات وعلى پيتر أن يتبعها وهو ينادي ويصفر ويلوح بعصاه ليعيد كل الهاربات ثانية.

«وأين ذهبت الآن يا هايدي؟»، صاح غاضبًا.

«هنا»، أجابه صوت من مكان ما.

لم يستطع پيتر رؤية أحد، لأن هايدي جلست على الأرض عند سفح تل صغير مغطى بكثافة بزهور بقلة الأوجاع الشذيّة. وبدا الهواء كله مشبعًا بأريجها ورأت هايدي أنها لم تشم شيئًا كهذا من قبل. فجلست محاطة بالزهور تستنشق أنفاسًا عميقة من الهواء المعطر.

«تعالي هنا»، صاح پيتر ثانية، «لئلا تسقطي من الصخور. لقد أمر جدك بألا تفعلي ذلك».

«أين الصخور؟»، سألت هايدي وهي تجيبه، غير أنها لم تتزحزح من مكانها فقد بدا شذا الزهور أعذب مع كل نسمة تجلبه نحوها.

«في الأعلى هنا، في الأعلى. ما زال أمامنا طريق طويل، فهلمي! وفي القمة الأعلى يجلس الطير الجارح الكبير وينعب».

لقد نجح هذا، فقد نهضت هايدي وجرت نحو پيتر ومئزرها مليء بالزهور.

«لديك ما يكفيك»، قال الصبي وهما يستأنفان الصعود معًا، «ستظلين هنا إلى الأبد إن استمررت في القطف، ولو جمعت كل الزهور الآن ما بقي شيء للغد».

بدت الحجة الأخيرة مقنعة لهايدي، كما أن مئزرها كان مليئًا فما من مكان لزهرة أخرى، وليس من الصواب ألا يبقى شيء لقطفه في يوم آخر. فبقيت مع بيتر، وصارت العنزات أكثر هدوءًا في سلوكها، لأنها أخذت تشم النبتات المفضلة لديها، التي تنمو على التلال الأعلى وأخذت تتسلق دون توقف توقًا للوصول إليها. تقع البقعة التي يتوقف فيها بيتر عادة لترعى عنزاته، وحيث يمكث طوال النهار عند سفح الصخور العالية التي كست جزءًا كبيرًا منها الأحراشُ وأشجار التنوب، وخلفها ترتفع قممها العارية الوعرة. على جانب من الجبل انقسمت الصخور إلى صدوع عميقة، وكان الجد محقًا في تحذير بيتر من الخطر. وبعد أن صعدا إلى مكان الرعي، نزع بيتر حقيبته ووضعها بحذر في حفرة في الأرض، لأنه عرف كيف تكون الريح ولم يرغب برؤية مقتنياته الثمينة وهي تتدحرج أسفل الجبل بهبة ريح مفاجئة. ثم ألقى بجسده وتمدد على الأرض الدافئة، لأنه كان متعبًا بعد كل هذا العناء.

حلت هايدي مئزرها ولفته بعناية حول الأزهار ووضعته قرب حقيبة بيتر داخل الحفرة، ثم جلست قرب جسده الممدد ونظرت حولها. يقع الوادي في الأسفل وهو يستحم بنور الشمس، وأمامها ارتفع حقل ثلجي، عاليًا قبالة السماء الزرقاء الداكنة، وعلى اليسار

كومة هائلة من الصخور على جانبيها قمة عالية جرداء كأنها تثقب الزرقة، وتنظر إليها بحنق. جلست الطفلة دون حراك، وعيناها تلتقطان المشهد بأكمله، ومن حولها سكون عظيم لا يقطعه إلا نفحات ناعمة خفيفة من النسيم، تؤرجح الأجراس الرقيقة للزهور الزرقاء، ورؤوس القرّيضة الذهبية البراقة وتجعلها تتمايل بسعادة على سيقانها الرشيقة. غط بيتر في النوم بعد تعبه وكانت العنزات تصعد في الأرجاء بين الأحراش عاليًا. لم تشعر هايدي بسعادة كهذه من قبل في حياتها. وقد شربت ضياء الشمس الذهبي والهواء النقي والشذا الحلو للزهور ولم تتمن شيئًا أكثر من البقاء هناك إلى الأبد. وهكذا مضى الوقت، وهايدي تطل كثيرًا من الوادي على الجبال العالية التي بدا أن لها وجوهًا، وتنظر إليها كأنها صديقة قديمة. ثم سمعت فجأة زعيقًا عاليًا أجش في الأعلى ورفعت نظرها فرأت طيرًا أكبر من أي طير رأته من قبل، له جناحان كبيران مبسوطان يحوم ويحوم في دوائر واسعة ويطلق صوت نعيب حاد فوقها.

«بيتر، استيقظ يا بيتر!»، نادته هايدي، «انظر إلى الطير الكبير هناك، انظر انظر!».

نهض بيتر لسماع ندائها، وجلسا معًا يراقبان الطائر الذي حلّق أعلى وأعلى في الفضاء الأزرق حتى اختفى خلف قمم الجبال الرمادية.

«أين ذهب؟»، سألت هايدي التي تابعت حركات الطائر باهتمام بالغ.

«عاد إلى عشه»، قال بيتر.

«هل بيته في الأعلى هناك؟ أوه، كم جميل أن يكون عاليًا للغاية! لماذا يطلق هذه الأصوات؟».

فقال بيتر «لأنه لا يستطيع تجنب ذلك».

«لنصعد إلى هناك ونر مكان عشه»، اقترحت هايدي.

«أوه! أوه! أوه!»، تعجب بيتر وقد صار استهجانه لاقتراح هايدي أوضح مع كل كلمة، «عجبًا، لا يمكن حتى للعنزات تسلق هذا العلو، ثم ألم يحذرني الخال من سقوطك من الصخور؟».

أخذ بيتر يصفر فجأة ويهتف بصوت عالٍ ولم تستطع هايدي أن تستجلي ما يحدث، لكن العنزات فهمت صوته، لأنها جاءت تتقافز واحدة تلو الأخرى أسفل الصخور حتى تجمعت كلها على المرج الأخضر، وبعضها ما زال يقضم السيقان الغضة، وبعضها الآخر يجري هنا وهناك أو تتدافع مع بعضها بعضًا بقرونها لتتسلى.

قفزت هايدي وجرت هنا وهناك بينها، لأن رؤية العنزات تلعب معًا هكذا أمر جديد عليها، وفاقت فرحتها الوصف وهي تنضم إلى مآنسها. تعرفت إليها كلها؛ كل واحدة بدورها، لأنها رأت كل واحدة متفردة بذاتها، وكل عنزة لها سلوك خاص بها. أخرج بيتر عندئذ حقيبته من الحفرة ووضع قطع الخبز والجبن على الأرض في هيئة مربع، القطعتين الكبيرين من جهة هايدي، والصغريين من جهته، لأنه عرف تمامًا أيهما لها وأيهما له. ثم أخرج الصُحيْفة الصغيرة وحلب بعض الحليب الشهي فيها من العنزة البيضاء، ووضع الوعاء وسط المربع. ثم نادى هايدي لتأتي، غير أنها لا بد من ندائها

أكثر من الماعز، لأنها متحمسة ومستمتعة بالوثب واللعب الرشيق لرفاق لعبها الجدد فلم تعد تسمع أو ترى شيئًا. لكن بيتر عرف كيف يسمعها، لأنه صاح حتى رددت الصخور صدى صوته، فجاءت هايدي أخيرًا وحين رأت الوجبة المغرية مبسوطة على الأرض أخذت تقفز حولها فرحًا.

«دعي عنك القفز الآن، هذا وقت الغداء»، قال بيتر، «فاجلسي وابدئي».

جلست هايدي «هل الحليب من أجلي؟»، سألت بنظرة فرحة أخرى لرؤية المربع المعد بأناقة تتوسطه الصُحيْفة مثل تحفة.

«أجل»، أجاب بيتر، «والقطعتان الكبيرتان من الخبز والجبن لك أيضًا، وحين تشربين هذا الحليب ستحصلين على صُحيْفة أخرى من العنزة البيضاء، ثم سيحين دوري».

«ومن أي واحدة تحصل على حليبك؟» سألت هايدي.

«من عنزتي أنا، الرقطاء. ولكن هيا تناولي غداءك»، قال بيتر مذكرًا إياها مرة أخرى أنه حان وقت الطعام. رفعت هايدي الوعاء وشربت الحليب وما إن وضعته فارغًا حتى نهض بيتر وملأه ثانية من أجلها. ثم قطعت قطعة من خبزتها وناولت رفيقها الباقي، الذي لم يزل أكبر من قطعة بيتر، مع شريحة الجبن كاملة، قائلة «يمكنك تناول هذا، لدي الكثير».

نظر بيتر إلى هايدي، عاجزًا عن الكلام من الدهشة، لأنه لم يفعل أو يقل شيئًا مماثلًا عن شيء يملكه أبدًا. فتردد لحظة لأنه لم

يصدق أن هايدي جادة، غير أنها ظلت تمد الخبز والجبن، ولأن بيتر لم يأخذها وضعتها على ركبتيه. فرأى أنها تعني ما قالت حقًا، فأمسك بطعامه وأومأ شاكرًا قابلًا هديتها، ثم تناول وجبة أخرى أروع من أي وجبة أخرى منذ أن صار راعيًا. وظلت هايدي تراقب العنزات وقالت «أخبرني بأسمائها كلها».

يحفظ بيتر أسماءها عن ظهر قلب، ولا يجد صعوبة في تذكرها إذ ليس في عقله سوى القليل من الأمور. فبدأ يخبر هايدي اسم كل عنزة وهو يشير إليها. استمعت هايدي باهتمام كبير، ولم يمض وقت طويل حتى صارت تميز العنزات وتناديها بأسمائها، لأن لكل منها سماتها التي لا يمكن للمرء أن يخطئها، إلا أنه يحسن به مراقبتها عن كثب وهذا مافعلته هايدي. فلدينا تِركْ الكبير بقرنيه الكبيرين، الذي يريد دومًا ركل العنزات الأخرى، فتولي هاربة لمرآه يقترب متحاشية الرفيق الجلف. ما عدا غرينفلنتش، العنزة الصغيرة الرشيقة الفطنة، التي تتحلى بشجاعة كافية لمواجهته، فتهجم عليه ثلاث مرات أو أربع متلاحقة، بكثير من الحذق والرشاقة، حتى أن تِركْ الكبير يقف ساكنًا مذهولًا دون أن يجرؤ على مهاجمتها ثانية، لأن غرينفلنتش تواجهه مستعدة لمزيد من الأفعال القتالية وقرناها حادان للغاية. ثم لدينا سنوفليك (رقاقة الثلج) البيضاء الصغيرة التي تثغو ثغاء متضرعًا وحزينًا جعل هايدي تجري إليها عددًا من المرات لتأخذ رأسها بين يديها لتهدئتها. وفي هذه اللحظة سمعت الصرخة الخافتة المتوسلة ثانية، فقفزت هايدي وجرت ووضعت ذراعيها حول عنق العنزة الصغيرة، وسألتها بصوت

حنون «ما الأمر يا سنوفليك الصغيرة؟ لماذا تنادين هكذا كأنك في خطر؟»، فاقتربت العنزة من هايدي أكثر كمن يفضي إليها بسر وكفت عن الثغاء. نادى پيتر من مكان جلوسه، إذ لم يفرغ بعد من تناول الخبز والجبن، «إنها تبكي لأن العنزة الكبيرة ليست بصحبتها، لقد بيعت في مينفيلد أمس الأول، فلم تعد تصعد الجبال مرة أخرى».

«ومن هي العنزة الكبيرة؟» سألت هايدي.

«عجبًا، إنها أمها طبعًا»، كان الجواب.

«وأين جدتها؟»، هتفت هايدي ثانية.

«ليس لديها».

«والجد؟».

«ليس لديها».

«أوه، يا لك من مسكينة يا سنوفليك الصغيرة!»، قالت هايدي وهي تتشبث بلطف بالمعزة، «ولكن لا تبكي هكذا مرة أخرى، تعالي الآن، سآتي هنا معك كل يوم، فلا تكوني وحيدة بعد اليوم، وإن أردت شيئًا فما عليك إلا القدوم إلي».

فركت العنزة رأسها بحنان على كتف هايدي، ولم تعد تثغو ثغاء حزينًا. وحين أنهى پيتر وجبته انضم إلى هايدي والعنزات، وقد وجدت هايدي حتى الآن أشياء رائعة كثيرة حولها، إلا أنها تأكدت أن أجمل العنزات وأحسنها سلوكًا الاثنتان اللتان يملكهما

جدها حتمًا، فهما تتحركان بشيء من الرفعة وتمضيان في طريقهما، وأما بالنسبة لِترك الكبير فهما تعاملانه بازدراء ولا مبالاة.

أخذت العنزات تتسلق الصخور ثانية، وكل منها تبحث عن النبتات التي تحبها بطريقتها، فبعضها تقفز فوق كل ما تراه حتى تعثر على ما تريد، وبعضها الآخر تمضي بحذر أكثر وتقتلع كل الأوراق اللذيذة في طريقها. ولم يزل تِـرك الكبير ينكز العنزات الأخريات بقرنه بين الفينة والأخرى. صعدت لتل سوان ولتل بير إلى الأعلى برشاقة ولم تفشلا مرة في العثور على أفضل الأحراش، ثم وقفتا متوازنتين توازنًا جميلًا على سيقانهما الجميلة وقضمتا الأوراق بلطف. وقفت هايدي ويداها خلف ظهرها تراقب باهتمام كل ما فعلتاه.

وقالت للصبي الذي ألقى بجسده ثانية على الأرض: «إن أجمل العنزات هما لتل سوان ولتل بيريا پيتر».

فأجابها: «أجل، أعرف أنهما كذلك. الخال ألم يمشطهما ويغسلهما ويعطيهما الملح، ولديه أجمل عرزال لهما».

قفز پيتر على حين غرة وجرى بسرعة خلف العنزات. تبعته هايدي بأقصى ما تستطيع، لأنها تلهفت بشدة لمعرفة ما حدث ولم تطق الانتظار. اندفع پيتر وسط القطيع نحو ذلك الجانب من الجبل الذي تقع فيه الصخور بزاوية قائمة إلى أعماق سحيقة في الأسفل، ومن الممكن أن تسقط فيه عنزة حمقاء وتكسر كل قوائمها، إن اقتربت منه كثيرًا. لقد لمح غرينفلنتش الفضولية تثب في ذاك الاتجاه، ووصل في الوقت المناسب لأن العنزة قد قفزت إلى شفا الجرف.

وكل ما أمكن لبيتر فعله أن يلقي بنفسه ويمسك إحدى قوائمها الخلفية. غير أن غرينفلنتش التي بوغتت أخذت تثغو بحنق، غاضبة لإمساكها بسرعة ومنعها من مواصلة رحلة اكتشافها. وجاهدت لتتحرر وواصلت وثبها إلى الأمام فصاح بيتر بهايدي لتأتي وتساعده، لأنه لم يستطع النهوض وخشي من جر قوائم العنزة.

جرت هايدي وقد رأت الخطر المحدق بكل من بيتر والعنزة، فجلبت بسرعة غصنًا من الأوراق الزكية الرائحة، وبعد أن قربتها من أنف غرينفلنتش قالت ملاطفة: «تعالي تعالي يا غرينفلنتش، يجب ألا تكوني مشاكسة! انظري، قد تقعين وهناك وتكسرين قائمتك، وسيسبب لك هذا ألمًا فظيعًا!».

التفتت العنزة الصغيرة بسرعة، وأخذ تأكل الأوراق راضية من يد هايدي. في أثناء ذلك نهض بيتر ثانية وأمسك بغرينفلنتش من رباط حول عنقها تعلق به جرسها، وأمسكتها هايدي بالطريقة ذاتها من الجانب الآخر، فأعادا العنزة الضالة إلى بقية القطيع الذي ظل يرعى بهدوء. رفع بيتر، وقد صارت عنزته في أمان، عصاه ليضربها عقابًا لها، ولما رأت غرينفلنتش ما سيحدث تراجعت من الخوف. لكن هايدي صاحت: «لا، لا يا بيتر ليس عليك ضربها، ألا ترى خوفها؟!».

«إنها تستحق ذلك»، صاح بيتر ورفع عصاه ثانية. فألقت هايدي عندئذ بنفسها أمامه وصاحت باستياء «ليس لك الحق في ضربها، سيؤلمها ذلك، دعها وشأنها!».

نظر بيتر دهشًا إلى الطفلة الآمرة الصغيرة التي احمرت عيناها

الداكنتين فأسقط عصاه بلا مبالاة، «حسن سأتركها تمضي إن أعطيتني المزيد من جبنتك غدًا»، قال وقد عقد العزم على الحصول على شيء ليخفي خوفه.

«ستحصل عليها كلها، غدًا وكل يوم، فأنا لا أريدها»، أجابت هايدي وقد وافقت بسرعة على طلبه، «وسأعطيك الخبز أيضًا، قطعة كبيرة كالتي أخذتها اليوم، ولكن عليك أن تعدني ألا تضرب غرينفلنتش أو سنوفليك أو أيًا من العنزات».

«حسن»، قال بيتر «فأنا لا أهتم»، ما يعني أنه موافق على الصفقة. فترك غرينفلنتش التي قفزت مرحًا لتنضم إلى رفيقاتها.

وهكذا اقترب النهار من نهايته دون أن يشعرا وصارت الشمس في نقطة تغوص بعيدًا عن النظر خلف الجبال العالية. جلست هايدي على الأرض صامتة تحدق بالزهور ذات الأجراس الزرقاء، وهي تتلألأ في ضوء المساء، لأن ضوءًا ذهبيًا سقط على العشب والزهور وأخذت الصخور في الأعلى تشع وتلمع. فنهضت فجأة وقالت «بيتر، بيتر، كل شيء يحترق! كل الصخور تحترق، وجبل الثلج الكبير والسماء! انظر انظر! الصخرة العالية حمراء من اللهب! يا للثلج الجميل المضطرم! قف يا بيتر! انظر، لقد وصلت النار إلى عش الطائر الكبير! انظر إلى الصخور! انظر إلى شجر التنوب! كل شيء يشتعل، كل شيء!».

«إن الأمر هكذا دومًا»، قال بيتر بهدوء، مواصلًا تقشير عصاه، «لكنها ليست نارًا حقيقة».

«وما هي إذن؟»، صاحت هايدي وهي تجري هنا وهناك لتنظر إلى جانب ثم إلى آخر، فقد شعرت أنها لن تكتفي من مشاهدة المشهد الجميل «ما هي يا پيتر، ما هي؟» كررت قولها.

«إنها تصبح هكذا من تلقاء نفسها»، شرح پيتر.

«انظر، انظر!»، صاحت هايدي في دهشة جديدة، «ها قد تحولت كلها إلى اللون الوردي! انظر إلى تلك المغطاة بالثلج، وإلى تلك ذات الصخور العالية المدببة! ماذا تسميها؟».

«ليس للجبال أسماء»، أجاب.

«يا للروعة، انظر إلى الثلج القرمزي! وفي الأعلى هناك على الصخور الكثير من الورود! أوه ها هي تتحول إلى الرمادي! أوه، أوه! لقد انسحب اللون كله! لقد رحل يا پيتر»، وجلست هايدي على الأرض مستاءة كأنما انتهى كل شيء.

«ستعود ثانية غدًا»، قال پيتر، «انهضي، علينا العودة إلى البيت الآن». وصفر لعنزاته وانطلقوا جميعًا في طريق العودة.

«هل تبدو هكذا كل يوم، هل سنراها كل يوم حين نجلب العنزات هنا؟»، سألت هايدي وهي تنزل من الجبل قرب پيتر، وتلهفت لسماع إجابته آملة أنه سيقول لها إنها كذلك.

«إنها تبدو كذلك معظم الأيام»، أجاب.

«ولكن هل ستبدو كذلك غدًا على وجه التأكيد؟»، أصرت هايدي.

«أجل، أجل، غدًا بالتأكيد»، أكد لها بيتر.

شعرت هايدي بالسعادة ثانية، وامتلأ عقلها الصغير بانطباعات جديدة وأفكار جديدة فلم تتحدث ثانية حتى وصلوا الكوخ. جلس الجد تحت أشجار التنوب، حيث وضع مقعدًا وهو ينتظر كعادته عنزتيه اللتين عادتا من الجبل من هذه الناحية.

جرت هايدي إليه تتبعها العنزة البيضاء والبنية، لأنهما عرفتا صاحبهما وكوخه. فهتف لها بيتر «تعالي معي غدًا ثانية! ليلة سعيدة!»، لأنه تحمس لذهاب هايدي معه اليوم التالي لأكثر من سبب.

جرت هايدي وصافحت بيتر وهي تعده بالذهاب معه، ثم شقت طريقها بين العنزات وعانقت سنوفليك مرة أخرى قائلة بصوت هادئ لطيف «نامي جيدًا يا سنوفليك وتذكري أنني سأكون معك غدًا، فلا تثغي ثغاء حزينًا بعد اليوم». نظرت إليها سنوفليك نظرة ود وامتنان، ثم مضت تقفز مرحًا خلف العنزات الأخرى.

عادت هايدي إلى أشجار التنوب وصاحت «يا جدي» قبل أن تصله، «لقد كانت جميلة. النار والورود على الصخور والزهور الزرق والصفر، وانظر ماذا جلبت لك!» وفتحت مئزرها الذي جمعت فيها أزهارها ورمتها كلها عند قدمي جدها. يا للزهور المسكينة كم تغيرت! ولم تعرفها هايدي إلا بصعوبة، فقد بدت مثل كومة جافة من التبن ولم تجد كأس زهرة واحدة متفتحًا. «ماذا حدث لها يا جدي؟»، قالت هايدي دهشة متعجبة، «لم تكن هكذا هذا الصباح، فلماذا تبدو هكذا الآن؟».

«إنها تحب أن تبقى هناك في الشمس وألا تحبس في مئزر»، قال جدها.

«لن أجمعها ثانية إذن، ولكن لماذا يستمر الطير الكبير بالنعيب هكذا يا جدي؟»، تابعت بنبرة متسائلة متلهفة.

«تعالي الآن واغتسلي ريثما أجلب بعض الحليب، وسأخبرك كل شيء عنه ونحن جالسان للعشاء».

أطاعت هايدي، وحين جلست لاحقًا على مقعدها أمام صُحيْفة الحليب وجدّها بجانبها، كررت سؤالها «لماذا يستمر الطير الكبير بالنعيب والصراخ علينا يا جدي؟».

«إنه يسخر من الناس الذي يعيشون في الأسفل في القرى، لأنهم يستمرون في التجمع والنميمة معًا ويحفزون بعضهم بعضًا بالحديث والأفعال السيئة. فهو ينادي «لو تفرقتم وذهب كل منكم في سبيله وجاء إلى هنا وعاش في الأعالي كما أفعل، لكان خيرًا لكم!»». وكان في صوت الرجل العجوز جلافة وهو يتحدث، فظنت هايدي أنها تسمع نحيب الطير ثانية على نحو أكثر وضوحًا.

«لماذا ليس للجبال أسماء؟»، تابعت هايدي.

«إن لها أسماء»، أجاب جدها، «وإن كان بوسعك وصف أحدها لي فسأخبرك بما يدعى».

وصفت هايدي عندئذ الجبل الوعر ذا القمتين العاليتين بدقة فسُر جدها «هكذا إذن، أنا أعرفه»، وأخبرها باسمه، «هل رأيت

واحدًا آخر؟». ثم أخبرته هايدي عن الجبل ذي الرقعة الثلجية الكبيرة، وكيف اضطرمت فيه النار وتحول إلى اللون الوردي المحمر ثم صار فجأة شاحبًا تمامًا مرة أخرى واختفى اللون كله منه.

«أعرف هذا أيضًا»، قال ذاكرًا اسمه لها، «لقد استمتعت إذن بقضاء اليوم خارجًا مع العنزات؟».

فأخذت هايدي تسرد له وقائع النهار كله، وأن كل شيء مبهج، ووصفت بدقة النار التي اشتعلت مساءً في كل مكان. ولم يكن شيء ليرضيها إلا أن يخبرها جدها كيف اشتعلت لأن بيتر لا يعرف شيئًا عنها البتة.

شرح الجد لها أن الشمس هي من فعلت ذلك «حين تقول الشمس ليلة طيبة للجبال تلقي بأجمل الألوان عليها، فلا تنساها الجبال حتى تعود في اليوم التالي».

أسعد هايدي هذا التفسير، ولم تطق الصبر حتى اليوم التالي فتصعد مع العنزات فترى كيف تتمنى الشمس للجبال ليلة طيبة. ولكن تعين عليها الخلود للفراش أولًا، فنامت طوال الليل بهدوء على فراشها المصنوع من التبن، ولم تحلم بشيء سوى الجبال اللامعة ذات الورود الحمراء في كل مكان، التي مضت سنوفليك الصغيرة تقفز ذهابًا وإيابًا وسطها.

الفصل الرابع
زيارة الجدة

طلعت الشمس باكرًا في الصباح التالي ساطعة كالمعتاد، ثم ظهر بيتر مع العنزات، وصعد الطفلان ثانية إلى المروج العالية، وهكذا مضت الأمور يومًا بعد آخر حتى لوحت الشمس هايدي التي تقضي وقتها بين الحشائش والزهور، وغدت قوية ومعافاة ولا يؤلمها شيء. كانت سعيدة أيضًا، وعاشت من يوم ليوم حرة خلية القلب مثل العصافير الصغيرة التي تبني أعشاشها بين أشجار الغابة الخضراء. ثم جاء الخريف، وأخذت الريح تهب أعلى وأقوى، فيقول الجد أحيانًا «عليك البقاء في البيت اليوم يا هايدي، ستجرف هبة الريح القوية شيئًا صغيرًا مثلك على الصخور إلى الوادي في الأسفل في لحظة».

وكلما سمع بيتر أن عليه الذهاب وحده بدا حزينًا جدًا، لأنه لا يرى شيئًا بانتظاره سوى المتاعب بمختلف صنوفها، ولم يعرف كيف يحتمل اليوم الممل الطويل دون هايدي. ثم إنه سيفتقد الوجبة اللذيذة أيضًا، إلى جانب أن العنزات في هذه الأيام مشاكسات جدًا

وعنيدات حتى أن جهده معهن يتضاعف مرتين، لأنهن اعتدن وجود هايدي وسيجرين في كل اتجاه ويرفضن المضي ما لم تكن معهن. لم تشعر هايدي بالحزن، لأنها أينما كانت وجدت شيئًا يثيرها أو يسليها. صحيح أنها آثرت الذهاب مع بيتر إلى الزهور والطير الكبير، حيث الكثير مما يرى والكثير من التجارب تعيشها بين العنزات ذوات الطباع المختلفة، لكنها وجدت طرْق جدها ونشره بالمنشار وأعمال النجارة ممتعة جدًا أيضًا. وإن صادف أن يكون يوم إعداد جبنة الماعز المدورة فتستمتع متعة تفوق الوصف وهي تتابع هذه العملية الرائعة، وتراقب جدها الذي يشمر عن ساعديه ويقلّب ما في المرجل الكبير بذراعيه العاريين. أما أكثر ما أثار اهتمامها فهو تمايل أشجار التنوب الكبيرة وحفيفها في تلك الأيام العاصفة. إذ تترك ما تفعله دومًا أيًا يكن لتصغي إليها، فلا شيء أغرب وأروع عندها من الصوت العميق الغامض في أعالي الشجر. وكانت تقف تحتها وتنظر للأعلى عاجزة عن الابتعاد، وهي تنظر وتنصت والشجر ينحني ويتمايل ويحف كلما تخللته الريح القوية. لم تعد تطلع الشمس الساطعة التي أشرقت طوال الصيف، فذهبت هايدي إلى الصوان وأخرجت حذاءها وجوربيها وثوبها، لأن الجو غدا أبرد يومًا بعد يوم. وحين وقفت هايدي تحت أشجار التنوب هبت عليها الريح كأنها ورقة شجر رفيعة صغيرة، لكنها شعرت أنها لا تستطيع البقاء في الداخل حين تسمع تمايل الأغصان في الخارج.

ثم غدا الجو باردًا جدًا، وكان بيتر يأتي في الصباح الباكر ينفخ في يديه ليبقيهما دافئتين. غير أنه كف عن المجيء لأن الثلج هطل

ذات ليلة، وفي الصباح التالي كان الجبل بأكمله مغطى به، ولم تعد ترى أي ورقة شجر خضراء صغيرة في أي مكان عليه. لم يظهر بيتر ذلك اليوم، ووقفت هايدي قرب النافذة الصغيرة تنظر في إعجاب، لأن الثلج أخذ يهطل ثانية، وظلت الرقاقات السميكة تتساقط حتى وصل الثلج إلى النافذة. وواصلت التساقط وصار الثلج أعلى، حتى تعذر فتح النافذة، وحبست هي وجدها داخل الكوخ. وجدت هايدي هذا ممتعًا جدًا وجرت من نافذة إلى أخرى لترى ما سيحدث تاليًا، وإن كان الثلج سيغطي كل الكوخ، فيضطران لإشعال مصباح في وضح النهار. لكن الأمور لم تسؤ إلى هذا الحد، فقد خرج الجد في اليوم التالي، وقد توقف الثلج عن التساقط وجرف الثلج بعيدًا حول الكوخ، ورماه في كومات كبيرة بدت مثل الجبال على جانبي الكوخ. وصار بإمكانهما فتح الباب والنوافذ. وحسنًا فعل، فحين كانت هايدي وجدها يجلسان ذات عصر على مقعديهما ثلاثيي القوائم أمام النار خُبط الباب خبطة قوية تبعتها أُخَر ثم فتح الباب، وكان بيتر الذي أحدث كل هذه الجلبة وهو يزيل الثلج عن حذائه، غير أنه لم يزل مغطى به لأنه تعين عليه أن يشق طريقه خلال ركام الثلج العميق، وكتل الثلج الكبيرة التي تجمدت عليه وما زالت عالقة بثيابه. لقد عقد العزم على أية حال ألا ينهزم وأن يصعد إلى الكوخ، إذ مضى أسبوع منذ أن رأى هايدي.

«مساء الخير»، قال حين دخل ثم تقدم ووقف قرب النار لأنه لم يستطع قول كلمة أخرى، إلا أن وجهه أشرق من السعادة لأنه

هناك. نظرت هايدي مندهشة، لأن بيتر أخذ يذوب بفعل الدفء فصار يشبه شلالًا يقطر.

«حسن أيها الجنرال، وكيف حالك؟»، قال الجد، «بعد أن فقدت جيشك عليك أن تلتفت لقلمك وممحاتك».

«لم عليه أن يلتفت إلى قلمه وممحاته؟»، سألت هايدي على الفور، يغمرها الفضول.

«عليه الذهاب إلى المدرسة خلال فصل الشتاء»، شرح لها جدها، «وأن يتعلم القراءة والكتابة، إن الأمر صعب قليلًا إلا أنه مفيد لاحقًا. ألستُ محقًا أيها الجنرال؟».

«بلى، إنك محق»، وافقه بيتر.

استيقظ فضول هايدي تمامًا، وصار لديها الكثير من الأسئلة لتسألها لبيتر عن كل ما يفعله ويراه ويسمعه في المدرسة، واستمرت المحادثة طويلًا حتى تسنى لبيتر وقت كافٍ ليجف. واجه بيتر دومًا صعوبة التعبير عن أفكاره، ووجد نصيبه من الحديث أصعب اليوم، فما إن يعد جوابًا على سؤال هايدي حتى تمطره باثنين أو ثلاثة أخرى، وكلها تتطلب جملة طويلة للإجابة عنها.

جلس الجد دون أن ينبس ببنت شفة أثناء هذا الحديث، إلا أنه بين الفينة والأخرى تظهر رعشة على زوايا فمه تظهر أنه يصغي.

«حسن أيها الجنرال، لقد مضى عليك بعض الوقت قرب النار ولا بد أنك بحاجة لشيء منعش، تعال وانضم إلينا»، قال

أخيرًا ونهض لجلب العشاء من الصوان، ودفعت هايدي المقاعد إلى الطاولة. كان لديهم مقعد طويل مثبت إلى الجدار، إذ وضع الجد عددًا من المقاعد من مختلف الأنواع هنا وهنا، طويلة تكفي لجلوس شخصين لأنه لم يعد وحيدًا، فلهايدي عادة البقاء قرب جدها سواء في مشيه أم في جلوسه أم في وقوفه. وبات لديهم مكان مريح لثلاثتهم، وفتح بيتر عينيه المدوّرتين دهشة حين رأى قطعة اللحم الكبيرة التي وضعها له الخال ألم على شريحة خبزه السميكة. مضى وقت طويل منذ أن تناول بيتر شيئًا لذيذًا كهذا. وما إن انتهت الوجبة الشهية حتى أخذ بيتر يستعد للعودة إلى البيت لأن الظلام بدأ يخيم. وقال «ليلة طيبة» وشكرهما، وكان على وشك الخروج حين استدار ثانية وقال «سآتي مرة أخرى الأحد القادم، بعد أسبوع من اليوم، وتقول الجدة إنها تود منك أن تأتي لرؤيتها يومًا ما».

لقد كانت فكرة جديدة تمامًا على هايدي أن تذهب وتزور أحدًا، ولم تستطع إبعادها عن تفكيرها، وكان أول ما قالته لجدها اليوم التالي «علي النزول لرؤية الجدة اليوم، إنها تتوقع زيارتي».

«إن الثلج عميق جدًا»، أجاب الجد محاولًا تثبيطها. لكن هايدي عزمت على الذهاب منذ أن أرسلت لها الجدة رسالة. وأصرت على عزمها ولم يمر يوم دون أن تقول أثناءه لجدها خمس مرات أو ست «علي الذهاب اليوم قطعًا، ستكون الجدة بانتظاري».

وفي اليوم الرابع، حين تصدعت الأرض من الصقيع مع كل خطوة يخطوها المرء وتحول حقل الثلج الواسع إلى جليد، جلست

هايدي على مقعدها العالي لتناول الغداء والشمس المشرقة تسطع عليها من النافذة، وكررت خطابها القصير ثانية «علي النزول لرؤية الجدة قطعًا اليوم، وإلا فإنها ستنتظرني طويلًا».

نهض الجد من المائدة وصعد إلى علّية التبن وجلب الجراب السميك الذي كان غطاء لهايدي، وقال «هلمي إذن!» فقفزت الطفلة مرحًا خلفه في العالم المتلألئ بالثلج.

انتصبت أشجار التنوب الكبيرة صامتة، وقد غطى الثلج الأبيض أغصانها فبدت جميلة للغاية وهي تلمع وتبرق تحت ضوء الشمس فوثبت هايدي سعيدة لمرآها وظلت تنادي «تعال إلى هنا، تعال إلى هنا يا جدي! فأشجار التنوب كلها ذهب وفضة!» دخل الجد إلى السقيفة وخرج يجر زلاجة يدوية في داخلها مقعد منخفض، ويمكن دفع الزلاجة للأمام وتحريكها بأقدام من يجلس داخلها بمساعدة قضيب مثبت على الجانب. وبعد أن دار حول أشجار التنوب قرب هايدي حتى يريا جمالها من كل الجوانب، صعد إلى الزلاجة ورفع الطفلة إلى حضنه، ثم لفها بالجراب، فتظل دافئة ومرتاحة، ولف ذراعه اليسرى حولها جيدًا، فمن الضروري أن يمسكها بقوة أثناء رحلتهما القادمة. ثم أمسك بالقضيب بيده اليمنى ودفع الزلاجة إلى الأمام بقدميه. نزلت الزلاجة من الجبل بسرعة كبيرة ظنت هايدي معها أنهما يطيران في الهواء مثل الطيور، وصرخت عاليًا من فرط البهجة. ثم توقفا فجأة وقد وصلا كوخ بيتر. رفعها جدها وفك لفافها، «ها قد وصلنا، فادخلي، وحين يبدأ

الظلام يخيم عليك أن تنطلقي في طريق العودة ثانية». ثم تركها وصعد الجبل، جارًا زلاجته خلفه.

فتحت هايدي باب الكوخ ودخلت إلى غرفة صغيرة بدت شديدة العتمة، فيها موقد وبضعة أطباق على رف خشبي، وكان هذا المطبخ الصغير. وفتحت بابًا آخر ووجدت نفسها في غرفة أخرى، لأن منزل الراعي لم يكن مماثلًا لكوخ جدها ذي الغرفة الواحدة الكبيرة وعلية التبن، بل كان كوخًا قديمًا كل شيء فيه ضيق وقديم ورث. ثمة طاولة قريبة من الباب وحين دخلت هايدي رأت امرأة تجلس إليها، تضع رقعة على صُدرة عرفت هايدي في الحال أنها لبيتر. وفي الزاوية جلست امرأة عجوز تغزل، وقد حناها الكبر. كانت هايدي متأكدة أنها الجدة، فتقدمت نحو دولاب الغزل وقالت «نهارًا سعيدًا أيتها الجدة، لقد جئت أخيرًا، هل تظنين أنني تأخرت في القدوم؟».

رفعت المرأة رأسها وتحسست اليد التي مدتها الطفلة إليها، وحين عثرت عليها مدت يدها بحذر لثوان معدودة، ثم قالت «هل أنت الطفلة التي تعيش مع الخال ألم، هل أنت هايدي؟».

«أجل، أجل»، أجابت هايدي، «لقد نزلت لتوي بالزلاجة مع جدي».

«هل هذا صحيح؟! إن يديك دافئتان تمامًا، هل جاء الخال ألم بنفسه مع الطفلة يا بريجيتا؟».

تركت أم بيتر عملها ونهضت من الطاولة ووقفت تنظر إلى

هايدي بفضول، متفحصة إياها من رأسها حتى أخمص قدميها. «لست أدري يا أمي إن جاء الخال بنفسه، يبدو ذلك مستحيلًا، ربما كانت الطفلة مخطئة».

لكن هايدي نظرت إلى المرأة بثبات، دون أن يساورها أدنى شك وقالت «أعرف جيدًا من الذي لفني بغطائي وجاء بي في الزلاجة، إنه جدي».

«فما ظل بيتر يقوله لنا عن الخال ألم في الصيف صحيح إذن، ونحن ظنناه مخطئًا»، قالت الجدة، «ولكن من يصدق أن يحدث شيء كهذا؟ لم أصدق أن الطفلة ستعيش هناك لثلاثة أسابيع. كيف تبدو يا بريجيتا؟».

فأخذت الأخيرة تتفحص هايدي بإمعان من كل الجوانب لتتمكن من وصفها لأمها.

«إن لها رشاقة قوام أديليد، غير أن عينيها داكنتان وشعرها مجعد مثل أبيها والرجل العجوز في الأعلى، إنها تشبه كليهما كما أرى».

لم تتوان هايدي في هذه الأثناء عن الحركة، إذ جالت في المكان ونظرت بعناية إلى كل شيء هناك. ثم قالت بحماس مفاجئ «إن أحد مصاريعك يتمايل جيئة وذهابًا يا جدتي، سيدق جدي مسمارًا فيه ويصلحه في دقيقة، وإلا فإنه سيكسر أحد ألواح الزجاج يومًا. انظري، انظري إنه يواصل الخبط!».

«آه يا طفلتي العزيزة»، قالت المرأة العجوز، «لا يمكنني رؤيته

لكني أسمع ذلك وكثيرًا من الأمور الأخرى غير المصراع. كل شيء في المكان يهتز ويصرّ عند هبوب الريح، وهي تدخل من كل الشقوق والصدوع. سيتداعى البيت، وفي الليل حين ينام الآخران (پيتر وأمه)، كثيرًا ما أضطجع يقظة خوفًا وارتعاشًا ظانة أن كل البيت سينهار ويسقط ويقتلنا. وما من أحد سيصلح أي شيء لنا، لأن پيتر لا يتقن عملًا كهذا».

«ولكن لماذا لا يمكنك رؤية المصراع المنفلت يا جدتي. انظري ها هو ثانية انظري إلى ذلك المصراع هناك!»، وأشارت هايدي إلى مصراع بعينه.

«لا جدوى أيتها الطفلة، ليس هذا فحسب ما لا يمكنني رؤيته، فأنا لا أرى شيئًا، لا أرى شيئًا»، قالت الجدة بصوت متفجّع.

«ولكن إن خرجتُ وأعدتُ وضع المصراع حتى يدخل مزيد من الضوء، فهل سترين يا جدتي؟».

«كلا، كلا، ولا حتى عندئذ. لا يمكن لأحد أن يعيد النور إلي ثانية».

«ولكن إن خرجتِ إلى الثلج الأبيض، فلا شك أنك سترين ثانية. تعالي معي يا جدتي وسأريك». أمسكت هايدي بيد المرأة العجوز لتقودها، لأنها أخذت تشعر بالحزن لعجزها عن الرؤية.

«دعيني يا طفلتي العزيزة، إنه ظلام دائم عندي سواء أكان ذلك في الشمس أم في الثلج، لا يمكن لضوء أن ينفذ إلى عينيّ».

«غير أنه يفعل في الصيف حتمًا يا جدتي»، قالت هايدي، وهي تزداد قلقًا للبحث عن مخرج من هذه المعضلة، «حين تشرق الشمس الحارة ثانية وتقول ليلة طيبة للجبال، وتشتعل كلها بالنار وتلمع الزهور الصفراء مثل الذهب سترين عندئذ، وستكون مشرقة وجميلة من أجلك».

«آه أيتها الطفلة، لن أرى الجبال تشتعل فيها النيران أو الزهور الصفراء بعد اليوم، لن أرى الضياء مرة أخرى على الأرض، أبدًا».

انفجرت هايدي لسماع هذه الكلمات ببكاء عال، وظلت تنشج من حزنها «من بوسعه إعادة الضياء لك ثانية؟ ألا يمكن لأحد فعل ذلك؟ أما من أحد يمكنه فعل ذلك؟».

حاولت الجدة تهدئة الطفلة غير أن تهدئتها ليست بالأمر السهل. لا تبكي هايدي كثيرًا، ولكنها إن فعلت فإنها تعجز عن التغلب على حزنها لوقت طويل. جربت الجدة كل الوسائل التي تعرفها لتبدد حزن الطفلة، فقد أوجع قلبها أن تسمع بكاءها المرير، ثم قالت في نهاية المطاف «تعالي إلي يا هايدي، تعالي ودعيني أخبرك بأمر. لا يمكنك أن تتخيلي كم يسعد المرء بسماع كلمات لطيفة حين يفقد القدرة على الإبصار، وإنه ليسعدني أن أصغي إليك وأنت تتحدثين. فتعالي واجلسي قربي وأخبريني شيئًا، أخبريني ماذا تفعلين في الأعلى هناك، وكيف يشغل الجد نفسه. فقد عرفته جيدًا في الأيام الخوالي، لكني لم أسمع خبرًا عنه منذ سنوات إلا من خلال بيتر الذي لا يقول الكثير».

كانت هذه فكرة جديدة سعيدة لهايدي، فجففت دموعها بسرعة وقالت بصوت مهدئ «انتظري يا جدتي حتى أخبر جدي بكل شيء، وسيعيد لك بصرك ثانية، أنا متأكدة وسيفعل شيئًا حتى لا يتداعى البيت، وسيصلح كل شيء من أجلك».

صمتت الجدة، وأخذت هايدي تصف لها وصفًا حيًا لحياتها مع جدها، وللأيام التي قضتها على الجبال مع العنزات ثم مضت تخبرها بما فعلته أثناء الشتاء، وعن قدرة جدها على صنع كل الأشياء من المقاعد والكراسي والمذاود حيث يضع التبن للتل سوان ولتل بير، إلى جانب حوض ماء كبير من أجلها لتغتسل فيه في الصيف، وصُحيْفة حليب جديدة وملعقة، وصارت هايدي أكثر نشاطًا وهي تعدد كل الأشياء الجميلة التي صنعت من قطع الخشب مثل السحر، ثم أخبرت الجدة أنها وقفت قربه وراقبت كل ما يفعل، وأنها أملت أن تصبح قادرة على صنع أشياء مماثلة يومًا ما.

أنصتت الجدة باهتمام بالغ، إلا أنها تقول لابنتها بين الفينة والأخرى «هل سمعت هذا يا بريجيتا؟ هل سمعت ما تقول عن الخال؟». قوطع الحديث فجأة بخبطة على الباب، ثم دخل بيتر، الذي وقف بلا حراك فاتحًا عينيه من الدهشة حين رأى هايدي، ثم أشرق وجهه بالابتسامات حين قالت «مساء الخير يا بيتر».

«عجبًا، هل عاد الولد من المدرسة؟»، قالت الجدة في دهشة، «لم أعرف عصرًا مر بسرعة هكذا منذ سنوات. كيف أحوال القراءة يا بيتر؟».

«الأمر نفسه»، كان جواب بيتر.

تنهدت المرأة العجوز وقالت «آه، حسن، أملت أن لديك شيئًا مختلفًا تخبرني به الآن، فأنت ستبلغ الثانية عشرة في شهر فبراير».

«ما الذي أملت أن يخبرك به؟»، سألت هايدي مهتمة بما قالته الجدة.

«أعني أنه تعين عليه أن يتعلم القراءة قليلًا بهذا العمر»، تابعت الجدة، «فعلى الرف هناك كتاب صلوات قديم، فيه أغانٍ جميلة لم أسمعها منذ وقت طويل ولا أستطيع تذكرها فأكررها لنفسي، وأملت أن يتعلم بيتر ما يمكنه من قراءة إحداها لي أحيانًا، لكنه يراها صعبة للغاية».

«علي أن أشعل مصباحًا، فالظلام بدأ يخيم ولا يمكننا الرؤية»، قال بيتر لأمه التي لم تزل مشغولة بصدرته، «أشعر أن العصر مر سريعًا دون أن أنتبه».

نهضت هايدي من كرسيها المنخفض، ومدت يدها إلى الجدة على عجل «ليلة طيبة يا جدتي، إن حل الظلام فعلي العودة في الحال»، وودعت بيتر وأمه وهي تتجه صوب الباب. لكن الجدة نادتها بصوت يشوبه القلق «انتظري انتظري يا هايدي، ليس عليك الذهاب وحدك، لا بد أن يذهب بيتر معك، وأنت يا بيتر اعتن بالطفلة حتى لا تسقط ولا تدعها تتوقف خشية أن تتجمد، أتسمعني؟ هل لديها أي شيء دافئ تلفه حول عنقها؟».

«ليس لدي شيء أضعه»، أجابت هايدي، «لكني متاكدة أنني

لن أشعر بالبرد»، وبهذا جرت خارجة وانطلقت بسرعة عجز بيتر عن مجاراتها بها. نادت الجدة الحزينة ابنتها «اجري خلفها يا بريجيتا، ستتجمد الطفلة حتى الموت في ليلة كهذه، خذي وشاحي واذهبي سريعًا!».

جرت بريجيتا للخارج. لكن الطفلين لم يسيرا سوى بضع خطوات حتى شاهدا الجد ينزل للقائهما، وجاءت به خطواته الواسعة إليهما في لحظات.

«أحسنت يا هايدي، لقد حفظت وعدك»، قال الجد وقد لف الجراب حولها بإحكام وحملها بين ذراعيه وصعد الجبل معها. وصلت بريجيتا في الوقت المناسب لتراه وهو يفعل هذا. وحين عادت إلى الكوخ مع بيتر أبدت دهشتها لأمها. كانت الأخرى مندهشة بقدر مماثل وظلت تقول «حمدًا للرب أنه عطوف على الطفلة، حمدًا للرب! أتساءل إن كان سيسمح لها بالقدوم ثانية! لقد أسعدتني الطفلة كثيرًا. يا لها من قلب محب وكم تقص حكاياتها بجذل!». وظلت تفكر بالطفلة سعيدة حتى خلدت إلى فراشها، وهي تقول بين الفينة والأخرى «ليتها تعود ثانية! ها قد صار لدي شيء في العالم أسعد به»، ووافقت بريجيتا على كل ما قالته أمها، وهز بيتر رأسه موافقة كلما تحدثت جدته قائلًا بابتسامة عريضة من الرضا «أخبرتكما بذلك!».

في أثناء ذلك كانت هايدي تتحدث مع جدها من داخل الجراب ولم يكن صوتها يصله خلال الطبقات العديدة للفافها، ولذلك فقد

كان مستحيلًا فهم كلمة مما قالته فقال لها «انتظري حتى نصل إلى البيت ثم أخبريني بالأمر كله». وما إن دخلا البيت حتى أخذت هايدي بعد أن تحررت من غطائها تقص ما لديها في الحال «عليك أن تأخذ المطرقة والمسامير الطويلة وتثبت مصراع الجدة، وأن تضع مزيدًا من المسامير في مواضع أخرى، لأن بيتها يرتج ويهتز من كل صوب يا جدي».

«علينا ذلك، صحيح؟ من أخبرك بذلك؟»، سأل جدها.

«لم يقل لي أحد، لكني أعرف»، أجابت هايدي، «لأن كل شيء يتداعى وحين تعجز الجدة عن النوم تضطجع مرتجفة خوفًا من الأصوات، لأنها تظن في كل لحظة أن البيت سيسقط على رؤوسهم، وكل شيء معتم أمام الجدة، وهي لا تظن أن بوسع أحد أن يعيد لها بصرها ثانية، لكني متأكدة أنك قادر يا جدي. تخيل كم يخيفها أن يكون كل شيء معتمًا، ثم أن تصاب بالذعر مما سيحدث، وليس بوسع أحد مساعدتها سواك. علينا الذهاب غدًا ومساعدتها، سنذهب أليس كذلك يا جدي؟».

تشبثت الطفلة بالرجل العجوز ونظرت إليه بثقة تامة، فنظر الجد إلى هايدي لوهلة دون أن ينطق بحرف ثم قال «بلى يا هايدي، سنفعل شيئًا لإيقاف الاهتزاز، يمكننا فعل هذا على الأقل. سننزل لفعله غدًا!».

أخذت الطفلة تقفز في الغرفة حولها مرحًا هاتفة «سنذهب غدًا! سنذهب غدًا!».

وفى الجد بوعده. وأخرج الزلاجة بعد ظهر اليوم التالي، وكما فعل في اليوم الماضي، أنزل هايدي عند باب كوخ الجدة وقال «ادخلي وحين يخيم الظلام اخرجي ثانية»، ثم وضع الجراب في الزلاجة ودار حول الكوخ.

ما إن فتحت هايدي الباب ودخلت حتى هتفت الجدة «إنها الطفلة مرة أخرى! ها قد أتت!»، ولسعادتها أوقعت الخيط من أصابعها وتوقف دولاب الغزل عن الحركة حين مدت كلتا يديها مرحبة. ركضت هايدي نحوها، ثم سحبت المقعد الصغير قرب المرأة العجوز وجلست عليه، وأخذت تحكي وتسأل عن كل شيء. فجأة علا صوت ضربات ثقيلة على جدار الكوخ وأطلقت الجدة صرخة ذعر حتى كادت توقع دولاب الغزل وصاحت بصوت مرتعش «آه، يا إلهي، ها قد حدث، إن البيت سيسقط علينا!» لكن هايدي أمسكتها من ذراعها وقالت تهدئها «كلا، كلا يا جدتي، لا تخافي، هذا جدي مع مطرقته، إنه يصلح كل شيء حتى لا تخافي ولا تهلعي».

«هل هذا صحيح؟! هل هذا صحيح؟! فالرب الرحيم لم ينسنا إذن!»، قالت الجدة. «هل سمعت يا بريجيتا ما هذه الضجة؟ هل سمعت ما قالته الطفلة؟ وحين أصغي الآن أقول إنها مطرقة. اخرجي يا بريجيتا وإن كان هذا الخال ألم فقولي له إن عليه القدوم للحظة حتى أشكره».

خرجت بريجيتا ووجدت الخال ألم وهو يثبت قطعة ثقيلة من الخشب الجديد على الجدار، فتقدمت نحوه قائلة «مساء الخير أيها

الخال، نود أنا وأمي أن نشكرك لإسدائنا هذه الخدمة الجليلة، وتود أن تخبرك بنفسها عن امتنانها، لست أدري من كان سيفعله لنا، لن ننسى معروفك لأنني متأكدة...».

«هذا يكفي»، قال الرجل العجوز مقاطعًا إياها، «أعرف رأيك بالخال ألم دون أن تقوليه لي. ادخلي، أستطيع أن أرى بنفسي المواضع التي تحتاج إصلاحًا».

أطاعت بريجيتا في الحال، لأن الخال له أسلوب يجعل القليلين يفكرون في معارضته. وواصل طرقه بمطرقته في أنحاء البيت، ثم صعد العتبات الضيقة إلى السطح، وطرقها بالمطرقة حتى استنفد كل المسامير التي جلبها معه. أخذ الظلام يخيم أثناء ذلك، وما إن نزل من السطح وجر الزلاجة من خلف عرزال الماعز حتى خرجت هايدي. لفها الجد وأخذها بين ذراعيه كما فعل البارحة. فهو وإن اضطر لسحب الزلاجة إلى الجبل خلفه، فقد خشي أن تقع الطفلة منها إن جلست فيها وحدها في لفافها، وأن تتجمد تمامًا، فحملها بدفء وأمان بين ذراعيه.

وهكذا مر الشتاء. عثرت الجدة أخيرًا على شيء يجعلها سعيدة، بعدما عاشت حياة كئيبة لسنوات عديدة، ولم تعد تمضي أيامها في القلق والعتمة يومًا مثل أخيه بلا بهجة أو تغيير إذ صار لديها أمر تتطلع إليه. كانت تصغي إلى وقع الأقدام الصغيرة ما إن يطلع النهار، وحين تسمع الباب يفتح وتعرف أن الطفلة جاءت، حتى تقول «حمدًا للرب، لقد جاءت ثانية!» فتجلس هايدي قربها وتحكي

لها وتتحدث عن كل شيء تعرفه بأسلوب مرح لا تلحظ معه الجدة مرور الوقت، وتظل تسأل بريجيتا بين الحين والآخر «هل انقضى النهار؟» وإن أغلقت الطفلة الباب لدى مغادرتها تقول الجدة «يا لها من عصرية قصيرة، ألا ترين ذلك يا بريجيتا؟»، فتجيب هذه «بلى أرى ذلك، يبدو لي كأنما قد رفعت لتوي أطباق وجبة منتصف النهار». فتواصل الجدة «صلي للرب ألا تؤخذ الطفلة مني، وأن يواصل الخال ألم في السماح لها بالقدوم! هل تبدو قوية وبصحة جيدة يا بريجيتا؟» فترد الأخرى «إنها تبدو لامعة وحمراء مثل تفاحة».

وأولعت هايدي بالجدة العجوز، وحين أيقنت أن لا أحد بوسعه إعادة البصر إليها، غلبها الحزن. لكن جدها أخبرها أنها لا تشعر بالظلام كثيرًا في وجود هايدي معها. وهكذا أمضت الطفلة أيام الشتاء في المجيء على زلاجتها. والجد يصطحبها دومًا دون أن يبدي اعتراضًا، بل حمل دومًا مطرقته وأشياء مختلفة في الزلاجة معه، وقضى معظم العصرية في جعل كوخ الراعي يبدو متينًا. ولم يعد الكوخ يئن ويهتز طوال الليل، والجدة التي عجزت لأشتية طويلة عن النوم بهدوء كما تفعل الآن، قالت إنها لن تنسى ما فعله الخال ألم من أجلها.

الفصل الخامس
زيارتان وعواقبهما

سرعان ما انقضى الشتاء، ومثله انقضى الصيف السعيد المفرح، وها هو شتاء آخر يقترب. لم تزل هايدي خلية البال سعيدة مثل الطيور، وتطلعت كل يوم بسعادة أكبر إلى الربيع القادم، حين تهب الريح الجنوبية الدافئة خلال أشجار التنوب الكبيرة وتنفخ الثلج بعيدًا، وتغري الشمس الدافئة الزهور زرقها وصفرها لرفع رؤوسها، وتعود أيام الصعود إلى الجبل ثانية، التي بدت لهايدي أكبر متعة تمنحها الأرض. بلغت هايدي عامها الثامن، وقد تعلمت أشياء مفيدة من جدها؛ إذ تعلمت رعاية العنزتين جيدًا، فتتبعها لتل سوان ولتل بير مثل كلبين وفيين وتطلقان ثغاء عاليًا من السعادة حين تسمعان صوتها. حمل بيتر مرتين رسالة من معلم المدرسة في دورفلي، أبلغ فيهما الخال ألم بأن عليه إرسال هايدي إلى المدرسة، فقد تجاوزت السن المعتادة، وكان عليها الذهاب الشتاء الماضي. أرسل الخال رسالة في كل مرة قائلًا إن معلم المدرسة سيجده في منزله إن كان لديه ما يخبره به، لكنه لا يعتزم إرسال هايدي إلى المدرسة، ونقل بيتر الرد بأمانة.

حين أذابت شمس مارس الثلج على الجبل وأخذت زهور اللبن الثلجية تنبت في كل أنحاء الوادي، وقد نفضت أشجار التنوب حملها من الثلج وأخذت أغصانها تتمايل في الهواء ثانية، جرت هايدي جيئة وذهابًا بسعادة إلى عرزال العنزتين أولًا ثم إلى أشجار التنوب ثم إلى باب الكوخ لتخبر جدها بحجم الرقعة الخضراء تحت الأشجار، ثم جرت لتطل مرة أخرى، لأنها لم تطق صبرًا حتى يخضر كل شيء ويكسو الصيف الجميل الجبلَ بالعشب والزهور. وحين كانت هايدي تجري على هذا النحو في يوم مشمس من أيام مارس، وقد قفزت فوق جرن الماء للمرة العاشرة على الأقل، تراجعت وكادت أن تقع فيه من الخوف، لأنها رأت أمامها رجلًا محترمًا يرتدي السواد واقفًا ينظر إليها بوقار. وحين رأى خوفها قال بصوت لطيف «لا تخافي مني، لأنني أحب الأطفال. لنتصافح! لا بد أنك هايدي التي سمعت عنها، أين جدك؟».

«إنه جالس إلى الطاولة يصنع ملاعق خشبية مدورة»، أخبرته هايدي وهي تفتح الباب.

لقد كان قس القرية العجوز من دورفلي وكان جارًا للخال حين عاش هناك ويعرفه جيدًا. دخل الكوخ وتقدم نحو الرجل العجوز المنكبّ على عمله وقال «صباح الخير يا جاري».

رفع الجد نظره دهشًا، ثم نهض قائلًا «صباح الخير». ودفع بكرسيه نحو الضيف وهو يقول «إن لم تأنف الجلوس على مقعد خشبي فإليك بهذا».

جلس القس وقال «لقد مضى وقت طويل منذ آخر مرة رأيتك فيها يا جاري».

«أو آخر مرة رأيتك أنا فيها»، كان جوابه.

«لقد جئت اليوم لأحدثك بأمر»، تابع القس، «وأظنك تعرف ما جاء بي إلى هنا»، وفي حديثه نظر إلى الطفلة الواقفة قرب الباب، التي تحدق بالغريب باهتمام ودهشة.

«اذهبي إلى العنزتين يا هايدي»، وخذي لهما قليلًا من الملح وابقي معهما حتى آتي»، قال الجد.

فخرجت هايدي سريعًا.

«كان على الطفلة أن تذهب إلى المدرسة قبل عام، وفي هذا الشتاء الأخير تحديدًا. لقد أرسل إليك معلم المدرسة حول ذلك، لكنك لم تعطه جوابًا. ما الذي تفكر بفعله مع الطفلة يا جاري؟» قال القس.

«أفكر ألا أرسلها إلى المدرسة»، أجاب.

نظر الضيف مندهشًا إلى الرجل العجوز، الذي يجلس على مقعده مقاطعًا ذراعيه وعلى وجهه علامات الحزم.

«كيف ستجعلها تكبر إذن؟»، سأل.

«سأجعلها تكبر وتكون سعيدة بين الماعز والطيور، فهي بمأمن معها ولن تتعلم شيئًا شريرًا».

«لكن الطفلة ليست بعنزة ولا طير، إنها كائن بشري. وإن لم تتعلم شيئًا شريرًا من رفاقها هؤلاء فهي لن تتعلم منهم شيئًا في

الوقت نفسه. لكنها يجب ألا تكبر وهي جاهلة، وقد حان الوقت لتبدأ دروسها. لقد جئت إليك الآن حتى يكون لديك متسع من الوقت لتقلّب الرأي، ولترتب الأمر خلال الصيف. هذا آخر شتاء يسمح لها فيه بالبقاء طليقة، ولا بد أن تأتي إلى المدرسة بانتظام كل يوم في الشتاء القادم».

«لن تفعل شيئًا كهذا»، قال الرجل العجوز بعزم وثبات.

«هل تعني أنه لا يمكن إقناعك لترى الصواب، وأنك ستظل متمسكًا برأيك بعناد؟»، قال القس وقد أخذ يغضب، «لقد جلتَ في العالم، ولا بد أنك رأيت وتعلمت الكثير، وكنت أظنك أكثر عقلانية يا جاري».

«حقًا»، قال الرجل العجوز وفي صوته نبرة كشفت حنقًا متزايدًا من جانبه أيضًا، «وهل يعني القس المحترم حقًا أنه يأمل مني أن أرسل طفلة صغيرة كهذه الشتاء القادم لتقطع عددًا من الأميال في الصباحات الباردة الجليدية خلال العواصف والثلج، وأن أتركها تعود مساء حين تعصف الريح، حين يخشى من هم في مثل عمرنا أن تجرفه الرياح ويدفن تحت الثلج؟ ولعله لم ينس أم الطفلة أديليد؟ لقد كانت تسير في نومها وتعاني من نوبات. ربما تعرضت الطفلة لهجمات مماثلة، ألن تؤذي نفسها إذن؟ أيظن بعضهم أن بوسعهم القدوم وإجباري على إرسالها؟ سأمثل أمام كل المحاكم في البلاد، ثم سنرى من سيجبرني على فعل ذلك!».

«إنك مصيب فعلًا يا جاري»، قال القس بنبرة ود، «أرى أنه

يستحيل إرسال الطفلة إلى المدرسة من هنا. لكني أرى أن الطفلة عزيزة لديك، وحبًا بها افعل ما توجب عليك فعله منذ وقت طويل؛ تعال إلى دورفلي وعش بين أهلك. أي حياة هذه التي تعيشها وحدك حاملًا أفكارًا سيئة عن الرب والبشر؟! لو حدث لك شيء في الأعلى هنا فمن سيساعدك؟ لست أرى إلا أنك قد تتجمد حتى الموت في هذا الكوخ في الشتاء، ولا أدري كيف تعيش فيه الطفلة!».

«يجري دم يانع في عروق الطفلة ولديها سقف جيد يظلها. ثم دعني أخبرك بالمزيد أيها القس؛ أنني أعرف أين أعثر على الحطب الجيد والوقت المناسب لجلبه؛ ويمكن للقس الذهاب والنظر إلى سقيفة الحطب. إن النار لا تنطفئ أبدًا في كوخي طوال الشتاء. أما عن العيش في الأسفل فهذا مما لا أفكر به، فالناس يكرهونني وأنا أكرههم، ومن الأفضل لنا أن نعيش منفصلين».

«كلا، كلا. فليس هذا الأفضل لك، أعرف ما ينقصك»، قال القس بصوت جاد، «أما عن نظرة الناس لك في الأسفل بكراهية، فالأمر ليس سيئًا بقدر ما تظن. صدقني يا جاري، اسع إلى إرساء السلام مع الرب، وصلِّ لتنال الغفران حيث تحتاجه، ثم تعال وانظر كيف سينظر إليك الناس نظرة مختلفة، وكم ستسعد قربهم».

نهض القس ووقف مادًا يده نحو الرجل العجوز وقد أضاف بجدية مضاعفة «سأراهن يا جاري على أنك ستنزل للعيش بيننا في الأسفل الشتاء القادم، وسنكون جارين طيبين كما كنا. سأتألم إن

تعرضت لأي إجبار، فهات يدك وعدني أنك ستأتي وتعيش بيننا ثانية وتتصالح مع الرب والبشر».

مد الخال ألم يده إلى إلى القس وأجابه بهدوء وحزم «أعرف أنك تريد لي الخير، أما ما تريدني أن أفعله، فسأقول لك ما سأقوله دومًا، إنني لن أرسل الطفلة إلى المدرسة ولا سآتي للعيش بينكم».

«فليكن الرب في عونك إذن!»، قال القس واستدار حزينًا وغادر الكوخ ونزل الجبل.

لم يكن الخال ألم بمزاج طيب. وحين قالت هايدي بعد الظهر كالمعتاد «هل يمكننا الذهاب إلى الجدة الآن؟»، أجاب، «ليس اليوم». ولم ينبس ببنت شفة بقية اليوم، وحين سألته هايدي السؤال نفسه الصباح التالي قال «سنرى». ولكن قبل أن تفرغ صِحاف الغداء جاءهم زائر آخر، وكانت هذه المرة ابنة الأخت ديته. كانت تعتمر قبعة جميلة مريّشة، ولثوبها تنورة طويلة الذيل كنست الكوخ، وعلى أرض كوخ الراعي ترى الكثير من الأشياء التي لا تمت للثياب بصلة.

نظر الجد إليها وخفض نظره دون أن ينطق بحرف. لكن ديته حضّرت خطابًا شديد الألفة فأخذت من فورها تثني على مظهر الطفلة، إذ تبدو بصحة جيدة وبالكاد تعرفت إليها، ومن الواضح أنها سعيدة وقد اعتنى بها الجد جيدًا. ولكن لم يغب عن ذهنها أنها ستأخذ الطفلة ثانية، لأنها أدركت جيدًا أن الطفلة عبءٌ كبيرٌ عليه، لكنها لم تستطع فعل ذلك من قبل. غير أنها فكرت ليلًا ونهارًا

بالطرق لإرسال الطفلة إلى مكان ما، وهذا ما أتى بها اليوم لأنها سمعت بأمر قد يكون فرصة سعيدة لهايدي تفوق التوقعات. بعض الأقارب الموسرين للناس الذين تعمل لديهم، يعيشون في بيت فخم في فرانكفورت، وعندهم طفلة وحيدة صغيرة وعاجزة وتضطر دومًا للتنقل على كرسي متحرك، ولهذا فإنها وحيدة وليس لها من يشاركها دروسها فشعرت الفتاة الصغيرة بالملل. تحدث أبوها إلى سيدة ديته عن إيجاد رفيقة لها، وتحمست سيدتها لتساعد في ذلك فقد شعرت بالعطف عليها. وصفت مدبرة المنزل الطفلة المطلوبة؛ إذ تريدها بريئة ليست مدللة ولا تشبه معظم الأطفال الذين يراهم المرء اليوم. فخطرت هايدي لديته على الفور وذهبت دون تردد لمدبرة المنزل، وبعد أن وصفت ديته هايدي لها، وافقت على أخذها في الحال. ولا أحد يعلم أي حظ طيب ينتظر هايدي، لأنها إن ذهبت إلى هؤلاء الناس وأحبوها وحدث مكروه لابنتهم -الفتاة مريضة جدًا، ولا أحد يعرف مصيرها- وشعروا أنهم لا يستطيعون العيش دون طفل، فقد يصيب هايدي حظ لم يعرفه أحد من قبل...

«هل فرغت من حديثك؟»، قاطعها الخال ألم، الذي سمح لها أن تتحدث دون مقاطعة حتى الآن.

«أف!»، قالت ديته رافعة رأسها في اشمئزاز، «إن المرء ليظنني أتحدث عن شيء عادي للغاية، عجبًا، ليس في براتغاو أحد لن يشكر الرب إن حملت له نبأ كالذي حملته لك».

«يمكنك أن تأخذي أنباءك إلى من تشائين، فليس لي شأن بها».

لكن ديته نهضت من مقعدها مثل الصاروخ وصاحت «إن كان هذا كل ما لديك لتقوله حول الأمر، فإنني سأفضي لك برأيي. إن الطفلة في الثامنة من عمرها ولا تعرف شيئًا، وأنت لن تسمح لها بالتعلم، فلن ترسلها إلى الكنيسة أو المدرسة كما قيل لي في دورفلي، وهي ابنة أختي أنا. وأنا مسؤولة عما يحدث لها. وعند وجود فرصة طيبة للطفلة، مثل هذه التي سنحت لهايدي، ليس لأحد أن يتجاهلها إلا امرؤ لا يكترث لأحد ولا يتمنى الخير لأحد. لكني لن أستسلم، وأقول لك إن الجميع في دورفلي يقفون إلى جانبي، وليس فيها أحد لن يأخذ جانبي ضدك، وأنصحك بالتفكير جيدًا قبل عرض الأمر على المحكمة، إن كانت هذه نيتك، فثمة أمور قد تقال ضدك لا تأبه لسماعها، لأنني سأحيي أمورًا كثيرة منسية إن اضطررت للمثول أمام المحاكم».

«اخرسي!» زجر الخال وقد احمرت عيناه من الغضب، «اذهبي ودعيني! ولا تجعليني أرك وقبعتك المريشة ثانية وعلى لسانك كلمات كالتي جئت بها اليوم!»، وخرج من الكوخ بعد هذا.

«لقد أغضبتِ جدي»، قالت هايدي ولم يكن في عينيها نظرة ود نحو ديته.

«سيهدأ سريعًا، تعالي الآن»، قالت ديته على عجل، «وأريني أين ثيابك؟».

«أنا لست ذاهبة»، قالت هايدي.

«هراء»، تابعت ديته، ثم غيرت نبرتها إلى أخرى تراوحها بين

الملاطفة والحنق «تعالي، تعالي، فأنت لا تفهمين أكثر من جدك. سيكون عندك كل الأشياء الجميلة التي ما حلمت بها». ثم ذهبت إلى الصوان وأخرجت متاع هايدي ولفته في حزمة. «هلمي الآن، هذه قبعتك، إنها رثة للغاية لكنها ستفي بالغرض في الوقت الراهن، اعتمريها ودعينا ننطلق بسرعة».

«أنا لست ذاهبة»، كررت هايدي.

«لا تكوني غبية وعنيدة مثل العنزة. أظنك تعلمت أن تكوني هكذا من الماعز. أصغي إلي، لقد رأيت غضب جدك وسمعت ما قاله، إنه يريدك أن تذهبي معي الآن وعلينا ألا نغضبه أكثر. لست تعرفين جمال فرانكفورت، والأشياء الكثيرة التي سترينها، وإن لم تعجبك عدنا ثانية. سيكون جدك في مزاج طيب عندئذ».

«هل يمكنني العودة في الحال وأن أكون في البيت هذا المساء؟»، سألت هايدي.

«عم تتحدثين؟ هلمي الآن! أخبرتك أن بوسعك العودة متى شئت. سنذهب اليوم حتى مينفيلد، وسننطلق بالقطار في الصباح الباكر غدًا، وهذا القطار سيعيدك للبيت ثانية بسرعة حين تشائين، لأنه يمضي سريعًا كالريح».

وضعت ديته الحزمة تحت ذراعها وأمسكت الطفلة بيدها، وهكذا نزلتا الجبل معًا.

ولأن الوقت من العام كان باكرًا ليصطحب بيتر العنزات إلى المرعى، فقد واصل ذهابه إلى المدرسة في دورفلي، لكنه يسترق

عطلة بين الفينة والأخرى، لأنه لم يرَ جدوى من تعلم القراءة، بل وجد التجوال والبحث عن عصي ثخينة يحتاجها يومًا شغلًا أفضل بكثير. حين اقتربت هايدي وديته من كوخ الجدة قابلا بيتر قادمًا من الزاوية، ويبدو أن سعيه أثمر ذلك الصباح لأنه حمل حزمة من أغصان البندق الثخينة الطويلة على كتفيه. فوقف ونظر إلى الاثنتين المقتربتين وهتف حين مرتا بقربه «إلى أين تذهبين يا هايدي؟».

«سأذهب إلى فرانكفورت في زيارة قصيرة مع ديته»، أجابت، «لكن علي أولًا الذهاب إلى الجدة فإنها تتوقع مجيئي».

«كلا، كلا، عليك ألا تتوقفي للحديث، لقد تأخر الوقت»، قالت ديته وهي تمسك سريعًا بيد هايدي التي تحاول الهرب. «يمكنك الذهاب حين تعودين، ولكن عليك القدوم الآن». وجذبت الطفلة معها خشية أنها إن تركت هايدي فسيخطر لها ثانية أنها لا تود الذهاب، وقد تقف الجدة إلى جانبها. ركض بيتر إلى الكوخ وخبط الطاولة بحزمة عصيه بقوة جعلت كل شيء في الغرفة يهتز، ونهضت جدته بصرخة ذعر من أمام دولاب الغزل. لقد شعر بيتر برغبة في التنفيس عن مشاعره بطريقة ما.

«ما الأمر؟ ما الأمر؟»، صاحت المرأة العجوز المذعورة، أما أمه التي نهضت من مقعدها في ذهول فقالت بأسلوبها الصبور المعتاد «ما الأمر يا بيتر؟ لماذا تتصرف برعونة؟».

«لأنها تأخذ هايدي بعيدًا»، أجاب بيتر.

«من؟ من؟ إلى أين يا بيتر؟ إلى أين؟»، سألت الجدة وقد زاد

حزنها لأنها عرفت ما حدث، لأن بريجيتا أخبرتها قبل وقت قصير أنها رأت ديته تصعد إلى الخال ألم. نهضت المرأة العجوز وبيدين مرتجفتين فتحت النافذة بسرعة ونادت بتضرع «ديته، ديته، لا تبعدي الطفلة عنا! لا تبعديها!».

كانت الاثنتان تنزلان الجبل بسرعة وسمعتا صوتها، وفهمت ديته ما قالته لأنها تشبثت بيد هايدي بقوة أكبر، وجهدت هايدي لتتحرر وهي تبكي «الجدة تنادي، علي الذهاب إليها».

لكن ديته لم تنوِ السماح للطفلة بالذهاب، وهدأتها بقدر ما استطاعت، وقالت إن عليهما أن تسرعا الآن وإلا فإنهما ستتأخران في الذهاب إلى فرانكفورت في اليوم التالي، وهناك سترى الطفلة جمالها، وإن ديته متأكدة أنها لن ترغب بالعودة ثانية ما إن تصل إلى هناك. ولكن إن أرادت هايدي العودة إلى البيت، فبوسعها فعل ذلك في الحال، ويمكنها عندئذ أن تأخذ للجدة شيئًا تحبه. كانت هذه فكرة جديدة على هايدي، وأسعدتها كثيرًا فلم تجد ديته أي مشقة في جعلها تمضي.

وبعد بضع دقائق من الصمت سألت هايدي «ماذا يمكنني أن أجلب لها؟».

«علينا أن نفكر بشيء جميل»، أجابت ديته، «لفافة طرية من الخبز الأبيض، فهي ستحب ذلك لأنها الآن عجوز ويصعب عليها تناول الخبز الأسود اليابس».

«كلا، إنها تعيده لبيتر دومًا قائلة إنه يابس جدًا، فقد رأيتها تفعل

ذلك بنفسي»، أكدت هايدي. «دعينا نسرع، لعلنا نستطيع العودة من فرانكفورت سريعًا، فأعطيها الخبز الأبيض اليوم». وانطلقت هايدي تجري بسرعة لم تستطع معها ديته وهي تتأبط الحزمة أن تجاريها. إلا أنها كانت سعيدة للوصول بسرعة إذ اقتربتا من دورفلي، حيث سيتحدث أصدقاؤها ويتساءلون بطريقة تغير رأي هايدي. فمضت قدمًا عبر القرية، ممسكة هايدي بإحكام، فيرى الجميع أنها تسير بهذه السرعة من أجل الطفلة فحسب. وأجابت وهي تمر على كل أسئلتهم وتعليقاتهم بقولها «لا أستطيع التوقف الآن كما ترى، علي الإسراع مع الطفلة فما زال أمامنا طريق نقطعه».

«هل تبعدينها؟»، «هل هي هاربة من الخال ألم؟»، «إنها لأعجوبة أن تكون على قيد الحياة!»، «يا لهما من وجنتين ورديتين!»، كانت هذه الكلمات التي علت من كل الجهات، وكانت ديته سعيدة أنها لم تضطر للتوقف وتقديم إجابات واضحة لهم، وقد أسرعت هايدي بحماس دون أن تنطق بحرف.

ومنذ ذلك اليوم أخذ الخال ألم يبدو أشرس وأكثر تجهمًا من ذي قبل حين ينزل ويمر بدورفلي. ولم يتحدث إلى أحد وبدا مثل غول بحاجبيه الثخينين المعقودين وهو ينزل حاملًا على ظهره حزمة الجبن، وعصا ثخينة في يده، حتى أن النساء قلن لصغارهن «احترسوا! وابتعدوا عن طريق الخال ألم وإلا آذاكم!».

لم يكترث الرجل العجوز بأحد وهو يمشي عبر القرية في طريقه إلى الوادي في الأسفل، حيث باع جبنه واشترى ما يحتاجه

من الخبز واللحم. وبعد أن مر تجمّع أهلُ القرية ناظرين إليه، ولدى كل منهم ما يقوله عنه؛ إنه أشرس من المعتاد، وإنه لن يرد على تحية أحد، واتفقوا كلهم على أن أخذ الطفلة منه رحمة عظيمة. ألم يروا كلهم إسراع الطفلة كأنما تخاف لحاق جدها بها لإعادتها؟ إلا الجدة العمياء لم تقل شيئًا ضده، وأخبرت هؤلاء الذين جاؤوا جالبين لها عملًا، أو ليأخذوا ما غزلت، أنه لطيف وراعٍ للطفلة وأنه طيب معها ومع ابنتها، وأنه قضى أوقات بعد الظهيرة يصلح البيت الذي كان سينهار على رؤوسهم حتمًا لولا مساعدته. وتناقل الناس هذا في دورفلي، غير أن معظم من سمعه قال إن الجدة مسنة جدًا لتعي ما تقول، ولا بد أنها لم تسمع جيدًا ما قيل، وإن كانت عمياء فلا بد أنها صماء.

لم يعد الخال ألم يذهب إلى منزل الجدة، وكان من حسن الحظ أنه أصلحه جيدًا، إذ لم يمسسه أحد منذ وقت طويل. عادت الأيام حزينة على المرأة العجوز العمياء، ولا يمر يوم دون أن تقول في شكوى «وا حسرتاه! كل سعادتنا وسرورنا قد رحل مع الطفلة، وها قد عادت الأيام طويلة ومملة! أصلي للرب أن أرى هايدي ثانية مرة واحدة قبل أن أموت!».

الفصل السادس

فصل جديد عن أمور جديدة

في منزل جميل في مدينة فرانكفورت عاشت كلارا الابنة الصغيرة للسيد زيزمن، وكانت فتاة مريضة تجلس على كرسي متحرك تقضي عليها النهار بطوله، وتدفع عليه من غرفة لأخرى. وقد كانت في غرفة المكتبة، كما يبدو من صنوف الأشياء فيها، والتي أضفت على الغرفة مظهرًا كنينًا، حيث تحب العائلة الجلوس فيها. ويتبين للمرء لم سميت بغرفة المكتبة حين يرى رفوف الكتب الأنيقة ذات الأبواب الزجاجية، كما يتبين أن الفتاة الصغيرة اعتادت تلقي دروسها هنا.

كان وجه كلارا الصغير نحيلًا وشاحبًا، وكانت عيناها في هذه اللحظة مثبتتين على الساعة التي رأتها تمشي ببطء شديد هذا اليوم، وبنبرة فيها شيء من نفاد الصبر سألت «ألم يحن الوقت بعد يا آنسة روتنماير؟».

كانت هذه السيدة تجلس باستقامة واضحة على طاولة عمل صغيرة مشغولة بتطريزها. وقد ارتدت ثوبًا فضفاضًا غريب الشكل

له ياقة كبيرة أو رداء كتفين منح مظهرها وقارًا، كبّره غطاء رأس عالٍ جدًا له شكل القبة. منذ أن ماتت سيدة المنزل قبل سنوات عدة، سلم السيد زيزمن شؤون تدبير البيت والإشراف على الخدم للآنسة روتنماير. أما هو فيسافر كثيرًا، وترك لها المسؤولية وحدها، بشرط أن يكون لابنته رأي في كل الأمور، وألا يُفعل شيء يعارض رغباتها.

ما إن سألت كلارا سؤالها النافد الصبر للمرة الثانية، حتى وصلت هايدي وديته إلى الباب الأمامي، وسألت الأخيرة سائق العربة الذي نزل من عربته، إن كان الوقت متأخرًا جدًا لرؤية الآنسة روتنماير.

«هذا ليس من شأني»، أجاب السائق بنزق، «اقرعي الجرس في الردهة ليأتيك سيباستيان».

ففعلت ديته، ونزل سيباستيان الدرج، وقد علته الدهشة عندما رآها، فاتحًا عينيه حتى صارتا بحجم أزرار معطفه المدورة.

«هل الوقت متأخر لأرى الآنسة روتنماير؟»، سألت ديته ثانية.

«هذا ليس من شأني»، أجاب الرجل، «اقرعي الجرس الآخر لتأتيك الخادمة تِنِته»، ودون أن يكلف نفسه مزيدًا من العناء اختفى سيباستيان.

قرعت ديته ثانية، فظهرت تنته هذه المرة وهي تعتمر قبعة ناصعة البياض على قمة رأسها ويعلو وجهها نظرة سخرية.

«ما الأمر؟»، قالت من أعلى الدرج. فكررت ديته سؤالها، واختفت تنته إلا أنها عادت سريعًا ونادت ديته «تعالي إنها بانتظارك».

صعدت ديته وهايدي الدرج ودخلتا المكتبة تتبعهما تنته. ظلت ديته واقفة بتهذيب قرب الباب، ولم تزل ممسكة بيد هايدي بقوة، لأنها لم تعرف ما يخطر للطفلة أن تفعله في هذه البيئة الجديدة.

نهضت الآنسة روتنماير ببطء وتقدمت نحو الرفيقة الجديدة الصغيرة لابنة صاحب البيت، لترى كيف تبدو. ولم يبد أنها سرت بمظهرها، فقد ارتدت هايدي ثوبها الصوفي البسيط القصير، وكانت قبعتها قديمة مبعوجة مصنوعة من القش. نظرت الطفلة ببراءة من تحتها وحدقت بدهشة واضحة إلى غطاء رأس السيدة العالي.

«ما اسمك؟»، سألت الآنسة روتنماير بعد أن تفحصت الطفلة بضع دقائق بعناية، وقد ظلت عينا هايدي مسمرتين على السيدة.

«هايدي»، أجابت بصوت واضح رنان.

«ماذا؟ ماذا؟ هذا ليس اسمًا مسيحيًا يمنح لطفلة، لم تعمّدي بذلك. ما الاسم الذي منحوه لك عند التعميد؟»، أضافت الآنسة روتنماير.

«لا أذكر»، أجابت هايدي.

«يا له من جواب!»، قالت السيدة وهي تهز رأسها، «أمغفلة هذه الطفلة أم وقحة يا ديته؟».

«إن سمحت لي السيدة، فسأتحدث عن الطفلة لأنها لم تعتد

الحديث مع الغرباء»، قالت ديته التي وكزت هايدي وكزة صامتة لقولها جوابًا وقحًا كهذا. «إنها ليست غبية ولا وقحة حتمًا. إنها لا تعرف ما معنى هذا أصلًا، فهي تقول ما تفكر به. وهي اليوم تقف لأول مرة في منزل أناس محترمين ولا تعرف آداب اللياقة، لكنها مطواعة ومستعدة للتعلم، إن غفرت لها السيدة بلطفها. لقد عُمّدت باسم أديليد، تيمنًا بأمها، أختي الميتة».

«حسن، هذا اسم يمكن للمرء لفظه»، أجابت الآنسة روتنماير، «ولكن علي أن أقول لك يا ديته إنني دهشت لرؤية طفلة صغيرة هكذا. أخبرتك أنني أريد رفيقة من عمر سيدة البيت الصغيرة، فيمكنها أن تشاركها دروسها، وكل ملاهيها. لقد تجاوزت الآنسة كلارا الثانية عشرة، فكم تبلغ هذه الطفلة من العمر؟».

«إن سمحت لي السيدة»، بدأت ديته ثانية بأسلوبها الرشيق المعتاد، «لم أعد أعرف أنا نفسي عمرها بالضبط، لا بد أنها أصغر بقليل، ولا يمكنني التحديد على وجه الدقة فلعلها في العاشرة أو نحوها».

«أخبرني جدي أنني في الثامنة»، أضافت هايدي، فوكزتها ديته ثانية، إلا أن الطفلة لم ترتبك لأنها لم تعرف لمَ تفعل ديته ذلك.

«عجبًا، في الثامنة فحسب!»، صاحت الآنسة روتنماير بغضب «إنها أصغر بأربع سنوت! وما نفع طفلة كهذه؟! وماذا تعلمت؟ وما الكتب التي تعلمت منها؟».

«لا شيء»، قالت هايدي.

«كيف؟ ماذا؟ كيف تعلمت القراءة إذن؟»، واصلت السيدة.

«لم أتعلم القراءة يومًا، ولا حتى بيتر»، أخبرتها هايدي.

«لتشملنا الرحمة! ألا تعرفين كيف تقرأين؟! هل هذا صحيح؟»، قالت الآنسة روتنماير مذعورة للغاية «أمعقول هذا؟ لا تقرأين؟ فماذا تعلمت إذن؟».

«لا شيء»، قالت هايدي بصدق لا يجفل.

«أيتها الشابة»، قالت السيدة لديته بعد أن توقفت لدقيقة لتستعيد صوابها، «هذه ليست الرفيقة التي جعلتني أتوقعها، كيف تجرؤين على إحضار طفلة كهذه لي؟».

لكن ديته لم تستسلم بسهولة وقالت بحرارة «إن سمحت لي السيدة، إن الطفلة هي ما ظننتك تريدين تمامًا، لقد وصفت السيدة الطفلة التي تريد؛ طفلة ليست ككل الأطفال الآخرين، ولم أعثر على أحد مناسب، لأن الكثيرين الذين أعرفهم ليسوا مميزين، بل يشبهون بعضهم بعضًا. وظننت أن هذه الطفلة خلقت من أجل هذا المكان. لكن علي الذهاب الآن، لأن سيدتي تنتظرني، وإن أذنت السيدة فسآتي ثانية قريبًا لأرى كيف تبلي»، وانحنت ديته وغادرت الغرفة ونزلت الدرج سريعًا. ووقفت الآنسة روتنماير للحظة مأخوذة ثم جرت خلف ديته، فإن كانت الطفلة ستبقى فهي لم يزل لديها الكثير لتقوله وتسأل عنه، لكنها رأت أن الطفلة هنا، وأن ديته تعمدت تركها هناك.

ظلت هايدي قرب الباب حيث وقفت منذ أن دخلت. أما

كلارا فقد تابعت المقابلة دون أن تنبس بحرف، وأومأت إلى هايدي وقالت «تعالي هنا!».

فتقدمت إليها هايدي.

«هل تفضلين أن أدعوك هايدي أم أديليد؟»، سألت كلارا.

«لم أدع باسم إلا هايدي»، كان جواب الطفلة السريع.

«فسأناديك دومًا بهذا الاسم»، قالت كلارا، «إنه يناسبك. لم أسمع به من قبل، غير أنني لم أر طفلة مثلك قبلًا. هل كان لك هذا الشعر المجعد دومًا؟».

«أجل أظن ذلك»، قالت هايدي.

«هل أنت مسرورة بالقدوم إلى فرانكفورت؟»، أضافت كلارا.

«كلا، لكني سأعود غدًا وآخذ للجدة رغيفًا أبيض»، قالت هايدي.

«حسن، إنك طفلة طريفة!»، أجابت كلارا، «لقد أرسل لإحضارك على وجه السرعة وأن تبقي معي وتشاركيني دروسي، وستصبح ممتعة ما دمت لا تستطيعين القراءة. سيكون لدينا أمر جديد نفعله لأن ساعات الدروس تمر بكثير من الضجر، حتى لأظن أن الصباح لن ينقضي. تعرفين أن معلمي يأتي صباحًا كل يوم في الساعة العاشرة، ثم ننتهي من الدروس عند الثانية، وهذا وقت طويل جدًا. أراه يرفع الكتاب أحيانًا ويقربه إلى وجهه كأنما يشكو قصر النظر، لكني أعرف أنه يفعل ذلك حين تنتابه رغبة قوية في

التثاؤب. وتخرج الآنسة روتنماير منديلها الكبير وتغطي به وجهها، كأنها تأثرت بما نقرأه، ولكنها تفعل ذلك لأن رغبة قوية في التثاؤب تنتابها أيضًا. وأنا أيضًا تنتابني رغبة في التثاؤب كثيرًا، لكني أضطر لكبحها لأن الآنسة روتنماير تجري من فورها وتحضر زيت كبد القد وتقول إن علي أخذ جرعة لأنني مرضت مرة أخرى، إن رأتني أتثاءب، وزيت كبد القد مريع، لذا أبذل جهدي لئلا أتثاءب. لكن الأمر سيكون أكثر تسلية، لأن بوسعي أن أستلقي وأستمع إليك وأنت تتعلمين القراءة».

هزت هايدي رأسها بارتياب حين سمعت بأمر تعلم القراءة.

«أوه، كلام فارغ يا هايدي، عليك أن تتعلمي القراءة طبعًا، يجب على الجميع ذلك، إن معلمي لطيف جدًا ولا يغضب أبدًا، وسيشرح لك كل شيء. ولكن اسمعي، حين يشرح لك شيئًا لن تفهمي، ولكن لا تسألي وإلا فإنه سيواصل الشرح وسيقل فهمك. حين تتعلمين أكثر في وقت لاحق وتعرفين عن الأمور بنفسك، ستبدئين حينئذ بفهم ما قصده».

عادت الآنسة روتنماير إلى الغرفة، إذ لم تستطع اللحاق بديته. ومن الواضح أنها غاضبة جدًا، لأنها أرادت معرفة مزيد من التفاصيل حول الطفلة، وأن تقنع ديته بأنها خدعتها، وأن هايدي ليست رفيقة مناسبة لكلارا، ولم تعرف ما ستفعل حقًا، أو كيف تتخلص من هذه الخديعة وهذا ما جعلها أكثر غضبًا لأنها مسؤولة عن ذلك لسماحها بإحضار هايدي. وأخذت تسير جيئة وذهابًا

في حالة من الغضب بين المكتبة وغرفة الطعام، ثم بدأت توبخ سيباستيان الواقف ينظر إلى المائدة التي أعدها ليتأكد أنه لم ينس شيئًا.

«يمكنك أن تنهي أفكارك صباح غدٍ، أسرع وإلا ما تناولنا غداءنا اليوم».

ثم نادت تنته بسرعة، ولكن بصوت ينم عن مزاج شكس جعل الخادمة تتقدم متعثرة بخطوات أكثر تأنقًا من المعتاد، لكنها بدت أنيقة جدًا حتى أن الآنسة روتنماير لم تجرؤ على توبيخها، ما جعل غضبها المكتوم يزداد.

«احرصي على إعداد الغرفة للفتاة الصغيرة التي وصلت اليوم»، قالت السيدة بجهد جهيد لتضبط نفسها. «كل شيء جاهز، لكنها بحاجة إلى نفض الغبار فحسب».

«وكأنها تستحق عنائي»، قالت تنته ساخرة وهي تبتعد.

فتح سيباستيان أثناء ذلك الأبواب المنزلقة في غرفة الطعام بضجيج أكبر من الحاجة، لأنه كان حانقًا رغم أنه لم يجرؤ على الرد على الآنسة روتنماير. ثم تقدم نحو كرسي كلارا ليجلبها إلى الغرفة المجاورة. وحين أمسك بالمقبض في الخلف استعدادًا لفعل ذلك، وقفت هايدي قربه وحدقت به. فقال لها ممتعضًا بعد أن رأى عينيها مسمرتين عليه «حسن، ما الذي يجعلك تحدقين بي هكذا؟» وهو ما لم يكن ليفعله حتمًا لو انتبه أن الآنسة روتنماير تدخل الغرفة. «إنك تشبه بيتر»، قالت هايدي. ضمت السيدة يديها مذعورة «أيعقل

هذا؟!»، تلعثمت بصوت شبه مسموع، «إنها تخاطب الخدم كأنهم أصدقاؤها! لم أتخيل طفلة كهذه يومًا!».

جلب سيباستيان المقعد المتحرك إلى غرفة الطعام وساعد كلارا في الجلوس على كرسيها. جلست الآنسة روتنماير في الكرسي المجاور وأشارت لهايدي أن تجلس في الكرسي المقابل. لم يكن على المائدة سوى ثلاثتهن، وكان لدى سيباستيان متسع من المساحة لتمرير الأطباق لأنهن جلسن متفرقات. قرب طبق هايدي وُضِعت لفافة بيضاء لذيذة، واتقدت عيناها بهجة حين رأتها. أيقظ الشبه الذي لاحظته هايدي إحساسًا من الثقة بسيباستيان، لأنها جلست هادئة مثل فأرة دون حراك حتى جاء إلى جانبها وقدم لها طبق السمك، ثم نظرت إلى اللفافة وسألت «هل يمكنني أخذها؟»، هز سيباستيان رأسه موافقًا، وهو ينظر إلى الآنسة روتنماير ليرى أثر هذا الطلب عليها. أمسكت هايدي في الحال باللفافة ووضعتها في جيبها، فتشنج وجه سيباستيان، فقد كتم داخله ضحكة لكنه يعرف مكانته جيدًا فلم يضحك عاليًا. وظل واقفًا بصمت ودون حراك قرب هايدي، ولم يكن من واجبه الحديث ولا أن يتحرك حتى تبدأ بخدمة نفسها. نظرت إليه هايدي بعجب لدقيقة أو اثنتين، ثم قالت «هل سآكل بعضًا من هذا أيضًا؟»، فهز سيباستيان رأسه موافقًا، «أعطني بعضه إذن»، قالت وهي تنظر إلى طبقها بهدوء. عندها صارت قدرة سيباستيان على ربط جأشه أمرًا صعبًا، وأخذ الطبق يهتز بين يديه على الجانبين.

«يمكنك وضع الطبق على المائدة والعودة لاحقًا»، قالت الآنسة

روتنماير وقد علا وجهها الغضب. اختفى سيباستيان من فوره. «أما أنت يا أديليد، فأرى أن علي تعليمك أول قواعد السلوك»، تابعت السيدة مدبرة المنزل متنهدة، «سأبدأ بشرح كيف تتصرفين على المائدة»، واستمرت في إعطاء هايدي تعليمات مفصلة بما عليها فعله. ثم واصلت «والآن، علي أن أعلمك جيدًا بأنك يجب ألا تتحدثي إلى سيباستيان على المائدة أو في أي وقت آخر، إلا إن كان لديك ما تأمرينه به، أو سؤال ضروري تطرحينه عليه، وعندئذ يجب ألا تخاطبيه كأحد من معارفك. لا أريد سماعك مرة تتحدثين إليه هكذا! والأمر نفسه مع تنته، وأما بالنسبة لي فخاطبيني كما يخاطبني الآخرون، وأما كلارا فلها أن تقرر بنفسها كيف تخاطبينها».

«عجبًا، تناديني كلارا طبعًا»، قالت الأخيرة. ثم تبعت ذلك قائمة طويلة من القوانين المتعلقة بالسلوك العام، من قبيل الاستيقاظ والخلود للفراش، والدخول إلى الغرفة والخروج منها، وإغلاق الأبواب، وإبقاء كل شيء مرتبًا. وأثناء ذلك غفت هايدي شيئًا فشيئًا، لأنها استيقظت قبل الخامسة ذلك الصباح وقطعت رحلة طويلة، فاتكأت على كرسيها وغطت في النوم سريعًا. وحين أنهت الآنسة روتنماير وعظها قالت «تذكري ما قلته لك يا أديليد! هل فهمت كل ما قلت؟».

«إن هايدي تغط في النوم منذ بعض الوقت»، قالت كلارا وقد عم السرور وجهها، فهي لم تحظ بغداء مسلٍ كهذا منذ وقت طويل.

«إن ما يراه المرء من هذه الطفلة لا يطاق حقًا»، قالت الآنسة

روتنماير بازدراء كبير، وقرعت الجرس بقوة فجاء تنته وسيباستيان معًا يجريان وكادا يتعثران ببعضهما بعضًا، ولكن ما من صوت أمكنه إيقاظ هايدي، وأنهضاها بمشقة على قدميها لتذهب إلى غرفتها، التي كان عليها لتصلها أن تمر بالمكتبة ثم غرفة نوم كلارا ثم غرفة جلوس الآنسة روتنماير حتى وصلت إلى الغرفة في الزاوية التي خصصت لها.

الجزء الثاني

الفصل السابع

الآنسة روتنماير تقضي يومًا مزعجًا

حين فتحت هايدي عينيها في أول صباح لها في فرانكفورت لم تتذكر أين هي، ثم فركتهما ونظرت حولها. كانت تجلس في سرير أبيض عالٍ في زاوية غرفة كبيرة واسعة، والضوء فيها يتخلل نافذة عبر ستائر بيضاء كبيرة جدًا، وقرب النافذة كرسيان تغطيهما أزهار كبيرة، ثم أريكة كبيرة عليها الأزهار نفسها، وأمامها طاولة مدورة، وفي الزاوية مغسلة عليها أشياء لم ترها هايدي في حياتها قبلًا. ثم تذكرت فجأة أنها في فرانكفورت، واستعادت كل شيء حدث في اليوم الماضي، ثم تذكرت بوضوح في نهاية المطاف التعليمات التي أملتها عليها السيدة مدبرة المنزل، بقدر ما سمعت منها. قفزت هايدي من فراشها وارتدت ثيابها، وجرت نحو نافذة ثم إلى أخرى، إذ أرادت رؤية السماء والريف في الخارج، وشعرت أنها مثل عصفور في قفص خلف هذه الستائر الكبيرة. لكنها كانت ثقيلة جدًا عليها فلم تستطع فتحها، فزحفت تحتها لتصل إلى النافذة. غير أن النوافذ مرتفعة جدًا ولم يبلغ رأسها إلا أسكفّة النافذة لتنظر منها. وحتى

بهذا لم تستطع رؤية ما اشتاقت إليه، وتنقلت بلا جدوى بين النوافذ الواحدة تلو الأخرى، ولم تر شيئًا إلا الجدران والنوافذ ثم الجدران والنوافذ، فذعرت هايدي. كان الوقت لم يزل باكرًا، لأنها اعتادت النهوض باكرًا والخروج لرؤية كيف يبدو كل شيء؛ إن كانت السماء زرقاء والشمس تعلو فوق الجبال، أو إن كانت أشجار التنوب تتمايل والأزهار فتحت عيونها. ومثل عصفور وجد نفسه في قفص برّاق لأول مرة يندفع هنا وهناك ضاربًا القضبان ليرى إن كان بوسعه أن يمر عبرها ويطير ثانية إلى الفضاء، ظلت هايدي تروح وتغدو في محاولة لفتح النافذة الأولى ثم غيرها من النوافذ، لأنها لم تطق ألا ترى شيئًا سوى الجدران والنوافذ، ولا بد أن في الخارج عشبًا أخضر وآخر ما بقي من ثلج لم يذب على منحدرات الجبال التي اشتاقت هايدي لرؤيتها. لكن النوافذ ظلت لم تتحرك، وحاولت هايدي كثيرًا فتحها، وجهدت لدفع أصابعها الصغيرة تحتها لترفعها ولكن ذلك بلا جدوى. حين رأت هايدي إخفاق محاولاتها، كفت عن المحاولة وأخذت تفكر إن كان بوسعها الخروج والطواف حول المنزل حتى تعثر على العشب، لكنها تذكرت عندئذ أنها لم تر إلا الحجارة أمام البيت ليلة البارحة. قُرع الباب في تلك اللحظة، وأطلت تنته برأسها في الحال وقالت «الإفطار جاهز»، ولم تعرف هايدي أي دعوة تعنيها كلمات كهذه، ولم يشجعها وجه تنته على طرح أي سؤال، بل على العكس. لكن هايدي كانت ذكية تمامًا لتقرأ ملامحها، وتصرفت من فورها. فسحبت المقعد الصغير من تحت الطاولة، ووضعته في الزاوية وجلست عليه، وانتظرت بصمت ما سيحدث تاليًا. بعد ذلك بوقت

قصير، وبقدر من السخط والحنق، ظهرت الآنسة روتنهاير وبدت غاضبة جدًا وقالت لهايدي «ما خطبك يا أديليد؟ ألا تفهمين معنى الإفطار؟ تعالي في الحال!».

فلم تجد هايدي صعوبة في الفهم، وتبعتها فورًا. جلست كلارا منذ بعض الوقت إلى مائدة الإفطار وحيت هايدي بلطف، وعلى وجهها أمارات الفرح أكثر من المعتاد، لأنها تطلعت لشتى صنوف الأمور الجديدة التي ستحدث ثانية هذا اليوم. مر الإفطار بهدوء، وتناولت هايدي الخبز والزبدة بالطريقة الصحيحة، وحين انتهت الوجبة وأُخذت كلارا على كرسيها إلى المكتبة، أخبرتها الآنسة روتنهاير أن تلحق بها وتظل مع كلارا حتى يأتي المعلم وتبدأ الدروس.

وما إن صارت الطفلتان وحدهما، حتى سألت هايدي «كيف لنا أن نطل من هنا ونرى الأرض في الأسفل؟».

«عليك فتح النافذة والإطلالة منها»، أجابت كلارا بسعادة.

«لكن النوافذ لن تنفتح»، أجابت هايدي بحزن.

«بلى ستفعل»، أكدت لها كلارا، «لا يمكنك فتحها ولا أنا، ولكن إن رأيت سيباستيان يمكنك أن تسأليه أن يفتح لك إحداها».

ارتاحت هايدي كثيرًا لمعرفة أن النوافذ تُفتح ويمكن للمرء أن يطل منها، لأنها لم تزل تشعر أنها حبست في سجن. أخذت كلارا تسألها عن ديارها، وسرت هايدي لإخبارها كل شيء عن الجبال والماعز والمروج المزهرة التي تحبها كثيرًا.

وصل المعلم عندئذ، ولم تحضره الآنسة روتنماير إلى المكتبة على الفور، بل أخذته جانبًا إلى غرفة الطعام، وعرضت عليه مشكلتها وشرحت له الموقف السخيف الذي كانت فيه، وكيف حدث. وتبين أنها كتبت للسيد زيزمن لإخباره أن ابنته تتمنى أن يكون لها رفيقة، وأضافت أنها ترى ذلك مستحسنًا، لأنه سيحفز كلارا في دروسها ويسليها في وقت فراغها. لقد تطلعت الآنسة روتنماير من جهتها إلى هذا الترتيب، لأنه سيزيح عنها عبء تسلية الفتاة المريضة، التي شعرت أحيانًا أنه يفوق طاقتها. فأجاب الأب بقوله إنه يوافق على أن تكون لابنته رفيقة، منوهًا بأن تعامل كابنته، لأنه لا يود أن يتعرض طفل للتعذيب أو الإساءة، «وهذا تنويه لا داعي له»، قالت الآنسة روتنماير، «فمن يريد تعذيب الأطفال؟!»، ثم تابعت لتشرح كيف خدعت بأمر الطفلة، وقصت كل الأحداث العجيبة التي صارت مسؤولة عنها، فهو لن يضطر لتعليم الطفلة الأبجدية فحسب، بل سيبدأ بالتعليمات الأساسية فيما يتعلق بأمور الحياة اليومية أيضًا. وهي لا ترى مخرجًا من هذا الوضع الكارثي إلا أن يقول المعلم إنه يستحيل على الاثنتين أن يتلقيا الدروس معًا دون ضرر على كلارا، التي تسبق الأخرى كثيرًا، وهذا سيكون عذرًا مقبولًا للتخلص من الطفلة. وسيوافق السيد زيزمن على إعادة الطفلة إلى بيتها، لكنها لا تجرؤ على فعل ذلك دون أوامره، لأنه علم أن الرفيقة قد وصلت بحلول هذا الوقت. لكن المعلم رجل واع ولا يميل إلى النظر إلى الأمور من زاوية واحدة. فحاول تهدئة الآنسة روتنماير، وقال إنه يرى أن الطفلة لديها ما تتفوق به وإن تأخرت في أمور أخرى،

وإن قليلًا من التعليم المنتظم سيحقق التوازن. وحين رأت الآنسة روتنماير أنه غير راغب في دعمها ومن الجلي أنه مستعد للتكفل بتعليم الأبجدية، فتحت باب المكتبة وأغلقته ثانية بسرعة ما إن دخل، وقد ظلت هي على الجانب الآخر لأنها تشعر برعب حقيقي من الأبجدية. وأخذت تذرع غرفة الطعام جيئة وذهابًا، وهي تقلب في ذهنها الطريقة المثلى لمخاطبة الخدم لأديليد. فقد كتب الأب أن تعامل كابنته تمامًا، وظنت أن هذا يشير إلى الخدم تحديدًا. غير أنها لم تحظ بوقت طويل للتفكير على أية حال، إذ سُمع صوت ارتطام رهيب قادم من المكتبة، تبعته صيحات هياج تدعو سيباستيان، فاندفعت إلى الغرفة. على الأرض رقدت في كومة فوضوية كتب ودفاتر ومحبرة وغيرها من الأمتعة يعلوها مفرش الطاولة، وتحتها غدير داكن من الحبر يسيل في كل الأنحاء على الأرض، وهايدي اختفت.

«هذه هي الحال!»، قالت الآنسة روتنماير وهي تهز رأسها، «المفرش والكتب وسلة المشغولات كلها غارقة في الحبر! إن هذا من صنع الطفلة التعسة كما أظن!».

وقف المعلم ينظر إلى الأسفل إلى الفوضى في حنق، فلا بد أن لهذا الأمر جانبًا واحدًا وهو جانب سيء. بدَت كلارا مسرورة أثناء ذلك بحدث جديد كهذا وفي مشاهدة العواقب. «بلى هايدي فعلت ذلك»، قالت، «ولكنها فعلته بالخطأ، ولا يجدر معاقبتها بأي حال. فقد قفزت بسرعة شديدة فجرّت المفرش معها، وسقط كل شيء.

إذ مر عدد من العربات ولهذا أسرعت على هذا النحو؛ لعلها لم تر عربة قبلًا».

«أليس هذا ما قلته؟ إنها لا تملك أدنى فكرة عن أي شيء! ولا أدنى فكرة أن عليها الجلوس بهدوء والإنصات أثناء الدروس. ولكن أين هي الطفلة التي أحدثت كل هذه الفوضى؟ فهي لم تولِ هاربة طبعًا! ما الذي سيقوله لي السيد زيزمن؟»، وخرجت من الغرفة ونزلت الدرج، وفي الأسفل هناك وقفت هايدي عند الباب المفتوح ونظرت في دهشة إلى الشارع.

«ما الذي تفعلينه؟ هل تفكرين بالفرار هكذا؟»، صاحت الآنسة روتنماير.

«سمعت صوت أشجار التنوب، لكني لا أرى مكانها، ولم أعد أسمعها الآن»، أجابت هايدي وهي تنظر بخيبة رجاء في الاتجاه الذي وصلها منه ضجيج عربات تمر، وبدا هذا لهايدي مثل هبوب الريح الجنوبية على الأشجار، فخرجت مسرعة من فرحة قلبها لتراها.

«أشجار التنوب! هل تظنين أننا في غابة؟ ما هذه الأفكار السخيفة؟ تعالي إلى الأعلى وانظري إلى الفوضى التي أحدثتها!».

استدارت هايدي وتبعت الآنسة روتنماير إلى الأعلى، وقد دهشت لمرأى الكارثة التي تسببت بها، لأنها لم تدرك، من فرحتها وعجلتها، أنها سحبت كل شيء خلفها.

«سأغفر لك هذا لأنها المرة الأولى، ولكن لا أريد أن أعرف أنك فعلتها مرة ثانية»، قالت الآنسة روتنماير مشيرة إلى الأرض،

«عليك الجلوس بهدوء والانتباه أثناء الدرس. وإن لم تستطيعي فعل ذلك فسأربطك إلى كرسيك، أتفهمين؟».

«أجل»، أجابت هايدي، «ولكني لن أتحرك ثانية بالتأكيد»، فقد فهمت الآن أن الجلوس بهدوء وهي تتلقى تعليمها هو أحد القوانين.

أُرسل سيباستيان وتنته لكنس الأشياء المكسورة وترتيب المكان ثانية، فقال المعلم نهارًا سعيدًا وغادر، إذ يستحيل إعطاء مزيد من الدروس ذلك اليوم، ومن المؤكد أنه ما من وقت للتثاؤب هذا الصباح.

كان على كلارا أن تخلد للراحة لبعض الوقت بعد الظهر، وخلال هذه الاستراحة أخبرت الآنسة روتنماير هايدي أن بوسعها تسلية نفسها كيفما تشاء. وحين وضعت كلارا في فراشها بعد الغداء، وأوت السيدة مدبرة المنزل إلى غرفتها، عرفت هايدي أن الوقت حان لتختار ما تفعله. فقد كان هذا ما تتوق إليه، إذ كان في ذهنها أمر عقدت العزم على فعله، لكنها ستحتاج مساعدة لتحقيقه، ومن أجل هذا أخذت موقفها في الردهة أمام غرفة الطعام بغية إيقاف الشخص الذي تريد. وفي غضون دقائق قليلة جاء سيباستيان من المطبخ حاملًا صينية لطقم الشاي الفضي عليه وضعه في صوان غرفة الطعام. وحين وصل إلى الدرج العلوي تقدمت إليه هايدي وخاطبته بالأسلوب الرسمي الذي أمرتها الآنسة روتنماير بمخاطبته به.

فوجئ سيباستيان وقال بشيء من الفظاظة «ما الذي تريدينه يا آنسة؟».

«أود أن أطلب منك طلبًا، لكنه ليس أمرًا سيئًا كالذي حدث صباحًا»، قالت هايدي محاولة تهدئته، لأنها رأت أن سيباستيان في مزاج تعس، وظنت أن هذا بسبب الحبر الذي أراقته على الأرض.

«حقًا، ولكني أود أن أعرف أولًا لم تخاطبيني هكذا؟»، أجاب سيباستيان ومن الجلي أنه لم يزل مستاء.

«أخبرتني الآنسة روتنماير أن أتحدث إليك هكذا دومًا»، قالت هايدي.

فضحك سيباستيان، ما أدهش هايدي كثيرًا، إذ لم تر في حديثها ما يضحك. لكن سيباستيان، وقد فهم أن الطفلة تتبع الأوامر، أضاف بنبرة ودودة «ما الذي تريده الآنسة إذن؟».

وكان دور هايدي لتستاء قليلًا فقالت «إن اسمي ليس آنسة، بل هايدي».

«صحيح، ولكن السيدة نفسها أمرتني أن أدعوك بالآنسة»، قالت سيباستيان.

«حقًا؟ أوه، إذن عليك أن تدعوني به»، قالت هايدي بإذعان، لأنها لاحظت أن ما تقوله الآنسة روتنماير هو قانون، «فلي ثلاثة أسماء إذن»، أضافت متنهدة.

«ما الذي أرادت الآنسة الصغيرة أن تطلبه؟»، قال سيباستيان وهو يدخل غرفة الطعام ليضع الفضيات.

«كيف تفتح النافذة؟».

«عجبًا، هكذا!»، وفتح سيباستيان إحدى النوافذ الكبيرة.

ركضت هايدي إليها لكنها ليست طويلة لتطل منها، إذ لم يبلغ رأسها إلا الأسكفّة.

«إليك، يمكن للآنسة الآن أن تطل وترى ما يحدث في الأسفل»، قال سيباستيان وهو يجلب مقعدًا خشبيًا عاليًا لتقف عليه.

صعدته هايدي ورأت أخيرًا ما تاقت لرؤيته، لكنها أرجعت رأسها بخيبة رجاء كبيرة.

«ليس في الخارج شيء سوى الشوارع الحجرية»، قالت بحزن، «ولكن إن ذهبت إلى الجانب الآخر من المنزل فماذا سأرى يا سيباستيان؟».

«لا شيء إلا ما رأيته هنا»، قال لها.

«فأين أذهب لأطل على الوادي بأسره؟».

«عليك أن تصعدي إلى قمة أعلى برج، برج كنيسة، مثل ذاك ذي الكرة الذهبية أعلاه، ومن هناك يمكنك رؤية كل شيء».

نزلت هايدي من مقعدها بسرعة، وجرت نحو الباب ونزلت العتبات ثم خرجت إلى الشارع. لم تكن الأمور سهلة على أية حال كما ظنتها، فقد بدا لها البرج قريبًا جدًا حين أطلت من النافذة وظنت أنها ستبلغه إن سارت الشارع فحسب. ورغم أنها مشت على امتداد الشارع، فلم تقترب منه، بل سرعان ما غاب عن ناظرها، فانعطفت إلى شارع آخر، ومشت ومشت لكنها لم تعثر على أي برج. لقد مرت

بأناس كثيرين، غير أنهم بدوا في عجلة من أمرهم وظنت هايدي أن لا وقت عندهم ليخبروها أي طريق تسلك. ثم رأت على حين غرة في ناصية أحد الشوارع صبيًا يقف حاملًا أرغنًا على ظهره وحيوانًا طريف المظهر على ذراعه، فتقدمت هايدي إليه وسألته «أين البرج ذو الكرة الذهبية أعلاه؟».

«لست أدري»، كان جوابه.

«أسأل من فيدلني؟»، سألت ثانية.

«لست أدري».

«أتعرف أي كنيسة أخرى لها برج عالٍ؟».

«أجل أعرف واحدة».

«تعال ودلني إذن».

«أريني ما ستعطيني إياه أولًا»، ومد الصبي يده وهو يتحدث. بحثت هايدي في جيوبها ثم أخرجت أخيرًا بطاقة مرسومًا عليها إكليل من الورود الحمراء الجميلة، فنظرت إليها في البدء للحظة أو اثنتين، لأنها شعرت بالأسف للتخلي عنها. إذ صنعتها لها كلارا هدية هذا الصباح، ولكنها عندئذ ستطل على الوادي وترى كل المنحدرات الخضراء الجميلة! «إليك»، قالت هايدي وهي تمد البطاقة، «هل تود الحصول على هذه؟». سحب الصبي يده وهز رأسه نفيًا.

«فما الذي ترغبه إذن؟»، سألت هايدي دون أن تحزن لعودة البطاقة إلى جيبها.

«النقود».

«ليس لدي، لكن كلارا لديها، وأنا متأكدة أنها ستعطيني بعضًا، كم تريد؟».

«بنسين».

«هلم إذن».

وانطلقا معًا على طول الدرب، وسألت هايدي رفيقها في الطريق عما يحمله على ظهره، فقال له أنه أرغن يدوي يعزف موسيقى جميلة حين يحرك مقبضه. وسرعان ما وجدا نفسيهما أمام كنيسة قديمة لها برج عال، فوقف الصبي وقال «ها هي».

«ولكن كيف أدخلها؟»، سألت هايدي وهي تنظر إلى الأبواب الموصدة.

«لست أدري»، كان الجواب.

«هل تظنني أستطيع قرع الجرس كما يفعلون لنداء سيباستيان؟».

«لست أدري».

رأت هايدي حينئذ جرسًا على الحائط سحبته بكل قوتها. «عليك البقاء هنا إن صعدت للأعلى لأنني لا أعرف طريق العودة، وعليك أن تدلني».

«وماذا ستعطيني مقابل ذلك؟».

«ماذا تريد؟».

«پنسين آخرين».

فسمعا صوت المفتاح من الداخل، وفتح أحدهم الباب الثقيل الصارّ، وخرج رجل عجوز ونظر بدهشة ثم في غضب إلى الطفلين، وأخذ يوبخهما «ماذا تقصدان بقرع الجرس هكذا؟ ألا يمكنكما قراءة المكتوب على الجرس «للراغبين في صعود البرج»».

لم ينطق الصبي بحرف لكنه أشار بإصبعه إلى هايدي، التي أجابت «لكني أود الصعود إلى البرج».

«وماذا تريدين من الصعود؟»، قال الرجل العجوز، «هل أرسلك أحد ما؟».

«كلا»، أجابت هايدي، «أردت الصعود حتى أطل على الأسفل فحسب».

«عودي إلى البيت ولا تجربي هذه الخدعة معي ثانية، وإلا لن تلقي طيبًا في المرة التالية»، واستدار بعد قوله هذا وأوشك على إغلاق الباب، لكن هايدي أمسكت بمعطفه وقالت متضرعة «دعني أصعد لمرة واحدة فقط».

فنظر حوله وقد تغير مزاجه عندما رأى عينيها المتوسلتين، وأمسك بيدها وقال بلطف «حسن، إن كنت تريدين الذهاب بهذا القدر فسآخذك».

جلس الصبي على عتبات الكنيسة ليظهر رضاه بالانتظار حيث كان.

صعدت هايدي يدًا بيد مع الرجل العجوز الدرجات الكثيرة للبرج، وقد أخذت تصغر وتصغر كلما اقتربا من القمة، وآخر واحدة كانت ضيقة وهي نهاية صعودهما. رفع الرجل العجوز هايدي حتى تطل من النافذة المفتوحة.

«هيا، يمكنك النظر للأسفل الآن»، قال.

رأت هايدي تحتها بحرًا من السطوح والبروج والمداخن، وسحبت رأسها سريعًا قائلة بصوت حزين خائب الأمل «ليس هذا ما تخيلته أبدًا».

«ها أنت ترين أن طفلة مثلك لا تفقه شيئًا عن المناظر! هلمي للنزول ولا تقرعي الجرس ثانية».

فأنزلها وتقدمها نازلًا الدرج الضيق. وعلى يسار المنعطف حيث صار المكان أوسع يقع باب غرفة حارس البرج، وامتد قربه منبسط الدرج حتى حافة السطح المائل المنحدر. وفي الطرف الآخر منه سلة كبيرة جلست أمامها قطة رمادية كبيرة وكشرت حين رأتهما، لأنها أرادت تحذير المارة من العبث مع صغارها. وقفت هايدي ونظرت إليها متعجبة، لأنها لم تر قطة متوحشة كهذه من قبل، ورأت جحافل من الفئران في البرج القديم، ولم تجد القطة مشقة في القبض على ست منها لغدائها كل يوم. حين رأى الرجل العجوز دهشة هايدي وإعجابها قال «لن تؤذيك في وجودي، تعالي يمكنك النظر إلى الهريرات».

تقدمت هايدي إلى السلة وقالت بصوت تملؤه السعادة:

«أوه! يا لجمال الصغيرات! الهريرات الحلوات»، وظلت تردد ذلك وهي تقفز من جانب لآخر من السلة كأنها لا تود أن تفوّت أيًا من القفزات المضحكة للهريرات الصغيرة السبع أو الثماني التي تخرمش وتلتف على بعضها بعضًا.

«هل تودين الحصول على واحدة؟»، قال الرجل العجوز الذي سر برؤية سعادة الطفلة.

«لأحتفظ بها لنفسي؟»، قالت هايدي بحماس ولم تصدق أن سعادة كهذه من نصيبها.

«أجل طبعًا، أكثر من واحدة إن أردت، بل يمكنك أخذ كل المجموعة إن كان لديكم مكان لها»، فقد سرّ الرجل العجوز لأن بوسعه التخلص من الهريرات دون مشقة.

لم تتمالك هايدي نفسها من السعادة، وسيكون في البيت الكبير متسعٌ للهريرات، وكم ستكون دهشة كلارا وفرحتها عظيمتين حين ترى الهريرات الصغيرة الحلوة.

«ولكن كيف لي أن آخذها معي؟»، سألت هايدي وحاولت مسرعة أن تعرف كم واحدة بمقدورها أن تحمل في يديها، حين وثبت القطة الكبيرة عليها بضراوة جعلتها تتراجع خوفًا.

«سأجلبها لك إن أخبرتني أين تسكنين»، قال الرجل العجوز ممسدًا على القطة لتهدئتها، فهي صديقة قديمة له عاشت معه في هذا البرج لسنوات عدة.

«إلى بيت السيد زيزمن، المنزل الكبير الذي على بابه كلب ذهبي في فمه حلقة»، أجابت هايدي.

لم تكن هذه التعليمات ضرورية حقًا للرجل العجوز، الذي تولى شأن البرج لسنوات طوال ويعرف كل منزل قاصٍ ودانٍ، إلى جانب أن سيباستيان أحد أصدقائه.

«أعرف البيت، ولكن متى علي جلبها وعمن أسأل؟ فأنا متأكد أنك لست من العائلة؟»، قال لها.

«كلا، لكن كلارا ستكون سعيدة حين آخذ لها الهريرات».

أراد الرجل العجوز نزول الدرج، لكن هايدي لم تدرِ كيف تبعد نفسها عن هذا المنظر الممتع.

«لو أن بوسعي أخذ واحدة أو اثنتين معي! واحدة لي وأخرى لكلارا، هل يمكنني؟».

«حسن، انتظري لحظة»، قال الرجل مبعدًا القطة الكبيرة إلى غرفته، واضعًا أمامها إناء الطعام ثم خرج وأغلق الباب، «خذي اثنتين منها الآن».

لمعت عينا هايدي فرحًا، وانتقت هريرة بيضاء وأخرى مخططة بالأبيض والأصفر، ووضعت واحدة في الجيب الأيمن والأخرى في الأيسر، ثم نزلت الدرج. لم يزل الصبي جالسًا في الخارج على العتبات، وحين أغلق الرجل باب الكنيسة قالت «أي طريق نسلك لنذهب إلى بيت السيد زيزمن؟».

فأجابها: «لست أدري».

بدأت هايدي تصف الباب الأمامي والعتبات والنوافذ، لكن الصبي اكتفى بهز رأسه ولم يفهم شيئًا.

«حسن، اسمعني»، واصلت هايدي، «يمكنك أن ترى من إحدى النوافذ منزلًا رماديًا كبيرًا جدًا جدًا، وسطحه يبدو هكذا...»، ورسمت هايدي بسبابتها خطًا مائلًا في الهواء. عندئذ وثب الصبي، ومن الواضح أنه يمشي مهتديًا بمعالم بمماثلة. فانطلق من فوره تتبعه هايدي، وفي وقت قصير وصلا الباب ذي المقرعة التي لها رأس كلب كبير. قرعت هايدي الجرس، وفتحه سيباستيان مسرعًا، وحين رأى أنها هايدي صاح بصوت عجول: «أسرعي! أسرعي!».

دخلت هايدي بسرعة إلى الداخل وأغلق سيباستيان الباب خلفها، تاركًا الصبي، الذي لم يلحظه، واقفًا على العتبات في ذهول.

«أسرعي يا آنستي الصغيرة، واذهبي من فورك إلى غرفة الطعام، فقد جلستا إلى المائدة، وتبدو الآنسة روتنماير مثل مدفع ملقم. ما الذي جعل الآنسة الصغيرة تهرب هكذا؟».

دخلت هايدي إلى الغرفة، وكانت السيدة مدبرة المنزل تجلس صامتة صمت استياء. دفع سيباستيان الكرسي لها، وحين جلست خاطبتها الآنسة روتنماير بتجهم وبوقار وعبوس: «سأتحدث إليك فيما بعد يا أديليد، وسأكتفي الآن بالقول إنك تصرفت بقلة تهذيب شديدة تستحق التوبيخ بهربك من المنزل كما فعلت، دون أخذ الأذن، ودون علم أحد شيئًا عن ذلك، ثم بذهابك

وتجوالك حتى هذه الساعة. لم يسبق لي أن سمعت بسلوك كهذا من قبل».

«مياو!»، كان الجواب.

وكان هذا يفوق طاقة السيدة على الاحتمال، فقالت بصوت عالٍ: «أتجرؤين أن تجيبيني كأن الأمر مزحة بعد كل ما فعلته يا أديليد؟».

«لم أفعل...»، قالت هايدي، «مياو! مياو!».

كاد سيباستيان أن يوقع طبقه واندفع خارجًا من الغرفة بسرعة.

«هذا يكفي»، حاولت الآنسة روتنماير أن تقول، لكن صوتها كتم من الغيظ، «انهضي وغادري الغرفة».

نهضت هايدي مذعورة، وحاولت أن تشرح مرة أخرى، «أنا حقًا لم أفعل...». «مياو! مياو! مياو!».

فتدخلت كلارا: «ولكن يا هايدي، لماذا ترددين قول مياو إن كنت ترين أن هذا يغضب الآنسة روتنماير؟».

فسنحت الفرصة لهايدي أخيرًا لتقول: «إنها ليست أنا، إنها الهريرات».

«ماذا؟! أي هريرات؟!»، زعقت الآنسة روتنماير، «سيباستيان! تنته! اعثرا على الأشياء الصغيرة المخيفة! وأبعداها!»، ثم نهضت وفرت هاربة إلى المكتبة وأقفلت الباب، كأنما لتتأكد أنها بمأمن من الهريرات، التي كانت أكثر الأشياء رعبًا في الكون عندها.

اضطر سيباستيان أن يبقى خارجًا لبضع دقائق ليكتم ضحكته قبل أن يدخل إلى الغرفة ثانية. لقد رأى حين قدم الطبق لهايدي، رأس هرة صغيرة يخرج من جيبها، واستمتع كثيرًا بالمواءات الأولى فقد عرف أي مشهد سيلي ذلك، ففرغ من تقديم الأطباق بصعوبة. توقفت صرخات السيدة الحانقة طلبًا للمساعدة قبل أن يستعيد رباطة جأشه ويعود إلى غرفة الطعام. وقد عم الهدوء والسلام، ووضعت كلارا الهرتين على حجرها، وجثت هايدي قربها، وكلتاهما تضحكان وتلعبان مع الهرتين الصغيرتين الجميلتين.

«عليك أن تساعدنا يا سيباستيان؛ عليك أن تجد سريرًا للهرتين حيث لا يمكن للآنسة روتنماير أن تعثر عليهما، لأنها تخاف منهما وستبعدهما فورًا. لكننا نريد الاحتفاظ بهما وإخراجهما كلما كنا وحدنا. أين يمكنك وضعهما؟»، قالت كلارا لسيباستيان وهو يدخل.

«سأهتم بذلك»، قال سيباستيان عن طيب خاطر، «سأعد فراشًا في سلة وأضعه في مكان لا تدخله السيدة عادة، اتركا الأمر لي». وشرع بالعمل حالًا، ضاحكًا ضحكة خافتة لوهلة، لأنه ظن أن مزيدًا من الجلبة حول هذا الأمر ستحدث يومًا ما، ولم يكن لشيء أن يبهج سيباستيان أكثر من تخيل الآنسة روتنماير حانقة قليلًا.

ولم تجرؤ الآنسة روتنماير على فتح الباب إلا بعد انقضاء بعض الوقت واقتراب موعد الخلود للفراش، ونادت من فرجته: «هل أبعدت تلك الحيوانات الصغيرة المخيفة يا سيباستيان؟».

فأكد لها مرتين أنه فعل، وأخذ يتجول في الغرفة في انتظار هذا

السؤال، ثم التقط الهرتين بسرعة وهدوء من حجر كلارا واختفى معهما.

تأجلت الموعظة والتوبيخ التي احتفظت الآنسة روتنماير بهما من أجل هايدي حتى اليوم التالي، فقد شعرت بالإنهاك بعد كل الانفعالات التي خبرتها من حنق وغضب وخوف، وكانت هايدي سببًا لها دون وعي منها. فذهبت دون أن تتحدث، وتبعتها هايدي وكلارا سعيدتين في سرائرهما لمعرفة أن الهرتين تستلقيان في فراش مريح.

الفصل الثامن
فوضى عارمة في المنزل الكبير

أدخل سيباستيان المعلم إلى المكتبة في الصباح التالي، وحين سمع قرعًا عاليًا على الجرس، جرى إليه سيباستيان مسرعًا لإجابته، قائلًا لنفسه: «وحده السيد زيزمن من يقرع الجرس على هذا النحو. لا بد أنه عاد عودة مفاجئة». وفتح الباب، ورأى أمامه صبيًا صغيرًا أشعث يحمل أرغنًا على ظهره. قال سيباستيان غاضبًا: «ما معنى هذا؟ سألقنك درسًا لقرعك الأجراس هكذا! ما الذي تفعله هنا؟».

«أريد رؤية كلارا»، أجاب الصبي.

«أيها المحتال القذر عديم الجدوى، أليس بوسعك أن تكون مهذبًا لتقول الآنسة كلارا؟ ما الذي تريده منها؟» تابع سيباستيان بفظاظة.

«إنها مدينة لي بأربعة بنسات»، قال الصبي.

«لا بد أنك جننت! ومن أين لك أن تعرف أن فتاة بهذا الاسم تعيش هنا؟».

«إنها مدينة لي بپنسين لأنني دللتها على الطريق هناك، وآخرين لأنني دللتها على طريق العودة».

«يا لها من أكاذيب هذه التي تقولها! إن السيدة الصغيرة لا تخرج أبدًا، ولا يمكنها السير، فانصرف وعد من حيث أتيت، قبل أن أضطر لإبعادك بنفسي».

لكن الصبي لم يخف وظل واقفًا وقال في صوت عازم «لكنني أريتها الدرب، ويمكنني وصفها لك؛ إنها قصيرة لها شعر أسود أجعد وعينان سوداوان وترتدي ثوبًا بنيًا، ولا تتحدث مثلنا».

«أوهوا»، قال سيباستيان وهو يضحك في سره، «من الواضح أن الآنسة الصغيرة قد أحدثت المزيد من الإزعاج». ثم قال بعد أن جذب الصبي للداخل: «فهمت الآن، تعال معي وانتظرني قرب الباب حتى أقول لك أن تدخل، واحرص على أن تبدأ العزف على أرغنك في اللحظة التي تدخل بها الغرفة، فالسيدة مولعة بالموسيقى».

قرع سيباستيان باب المكتبة، وقال صوت «ادخل».

«ثمة صبي في الخارج يقول إنه يود الحديث إلى الآنسة كلارا بنفسها»، قال سيباستيان.

سرت كلارا لمقاطعة غريبة ومفاجئة كهذه.

«دعه يدخل حالًا»، أجابت كلارا، «لا بد أن يدخل، أليس كذلك؟»، أضافت وهي تلتفت نحو معلمها «إن أراد رؤيتي بالتحديد؟».

دخل الصبي الغرفة، وبدأ من فوره العزف على أرغنه وفقًا لتعليمات سيباستيان. عادت الآنسة روتنماير إلى عملها في غرفة الطعام، رغبة في الهرب من الأبجدية، ثم كفت عن العمل وأصغت. هل تأتي هذه الأصوات من الشارع؟ لكنها تبدو قريبة جدًا! كيف لأرغن أن يُعزف في المكتبة؟ لكنه يعزف على أية حال. فاندفعت إلى الطرف الآخر من غرفة الطعام الكبيرة وفتحت الباب، ولم تصدق ما رأته عيناها. ففي وسط المكتبة وقف صبي أشعث منصرفًا إلى أرغنه على نحو بالغ الحماسة. بدا المعلم يجاهد ليتحدث، لكن صوته لم يكن ليسمع، فكلتا الطفلتين استمعتا إلى الموسيقى بفرح.

«غادر! غادر حالًا!»، صرخت الآنسة روتنماير، لكن صوتها اختفى في الموسيقى. تقدمت نحو الصبي حين رأت شيئًا على الأرض يزحف نحو قدميها، شيئًا مخيفًا أسود، إنها سلحفاة. فقفزت لدى رؤية ذلك قفزة أعلى من أي قفزة قامت بها قبل سنوات طويلة، زاعقة بكل قواها «سيباستيان! سيباستيان!».

توقف عازف الأرغن فجأة، لأن صوتها علا فوق الموسيقى هذه المرة. كان سيباستيان يقف خارجًا منحنيًا من الضحك، لأنه كان يختلس النظر ليرى ما يحدث، وحين دخل الغرفة رأى الآنسة روتنماير تغوص في الكرسي.

«خذهما للخارج، الصبي والحيوان! أبعدهما حالًا!»، أمرته.

جذب سباستيان الصبي بعيدًا، وقد جذب الأخير السلحفاة بسرعة، وحين أخرجه وضع شيئًا في يده «هذه البنسات الأربعة من

الآنسة كلارا، وأربعة بنسات أخرى لعزفك الموسيقى. لقد فعلت الأمر جيدًا!»، وبهذا أغلق الباب الأمامي خلفه.

ساد الهدوءُ المكتبةَ ثانية، واستؤنفت الدروس مرة أخرى، وأخذت الآنسة روتنماير موقعها في المكتبة لتمنع بحضورها أي أحداث رهيبة أخرى.

ولكن سرعان ما قرع الباب، ودخل سيباستيان ثانية ليقول هذه المرة إن أحدًا ما جلب سلة كبيرة مع الأمر بأن تقدم حالًا للآنسة كلارا.

«لي؟»، قالت كلارا في عجب، وقد ثار فضولها كثيرًا «اجلبها حالًا حتى أرى ما هي».

حمل سيباستيان سلة كبيرة مغطاة وخرج.

«أظن أن من الأفضل إنهاء الدروس قبل أن تفتح السلة»، قالت الآنسة روتنماير.

لم تستطع كلارا تخمين ما فيها، ونظرت إليها نظرات شوق. وفي منتصف تصريف الأسماء توقفت فجأة وقالت للمعلم: «لمَ لا ألقي نظرة واحدة داخلها لأرى ما فيها قبل أن أكمل؟».

وبدأ يجيبها قائلًا: «أوافق على هذا من جانب، وأعارضه من جانب آخر. أوافق لأن كامل انتباهك منصرف إلى السلة...»، غير أنه لم ينه حديثه. كان غطاء السلة مفتوحًا وفي هذه اللحظة خرجت واحدة، اثنتان، ثلاثة، ثم اثنتان أخريان، ثم مزيد من الهررة فجأة

تتشقلب على الأرض وتجري في الغرفة في كل اتجاه، وبسرعة لا توصف جعلت الغرفة تمتلئ بها. لقد قفزت فوق حذاء المعلم، وعضت سرواله وتسلقت ثوب الآنسة روتنماير، وتدحرجت قرب قدميها، وقفزت إلى مقعد كلارا، تخرمش وتخدش وتموء؛ وكان مشهدًا حزينًا من الفوضى. ظلت كلارا تردد وهي مسرورة بوثباتها: «أوه! يا للأشياء الصغيرة الجميلة! كم هي جميلة! انظري إلى هذه يا هايدي، انظري انظري إلى تلك هناك!». وظلت هايدي من بهجتها تركض خلفها من زاوية إلى أخرى. وقف المعلم قرب الطاولة لا يدري ما يفعل، رافعًا قدمه اليمنى ثم قدمه اليسرى ليبعدها عن الهررة المخرمشة الخادشة. لم تستطع الآنسة روتنماير أن تتحدث مطلقًا بادئ الأمر، فقد غلب عليها الخوف، ولم تجرؤ على النهوض من كرسيها خوفًا من أن تقفز عليها تلك الحيوانات الصغيرة المخيفة. ثم تمالكت نفسها وقالت أخيرًا بصوت عالٍ: «تنته! تنته! سيباستيان! سيباستيان!».

فجاءا تلبية لنداءاتها ولجمع الهريرات، وتمكنا شيئًا فشيئًا من إدخالها كلها في السلة ثانية ثم حملاها، لوضعها مع الاثنتين الأخريين.

لم يكن ثمة وقت للتثاؤب اليوم أيضًا. في وقت متأخر من ذلك المساء، حين تعافت الآنسة روتنماير بعض الشيء من إثارة الصباح، أرسلت في طلب الخادمين، واستجوبتهما بدقة حول أحداث هذا الصباح. فتبين أن هايدي سبب الأحداث، وأن كل شيء نجم عن

نزهتها في اليوم الماضي. جلست الآنسة روتنماير شاحبة حانقة، ولم تدر كيف تعبر عن غضبها في بادئ الأمر. ثم أشارت إلى تنته وسيباستيان أن ينصرفا، واستدارت نحو هايدي التي وقفت قرب كرسي كلارا، هادئة وعاجزة عن إدراك الإثم الذي اقترفته، وقالت لها بصوت قاس: «لا أعرف إلا عقابًا واحدًا يمكنه أن يقوّم سلوكك السيء يا أديليد، لأنك لست إلا همجية صغيرة، ولكننا نرى أن نروضك حتى لا تقترفي أفعالًا كهذه ثانية، وسنضعك في قبو مظلم مع الجرذان والخنافس السوداء».

أصغت هايدي في صمت ودهشة من جملتها، لأنها لم تر قبوًا كالذي وصف توًا. فالمكان الذي يعد قبوًا في منزل جدها هو حيث تصنع الجبنة الطازجة ويحفظ الحليب الطازج، وكان مكانًا لطيفًا وجميلًا، ولم تعرف قط شكل الجرذان والخنافس السوداء.

لكن كلارا تدخلت في استياء واضح: «كلا، كلا يا آنسة روتنماير، عليك أن تنتظري حتى يأتي بابا، فقد كتب قائلًا إنه سيعود قريبًا، وسأخبره بكل شيء حينئذ، وسيقول ما يجب فعله مع هايدي».

لم تتمكن الآنسة روتنماير من فعل شيء ضد السلطة العليا، وبخاصة أن عودة الأب قريبة جدًا. فنهضت وقالت في شيء من الحنق: «كما تشائين يا كلارا، لكنني أنا أيضًا لدي ما أقوله للسيد زيزمن»، وغادرت الغرفة.

مضى يومان آخران دون إزعاج. ولم تتمكن الآنسة روتنماير من استعادة رباطة جأشها على أية حال، فقد ذكّرها وجود هايدي على

الدوام بالخديعة التي تعرضت لها، وتبين لها أن الأمور في البيت انقلبت رأسًا على عقب منذ قدوم الطفلة، ولم تتمكن من وضع الأمور في نصابها ثانية. لقد غدت كلارا أكثر بهجة، ولم تعد ترى الوقت يمر ثقيلًا أثناء ساعات الدرس، لأن هايدي كانت على الدوام مصدر إلهاء بشكل أو بآخر. إذ تخلط بين الحروف وبدت عاجزة تمامًا عن تعلمها، وحين حاول المعلم جذب انتباهها إلى أشكالها المختلفة، وأن يساعدها في أن يريها أن هذا يشبه قرنًا صغيرًا، أو أن ذلك يشبه منقار طائر، قالت بمرح: «هذه ماعز!»، «هذا طائر جارح!»، لأن وصف المعلم أوحى لعقلها بشتى صنوف الصور، ومع ذلك ظلت جاهلة بالأبجدية. في أوقات ما بعد الظهيرة كانت هايدي تجلس مع كلارا، فتصف لها وصفًا مفصلًا الجبل وحياتها هناك، ويغلبها الشوق الحارق للعودة فتنهي حديثها بقولها: «علي الذهاب إلى البيت! لا بد أن أذهب غدًا!». فتحاول كلارا تهدئتها، وتقول لها إن عليها الانتظار حتى عودة أبيها، وتريان ما الذي سيحدث عندئذ. وإن أذعنت هايدي وبدا أنها استعادت مرحها ثانية، فذلك بفضل البهجة السرية التي تشعر بها حين تتذكر أنها تضيف كل يوم لفافتين بيضاوين إلى الأُخَر التي تجمعها للجدة، لأنها دائمًا ما تضع في جيبها اللفافة الموضوعة قرب طبقها على الغداء والعشاء، وهي تشعر أنها لا تطيق أكلها، عالمة أن الجدة ليس لديها خبز أبيض، ويصعب عليها تناول الخبز الأسود اليابس. كان على هايدي أن تجلس وحيدة في غرفتها لعدد من الساعات بعد الغداء، لأنها أدركت أنها لا يتوجب عليها التجول في أنحاء فرانكفورت كما

تفعل في الجبل، ولذا لم تحاول ذلك. كما أن أي حديث مع سيباستيان في غرفة الطعام ممنوع عليها، أما بالنسبة لتنته فقد تحاشتها ولم تفكر بالتحدث إليها. لأن هايدي أدركت أن الخادمة تنظر إليها بازدراء وتتحدث إليها دائمًا بنبرة ساخرة. فصار لدى هايدي متسع من الوقت يومًا بعد يوم لتجلس وتتخيل كيف يخضر كل شيء في الديار، وكيف تتلألأ الزهور تحت الشمس، وكيف يشع كل شيء تحت ضوء الشمس الدافئ، من الثلج والصخور، والوادي الواسع بأسره. ولا تستطيع هايدي أحيانًا أن تتمالك نفسها من الشوق لتعود إلى البيت ثانية. وقد أخبرتها ديته أن بوسعها العودة متى شاءت. فجاء يوم شعرت فيه هايدي أنها لم تعد تحتمل ذلك أكثر، فربطت كل اللفافات بشالها الأحمر، واعتمرت قبعتها القش ونزلت الدرج. وما إن وصلت باب الردهة حتى التقت الآنسة روتنماير، وقد عادت لتوها من نزهة، وهذا ما أوقف رحلة هايدي.

وقفت الآنسة روتنماير للحظة، وهي تتفحصها من رأسها حتى أخمص قدميها في دهشة واضحة، وقد ثبتت عينيها على الحزمة الحمراء تحديدًا، ثم قالت: «لم ترتدين هذه الثياب؟ ما الذي تقصدينه بهذا؟ ألم أمنعك بشدة من التجوال في الشوارع؟ وها أنت متأهبة للانطلاق ثانية، وتنوين الخروج وأنت تبدين بهيئة متسولة».

«لم أكن ذاهبة للتجوال، كنت عائدة إلى الديار»، قالت هايدي مذعورة.

«ما الذي تتحدثين عنه؟! العودة إلى الديار؟! هل تريدين العودة

إلى الديار؟!» سألت الآنسة روتنماير وقد تزايد غضبها، «وتهربين هكذا! ماذا سيقول السيد زيزمن إن عرف؟! احرصي على ألا يسمع بهذا أبدًا! وأود أن أعرف ما خطب هذا البيت؟! ألم تعاملي معاملة أحسن مما تستحقين؟ هل احتجت شيئًا؟ هل سبق لك في حياتك أن حظيت ببيت كهذا تسكنين فيه، وبمائدة كهذه، والكثير مما ينتظرك؟ هل فعلت؟».

«كلا»، أجابت هايدي.

«أرى ذلك فعلًا!»، تابعت السيدة الساخطة، «يمكنك أن تحصلي على ما تريدين ببساطة هنا، ولكنك صغيرة جاحدة، ذلك أنك مرتاحة وثرية للغاية فلا شيء لديك لفعله سوى التفكير بالأمر الشرير الذي تفعلينه تاليًا!».

فهاجت مشاعر هايدي، وأبدت حزنها: «في الحقيقة لم أرد شيئًا سوى العودة للديار، لأنني إن قضيت وقتًا طويلًا بعيدًا ستأخذ سنوفليك بالبكاء ثانية، والجدة تنتظرني، وستتعرض غرينفلنتش للضرب لأنني لست هناك لأعطي بيتر الجبن، ولن أتمكن من رؤية الشمس وهي تقول ليلة طيبة للجبال، وإن حلق الطائر الكبير فوق فرانكفورت فسينعق أعلى من المعتاد على الناس الذين يتجمعون ويعلمون بعضهم بعضًا أفعالًا سيئة، ولن يعيش فوق الصخور عاليًا وهي المكان الأفضل».

«لترحمنا السماء، لقد فقدت الطفلة صوابها!»، صاحت الآنسة روتنماير واستدارت مذعورة وصعدت الدرج بسرعة، مصطدمة في

طريقها بسيباستيان بقوة، «اذهب واجلب تلك المخلوقة الصغيرة التعسة في الحال»، أمرته وهي تضع يدها على جبينها الذي ارتطم بجبينه.

فعل سيباستيان ما قيل له، فاركًا رأسه وهو يمشي، لأنه تلقى ضربة أقوى.

لم تتحرك هايدي، ووقفت وعيناها متقدتان وتتحركان في كل الاتجاهات في اضطراب داخلي.

«ماذا، هل تورطت في المتاعب ثانية؟»، قال سيباستيان بصوت مرح، ولكنه حين نظر إلى هايدي عن كثب ورأى أنها لم تتحرك، وضع يده على كتفها وقال محاولًا تهدئتها، «حسن، حسن، لا تأخذي الأمر على محمل الجد، حافظي على مرحك، هذا هو الأمر العظيم! لقد أحدثتْ ثقبًا في رأسي، ولكن لا تجعليها تتنمر عليك»، ثم قال حين رأى أن هايدي لم تتحرك «علينا الذهاب، فقد أمرتني أن أدخلك».

بدأت هايدي تصعد الدرج، ولكن بخطوات بطيئة واهنة على عكس طبعها المعتاد. أحس سيباستيان بالحزن وهو يراها، وحاول أن يشد من أزرها وهو يتبعها صعودًا: «لا تستلمي! لا تسمحي لها أن تحزنك! حافظي على شجاعتك! لقد حظينا بآنسة صغيرة حساسة لم تبكِ مرة منذ قدومها إلينا، والكثيرون في عمرها يبكون عدة مرات في اليوم. إن الهررة تحب بيتها كثيرًا، إنها تتقافز في أرجاء المكان وتتصرف كأنها أشياء صغيرة مجنونة. سنصعد إلى الأعلى ونراها لاحقًا، حين تخلّي الآنسة سبيلنا، أليس كذلك؟».

هزت هايدي رأسها هزة صغيرة موافقة، ولكن على نحو يفتقر للبهجة مس قلب سيباستيان، فتبعها بعينين عطوفين وهي تذهب إلى غرفتها.

لم تتحدث الآنسة روتنماير على مائدة العشاء ذلك المساء، لكنها ألقت نظرات مراقبة نحو هايدي كأنها تتوقع أن تثور بطريقة غريبة، لكن هايدي جلست دون حراك ولم تطعم شيئًا، وكل ما فعلته أن دست لفافتها في جيبها بسرعة.

حين جاء المعلم في الصباح التالي، أخذته الآنسة روتنماير جانبًا، وأفضت له بمخاوفها بأن تغير الهواء ونمط المعيشة والبيئة الجديدة قد أفقدت هايدي صوابها، ثم أخبرته بحادثة اليوم الماضي، وعن حديث هايدي الغريب. لكن المعلم أكد لها أن لا داعي لقلقها، فقد أدرك أن الطفلة غريبة الأطوار بعض الشيء، لكنها لم تجنّ وأنه متأكد أنها ستستعيد توازنها بالمعاملة الحسنة والتعليم، وأن هذا ما يسعى إليه. وقد زادت قناعته بهذا بعدما سمع، وبأنه أخفق حتى الآن بتعليمها الأبجدية، وبدا أن هايدي عاجزة عن فهم الحروف.

ارتاحت الآنسة روتنماير ارتياحًا كبيرًا لسماع حديثه، وسمحت للمعلم أن ينصرف لعمله. عادت إلى السيدة بعد الظهيرة ذكرى مظهر هايدي اليوم الفائت وهي توشك على الانطلاق في رحلتها، وعزمت على أن تكمل ثياب الطفلة بأثواب مختلفة من خزانة كلارا، لتمنحها مظهرًا لائقًا حين يعود السيد زيزمن. وأفضت بنيتها لكلارا التي كانت مستعدة تمامًا لمنح عدد من الثياب والقبعات

لهايدي، فصعدت السيدة إلى الطابق العلوي لتتفحص مقتنيات الطفلة وترى ما الذي تبقيه وما الذي ترميه. غير أنها عادت في غضون دقائق قليلة يعلو وجهها تعبير ذعر.

«ما هذا الذي وجدته في صوان ثيابك يا أديليد؟»، قالت، «لم أسمع بأحد يفعل شيئًا كهذا من قبل! إنه صوان تحفظ فيه الثياب، فلماذا أرى في الأسفل كومة من اللفافات؟! هل تصدقين هذا يا كلارا، خبز في خزانة الثياب! كومة كبيرة من الخبز! تنته!»، ثم نادت تلك الشابة التي كانت في غرفة الطعام، «اصعدي وأخرجي كل اللفافات من صوان أديليد وقبعة القش على الطاولة».

«كلا، كلا. لا بد أن أبقي القبعة، واللفافات من أجل الجدة»، واندفعت لتوقف تنته حين أمسكت بها الآنسة روتنماير: «قفي هنا وسيؤخذ الخبز والنفايات إلى المكان التي تنتمي إليه»، قالت بصوت حازم مبقية يدها على الطفلة لتمنعها من التقدم للأمام.

ثم ألقت هايدي بنفسها على كرسي كلارا بيأس وانفجرت في نوبة بكاء صاخبة، وأخذ بكاؤها يعلو ويزداد حزنًا كل دقيقة، وظلت تنشج في الفترات الفاصلة: «لقد ذهب خبز الجدة كله! لقد كان كله من أجل الجدة، وقد أخذ بعيدًا ولن تحصل الجدة على واحدة»، وبكت كأنما قلبها انفطر. خرجت الآنسة روتنماير من الغرفة، وكانت كلارا مستاءة وقلقة لبكاء الطفلة فقالت متوسلة: «هايدي، هايدي، أرجوك ألا تبكي هكذا! أصغي إلي، لا تحزني، واسمعي أعدك أن تحصلي على العدد نفسه من اللفافات وأكثر

وكلها جديدة وطازجة لتأخذيها للجدة حين تعودين للبيت، لا بد أن لفافاتك قد أصبحت بائتة ويابسة الآن. تعالي يا هايدي، ولا تبكي بعد الآن!».

لم تستطع هايدي التغلب على نشيجها لوقت طويل، ولم تكن لتكف عن البكاء أبدًا لولا وعد كلارا الذي هدأها. ولكنها ظلت تسأل كلارا، لتتأكد أن بوسعها الاعتماد عليه، وقد بح صوتها من النشيج الذي أخذ يسكن شيئًا فشيئًا: «هل ستعطيني العدد نفسه، العدد نفسه الذي كان عندي من أجل الجدة؟»، وأكدت لها كلارا في كل مرة أنها ستعطيها القدر نفسه وأضافت: «أو أكثر. كوني سعيدة مرة أخرى فحسب».

ظهرت هايدي على مائدة العشاء وعيناها حمراوان من البكاء، وحين رأت لفافتها لم تستطع كبح نشيجها. لكنها جهدت لتتمالك نفسها، لأنها تعرف أن عليها الجلوس بهدوء إلى المائدة. وكلما تلاقت نظراتها بنظرات سيباستيان هذا المساء وجدته يصنع لها إشارات غريبة، مشيرة إلى رأسه ثم إلى رأسها، ومومئًا إيماءات كثيرة كأنما يقول: «لا تحزني! لقد حافظت عليها بأمان من أجلك».

حين خلدت هايدي إلى الفراش تلك الليلة وجدت قبعتها القش تحت اللحاف، فالتقطتها سعيدة، وقد أفسدت شكلها من فرط فرحها، وبعد أن عقدت منديلًا حولها، وضعتها في زاوية الصوان أبعد ما استطاعت.

لقد كان سيباستيان هو من خبأها هناك من أجلها، فقد كان

في غرفة الطعام حين استدعيت تنته وسمع كل ما جرى مع الطفلة وبكائها العالي. فلحق بتنته، وحين خرجت من غرفة هايدي حاملة لفافات الخبز والقبعة، أمسك بالقبعة وقال: «سأتولى أنا شأن هذا الشيء القديم». وقد شعر بالسعادة لأنه تمكن من حفظها لهايدي، وكان هذا معنى إشاراته المشجعة لها عند العشاء.

الفصل التاسع

السيد زيزمن يسمع بأمور جديدة عليه

بعد وقوع هذه الأحداث بأيام قليلة عم منزل السيد زيزمن اضطراب كبير وصعود على السلالم ونزول منها، فقد عاد السيد، وشغل سيباستيان وتنته بحمل الحزمة تلو الأخرى من العربة، لأن السيد زيزمن يجلب معه دومًا الكثير من الأشياء الجميلة لمنزله. أما هو فلم يفعل شيئًا قبل رؤية ابنته، وكانت هايدي تجلس قربها، إذ كان وقت الأصيل الذي تقضيه الاثنتان معًا دائمًا. تبادل الأب والابنة التحايا بحب دافئ، لأنهما مرتبطان ببعضهما بعضًا بقوة. ثم مد يده نحو هايدي التي تسللت نحو الركن وقال: «هذه فتاتنا السويسرية إذن، تعالي وصافحيني! جيد! والآن أخبريني هل أنت وكلارا صديقتان مقربتان، أم أنكما تغضبان وتتشاجران، ثم تبكيان وتتصالحان، ثم تبدأان شجارًا آخر في اللحظة التالية؟».

«كلا، إن كلارا طيبة معي دومًا»، أجابت هايدي.

«وهايدي لم تحاول مرة أن تتشاجر معي»، أضافت كلارا بسرعة.

«هذا جيد، إنني سعيد لسماع هذا»، قال أبوها ونهض من كرسيه، «ولكن أرجو أن تسمحي لي يا كلارا، لأني أود تناول غدائي، إذ إني لم آكل طوال النهار. ثم سأريك كل الأشياء التي جلبتها معي».

وجد الآنسة روتنماير في غرفة الطعام تشرف على إعداد وجبته، وحين أخذ موضعه جلست قبالته، وتبدو كمن يحمل أنباء سيئة، فالتفت نحوها وقال «ما الذي ينتظرني يا آنسة روتنماير؟ فقد جيبتني وعلى محياك سيماء أخافني حقًا. ما الأمر؟ تبدو كلارا سعيدة».

أخذت السيدة تتحدث بصوت وقور: «إنه أمر يتعلق بالآنسة كلارا يا سيد زيزمن، لقد خدعنا على نحو مريع».

«حقًا؟ وكيف ذلك؟»، سأل السيد زيزمن وهو يرشف نبيذه بهدوء.

«لقد قررنا، كما تتذكر، أن نجلب رفيقة لكلارا، وأذكر أنك كنت حريصًا جدًا على استقبال فتاة حسنة السلوك جيدة التنشئة في عمرها. ففكرت بالبحث عن فتاة سويسرية صغيرة، لأنني أملت أن أعثر على واحدة، كاللاتي أقرأ عنهن كثيرًا، ولدت في هواء الجبال وتعيش وتتحرك دون أن تمس الأرض».

«لكني أظن أن حتى الطفلة السويسرية تمس الأرض إن أرادت الذهاب إلى أي مكان، وإلا لكان لها جناحان عوضًا عن الأقدام»، عقب السيد زيزمن.

«آه، أنت تعرف ما أعنيه يا سيد زيزمن»، واصلت الآنسة

روتنهاير، «أقصد فتاة تعيش بين الكائنات الحية في أقاليم الجبال العالية النقية، فتبدو بيننا مثل كائن مثالي من عالم آخر».

«وماذا ستفعل كلارا بكائن مثالي كالذي وصفته يا آنسة روتنهاير؟».

«أنا لست أمزح يا سيد زيزمن، إن الأمر لأشد خطورة مما تتصور. لقد تعرضت للخديعة على نحو صادم مريع».

«ولكن كيف؟ ما الصادم والمريع؟ لست أرى شيئًا صادمًا في تلك الطفلة»، عقّب السيد زيزمن.

«لو عرفت بأمر واحد فحسب مما فعلته، ولو أنك عرفت بنمط الأشخاص والحيوانات التي جلبتها إلى المنزل أثناء غيابك! يمكن للمعلم أن يخبرك عن ذلك».

«حيوانات؟ ما الذي أفهمه من قولك حيوانات يا آنسة روتنهاير؟».

«إنه يفوق العقل، إن سلوك الطفلة كله يفوق العقل، كما أنها تبدو أحيانًا قد فقدت صوابها».

لم يلق السيد زيزمن بالًا لما قيل له إلا قليلًا حتى الآن، ولكن أن تفقد صوابها! كان هذا خطيرًا وقد يكون مجحفًا بحق ابنته. نظر السيد زيزمن مليًا إلى السيدة الجالسة مقابله ليتأكد أن الاضطراب العقلي لم يصبها هي. وفتح الباب في تلك اللحظة وأعلن عن قدوم المعلم.

قال السيد زيزمن: «آه! ها قد جاء أحد سيساعد في جلاء الأمر

لي، اجلس» وتابع وهو يمد يده نحو المعلم «ستشرب كوبًا من القهوة معي، سريعًا كما آمل! والآن أخبرني ما خطب هذه الطفلة التي جاءت لتكون رفيقة لابنتي؟ ما هذا الأمر الغريب الذي سمعته عن جلبها الحيوانات إلى البيت، وهل هي مجنونة؟».

شعر المعلم بضرورة أن يبدأ بالتعبير عن سعادته بعودة السيد زيزمن، وأنه قد جاء بقصد الترحيب به، لكن السيد زيزمن توسل إليه أن يشرح له دون تأخير معنى ما سمعه عن هايدي. بدأ المعلم بأسلوبه المعتاد: «إن كان علي إبداء رأيي حول هذه الفتاة الصغيرة، فأود أن أشير أولًا أنها يعوزها التقدم بسبب الطريقة المهملة التي أنشئت بها، أو لعله بسبب إهمال تعليمها في صغرها، وبسبب حياة العزلة التي عاشتها في الجبال، التي لا يمكن استهجانها كليًا. هذا من جهة، وفي المقابل لحياة كهذه بعض الميزات بلا شك، إن لم تتجاوز حدًا معينًا من الزمن...».

فقاطعه السيد زيزمن: «يا صديقي العزيز، إنك تكبد نفسك عناء لا حاجة له. أود أن أعرف إن كانت الطفلة قد سببت لك أي ذعر بسبب الحيوانات التي جلبتها إلى البيت، ورأيك إن كانت رفيقة مناسبة لابنتي أم لا؟».

«لا أود بأي حال من الأحوال أن أجعلك تتحامل عليها»، بدأ المعلم ثانية، «فهي قليلة الخبرة في حياة المجتمع بسبب الحياة غير المتحضرة التي عاشتها حتى وقت انتقالها إلى فرانكفورت، ومن جهة أخرى فإنها تتمتع بصفات جيدة، وبالمجمل...».

«اعذرني يا سيدي، لا تزعج نفسك، ولكن عليّ... أظن ابنتي تحتاجني»، وغادر السيد زيزمن الغرفة مسرعًا ولم يأبه بأمر العودة. بل جلس قرب ابنته في المكتبة، ثم التفت نحو هايدي التي نهضت: «أيتها الصغيرة هل لك أن تجلبي لي»، ثم صمت لأنه لم يستطع التفكير بما يطلب منها، لكنه أراد إخراج الطفلة من الغرفة لبعض الوقت، «أن تجلبي لي كأسًا من الماء؟».

«ماء نقيًا؟»، سألت هايدي.

«أجل، أجل، أنقى ما يمكنك الحصول عليه»، أجاب واختفت هايدي من فورها.

«والآن يا عزيزتي كلارا الصغيرة»، قال وهو يقرّب كرسيه أكثر ويضع يدها في يده، «أجيبي عن أسئلتي بوضوح وعلى نحو مفهوم؛ ما الحيوانات التي جلبتها رفيقتك الصغيرة إلى البيت، ولماذا تظن الآنسة روتنماير أنها تفقد صوابها أحيانًا؟».

لم تجد كلارا صعوبة في الإجابة، فقد تحدثت إليها السيدة الخائفة عن طريقة هايدي في الحديث، لكن كلارا لم تعجز عن فهمها. وأخبرت أباها بكل شيء عن السلحفاة والهريرات، وشرحت له ما قالته هايدي في اليوم الذي أصاب الذعر فيه الآنسة روتنماير. فضحك السيد زيزمن من قلبه لسردها. «فأنت لا تريدين مني أن أعيد الطفلة إلى بيتها ثانية؟ ألست ضجرة من وجودها هنا؟»، سأل.

«أوه، كلا، كلا»، قالت كلارا، «لا تعدها أرجوك. إن الوقت

يمر سريعًا منذ قدوم هايدي، لأن أمرًا جديدًا يحدث كل يوم، وقد كانت الأيام مملة، وهي لديها الكثير دومًا مما تخبرني به».

«هذا حسن... وها قد جاءت صديقتك الصغيرة. هل جلبت لي ماء نقيًا عذبًا؟»، سأل هايدي التي ناولته كأس الماء.

«أجل، نقي من المضخة»، أجابت هايدي.

«هل ذهبت بنفسك إلى المضخة؟»، قالت كلارا.

«أجل فعلت، إنه نقي تمامًا. كان علي أن أقطع طريقًا طويلًا، لأن المضخة الأولى تجمع حولها كثير من الناس، فسرت في الشارع أكثر، ووجدت حشدًا من الناس مثل الأول عند المضخة الثانية، لكني استطعت الحصول على قليل من الماء من الشارع المجاور، وطلب مني السيد ذو الشعر الأبيض أن أبلغ السيد زيزمن تحياته الحارة».

«لقد ذهبت في مهمة ناجحة»، قال السيد زيزمن ضاحكًا، «ومن هو السيد؟».

«لقد كان مارًا وحين رآني وقف وقال: «ما دمت تحملين كأسًا فستسمحين لي بالشرب، لمن تأخذين الماء؟» وعندما قلت للسيد زيزمن، ضحك كثيرًا وأبلغني أن أوصل هذه الرسالة إليك، وقال أيضًا إنه يأمل أن تهنأ بشرب الماء».

«إنني أتساءل من هو الذي أرسل لي أمنيات طيبة، أخبريني كيف يبدو»، قال السيد زيزمن.

«لقد كان طيبًا ويضحك، ولديه سلسلة ثخينة ذهبية يتدلى منها شيء ذهبي عليه حجر أحمر كبير، وأعلى عصاه رأس حصان».

«إنه الطبيب... الطبيب صديقي القديم»، قالت كلارا وأبوها في الوقت نفسه، وابتسم السيد زيزمن حين تصور ما سيكون رأي صديقه لهذه الطريقة الجديدة في إرواء ظمئه.

حين كان السيد زيزمن والآنسة روتنماير يجلسان وحدهما لنقاش أمور البيت، أبلغها أنه ينوي إبقاء هايدي. وقد وجد الطفلة سليمة العقل تمامًا، وأن ابنته تحب أن تكون رفيقتها، ثم واصل مشددًا على كلماته: «لذا أود أن تلقى الطفلة معاملة طيبة بكل الأشكال، وألا ينظر إلى طباعها على أنها جرائم. إن رأيت أنك لا تستطيعين التعامل معها وحدك، فبوسعي أن أبحث لك عن مساعدة، لأنني أتوقع أن تأتي أمي إلى هنا في زيارة طويلة قريبًا، وهي كما تعرفين، يمكنها أن تتعامل مع أي شخص أيًا يكن».

«أوه، أجل أعرف»، أجابت الآنسة روتنماير، غير أن صوتها لم يشِ بالراحة كما توقعت من المساعدة القادمة.

قضى السيد زيزمن في البيت وقتًا قصيرًا، وغادر إلى باريس قبل انقضاء الأسبوعين، مهدئًا كلارا التي لم تحتمل بعده عنها ثانية بهذه السرعة، وهي تتوقع وصول جدتها الذي سيكون في غضون أيام قلائل. والحقيقة أن السيد زيزمن لم يذهب إلا بعد أن وصلت رسالة من السيدة زيزمن تقول إنها ستصل اليوم التالي محددة الساعة التي يتوقع وصولها بها، بغية إرسال عربة لانتظارها

في المحطة. كانت كلارا شديدة البهجة، وتحدثت كثيرًا عن جدتها ذلك المساء، حتى أخذت هايدي تدعوها «الجدة»، ما جعل الآنسة روتنماير تنظر إليها نظرة استياء، لكن هذا لم يؤثر في هايدي، لأنها اعتادت أن تكون في السجلات السوداء لهذه السيدة. غير أن الآنسة روتنماير اعترضت طريقها تلك الليلة وهي ذاهبة إلى غرفتها، وأعطتها تعليمات صارمة لكيفية التحدث إلى السيدة زيزمن حين تصل، وليس لها أبدًا أن تدعوها «الجدة»، بل أن تقول لها «يا سيدتي» دومًا. «هل تفهمين؟»، قالت السيدة حين رأت ملامح الحيرة على وجه هايدي، فالأخيرة لم تفهم، لكنها لم تطلب مزيدًا من الشرح بعد أن رأت وجه السيدة المتجهم.

الفصل العاشر
جدة أخرى

عم البيت الكثير من الترقب والتحضير في المساء التالي، وتسهل معرفة أن السيدة القادمة امرأةٌ يقدر رأيها كثيرًا، والجميع يكن لها عميق الاحترام. اعتمرت تنته قبعة بيضاء جديدة، وجمع سيباستيان كل ما استطاع من مساند الأقدام ووضعها في أماكن مريحة، لتجد السيد أحدها جاهزًا لقدميها كلما أرادت الجلوس. ومضت الآنسة روتنماير تتفحص كل شيء بصرامة وحزم شديدين، كأنما لتظهر أن سلطتها لن تتراجع أمام السلطة المنافسة المنتظرة.

وجاءت العربة إلى الباب، ونزلت تنته وسيباستيان، تتبعهما السيدة بخطوات بطيئة وأكثر ثباتًا، وتقدمت لتحيي الضيفة. أرسلت هايدي إلى غرفتها وأمرت أن تبقى هناك حتى تستدعى، لأن الجدة ستود رؤية كلارا وحدها أولًا على الأغلب. جلست هايدي في زاوية ورددت التعليمات على نفسها. ولم تنتظر طويلًا حتى أقحمت تنته رأسها في الغرفة وقالت بسرعة: «انزلي إلى المكتبة».

لم تجرؤ هايدي على سؤال الآنسة روتنماير ثانية كيف تخاطب

الجدة، فقد ظنت أن السيدة قد أخطأت، لأنها لم تسمع بأحد نودي باسم غير اسمه. وحين فتحت باب المكتبة سمعت صوتًا لطيفًا يقول: «آه، ها قد جاءت الطفلة! ادخلي ودعيني أركِ جيدًا».

تقدمت هايدي نحوها وقالت بصوتها الصافي بوضوح: «مساء الخير»، ورغبة منها في اتباع التعليمات أكملت قائلة بما معناه: «أيتها السيدة سيدة».

«حسن!»، قالت الجدة ضاحكة، «هل تخاطبين الناس هكذا في ديارك في الجبل؟».

«كلا، لم أعرف أحدًا بهذا الاسم من قبل»، قالت هايدي بهدوء.

«ولا أنا»، ضحكت الجدة ثانية وهي تربّت على خد هايدي، «لا عليك! حين أكون مع الأطفال فأنا الجدة دومًا، لن تنسي هذا الاسم، أليس كذلك؟».

«كلا، كلا. لقد اعتدت قوله كثيرًا في الديار»، أكدت هايدي.

«أفهم ذلك»، قالت الجدة بإيماءة مرحة من رأسها. ثم نظرت عن كثب إلى هايدي، وهي تومئ بين الفينة والأخرى، وبادلتها الطفلة النظرات بعينين واثقتين جادتين، إذ كان في القادمة الجديدة شيء عطوف وحنون أسعد هايدي، وقد شدها كل ما له علاقة بالجدة، فلم تستطع إبعاد ناظريها. لقد كان لها شعر أبيض جميل، وتدلى شريطان طويلان من الدانتيلا من القبعة التي تعتمرها يلوحان بلطف قرب وجهها كلما تحركت، كأن نسيمًا رقيقًا يهب حولها، ما أشعر هايدي بالبهجة.

«وما اسمك أيتها الطفلة؟»، سألت الجدة.

«إنني أدعى هايدي دومًا، ولكنني الآن أدعى أديليد، وسأحاول وأحرص...»، وصمتت هايدي لأنها شعرت بالذنب لأنها لم تعتد هذا الاسم وظلت لا ترد حين تخاطبها به الآنسة روتنماير التي دخلت الغرفة في هذه اللحظة.

وقاطعتها قائلة: «ستوافقني السيدة زيزمن حتمًا على أن من الضروري اختيار اسم يمكن نطقه بسهولة، من أجل الخدم».

«عزيزتي روتنماير. لو دعي أحدهم باسم هايدي، فقد اعتاد هذا الاسم، وسأناديها به، وهذا ما سيكون»، أجابت السيدة زيزمن.

كانت الآنسة روتنماير تغتاظ بشدة دومًا لأن السيدة العجوز تناديها باسم عائلتها فقط، ولا فائدة من الإصلاح، لأن الجدة تتبع طريقتها فحسب، ولا يمكن تغيير ذلك. كما أن الجدة عجوز حاذقة، وحواسها الخمس حاضرة دومًا، وعرفت ما يجري في البيت منذ أن دخلته.

حين استلقت كلارا في اليوم التالي كالمعتاد على أريكتها بعد الغداء، جلست الجدة قربها للحظات قليلة وأغمضت عينيها، ثم نهضت نشيطة كالمعتاد، وخبّت نحو غرفة الطعام، ولم تجد فيها أحدًا. فقالت في نفسها: «أتوقع أنها نائمة»، ثم صعدت إلى غرفة الآنسة روتنماير وقرعت الباب عاليًا. انتظرت بضع لحظات ثم فتحت الآنسة روتنماير الباب وتراجعت دهشة لهذه الزيارة المفاجئة.

«أين الطفلة، وماذا تفعل كل هذا الوقت؟ هذا ما جئت لأسألك عنه»، قالت السيدة زيزمن.

«إنها تجلس في غرفتها، حيث يمكنها أن تشغل نفسها إن كان لديها أدنى فكرة عن إشغال نفسها بشيء نافع، ولكنك لا تعلمين يا سيدة زيزمن بالأشياء الغريبة التي تتخيلها هذه الطفلة وتفعلها، أشياء لا يمكنني تكرارها في مجتمع راقٍ».

«سأفعل الأمر نفسه إن حُبست مثل تلك الطفلة، وأقول لك، إنني أشك أنك ستحبين تكرار ما أفعله في مجتمع راقٍ! اذهبي واجلبي الطفلة وأحضريها إلى غرفتي، لدي بعض الكتب الجميلة التي أود إعطاءها لها».

«هذا من سوء الحظ»، قالت الآنسة روتنماير بإيماءة يائسة، «فما نفع الكتب لها؟ لقد عجزت عن تعلم الأبجدية بعد الوقت الطويل الذي أمضته هنا، ومن المستحيل تعليمها أيًا منها، وهذا ما سيقوله لك المعلم بنفسه، لولا أن له صبر الملائكة لكف عن تعليمها منذ وقت طويل».

«هذا غريب جدًا. فهي لا تبدو لي طفلة تعجز عن تعلم الأبجدية. اجلبيها لي على أية حال، إذ يمكنها أن تسلي نفسها برسومات الكتب».

تأهبت الآنسة روتنماير لتضيف مزيدًا من التعليقات، لكن الجدة استدارت وذهبت سريعًا نحو غرفتها. لقد فوجئت بما قيل لها عن عجز هايدي عن التعلم، وعزمت على أن تعرف عن هذا الأمر

أكثر، ليس عبر سؤال المعلم رغم أنها تقدره كثيرًا لنزاهته، وتحييه بود دومًا، لكنها تحاشت أن تدخل في حوار معه، لأنها وجدت طريقته في الكلام غريبة بعض الشيء.

ظهرت هايدي وحدقت بعينين واسعتين بهجة ودهشة من الرسوم الملونة في الكتب التي أعطتها لها الجدة لتنظر فيها. وفجأة صرخت الطفلة، حين قلبت الجدة إحدى الصفحات إلى صورة جميلة، ونظرت إليها بعينين مخضلتين، ثم انهمر الدمع، وأخذت تنشج. فنظرت الجدة إلى الصورة، التي جسدت مرعى أخضر يعج بالحيوانات الصغيرة، بعضها يلوك الشجيرات وبعضها الأخر يقضمها. وفي الوسط راعٍ يتكئ على متاعه وينظر إلى قطيعه السعيد. والمشهد كله يسبح في ضوء ذهبي، لأن الشمس انحدرت أسفل الأفق.

وضعت الجدة يدها بلطف على يد هايدي وقالت:

«لا تبكي يا صغيرتي العزيزة، لا تبكي. ذكرتك الصورة بشيء ما. ولكن اسمعي، بجانب الصورة حكاية حلوة سأحكيها لك هذا المساء. وثمة حكايات حلوة أخرى من شتى الصنوف لنقرأها ونحكيها ثانية. ولكن علينا أن نتحدث قليلًا الآن، فامسحي دموعك وتعالي وقفي أمامي حتى أراك جيدًا، والآن ها نحن سعيدتان ثانية».

ولكن هايدي لم تتغلب على نشيجها إلا بمضي بعض الوقت، وقد منحتها الجدة وقتًا لتتمالك نفسها قائلة كلمات مفرحة لها بين الفينة والأخرى، «حسن، هذا جيد، وها قد عدنا سعيدتين».

وحين رأت أخيرًا أن هايدي غدت أهدأ قالت «والآن أريد منك أن تخبريني أمرًا. كيف تقضين وقت الدراسة؛ هل تحبين دروسك، وهل تعلمت شيئًا كثيرًا؟».

«أوه، كلا!»، أجابت هايدي وهي تتنهد، «لكنني أعرف سلفًا أن تعلمي مستحيل».

«ما الذي تظنينه مستحيلًا تعلمه؟».

«حسن، القراءة، إنها صعبة للغاية».

«لا تقولي هذا! ومن أخبرك بذلك؟».

«أخبرني بيتر، وهو يعرف كل شيء عن ذلك، لأنه حاول وحاول ولم يستطع تعلمها».

«لا بد أن بيتر فتى غريب إذن! ولكن أصغي يا هايدي، ليس علينا أن نستمع لما يقوله بيتر دومًا، بل علينا أن نجرب بأنفسنا. أنا واثقة أنك لم تمنحي المعلم كامل انتباهك حين حاول تعليمك الأحرف».

«لا فائدة من ذلك»، قالت هايدي بنبرة من كان مستعدًا لتحمل ما لا يمكن إصلاحه.

«أصغي إلى ما سأقوله»، تابعت الجدة، «إنك لم تتعلمي حروفك الأبجدية لأنك صدقت ما قاله بيتر، ولكن عليك أن تصدقي الآن ما أقوله لك، وأنا أقول لك إن بوسعك تعلم القراءة في وقت قصير جدًا، مثل الكثير من الأطفال الآخرين، الذين خلقوا مثلك لا مثل

بيتر. والآن اسمعي ما سأقوله تاليًا؛ هل ترين هذه الصورة للراعي والحيوانات؟ حسن، ما إن تتمكني من القراءة فسيصبح هذا الكتاب لك، وستعرفين عندئذ كل شيء حول الخراف والماعز، وما فعله الراعي، والأمور الرائعة التي حدثت له، كأن أحدًا يقص عليك الحكاية بأسرها. إنك تحبين سماع هذا كله، أليس كذلك؟».

استمعت هايدي بانتباه ولهفة لكلمات الجدة وعقّبت وهي تزفر «أوه، لو أن بوسعي القراءة الآن!».

«لن يستغرق منك الأمر وقتًا طويلًا حتى تتعلمي، هذا ما أراه، والآن علينا النزول لكلارا، وهاتي الكتب معك»، وعادت الاثنتان إلى المكتبة يدًا بيد.

لقد تغيرت هايدي منذ ذلك اليوم الذي اشتاقت فيه إلى العودة للديار، والتقتها الآنسة روتنماير ووبختها على العتبات، وقالت لها إنها جاحدة وشريرة لمحاولتها الهرب، وإن من الجيد أن السيد زيزمن لم يعرف شيئًا عن الأمر. فقد فهمت ذلك اليوم أنها لا تستطيع العودة إلى الديار متى شاءت كما أخبرتها ديته، بل إن عليها البقاء في فرانكفورت لوقت طويل طويل، وربما إلى الأبد. كما فهمت أيضًا أن السيد زيزمن سيرى رغبتها في المغادرة جحودًا، واقتنعت أن الجدة وكلارا سيريان الأمر نفسه. لذا لم يكن لديها أحد تجرؤ على الإفضاء إليه بشوقها للديار، لأنها لن تقبل، مقابل أي شيء في العالم، بإزعاج الجدة اللطيفة معها لأي سبب مثلما غضبت الآنسة روتنماير. لكن عبء الهم في القلب الصغير غدا أثقل وأثقل،

ولم تعد تستطيع تناول طعامها، وغدت أكثر شحوبًا كل يوم. كانت تستلقي يقظة لساعات طويلة في الليل، لأنها ما إن تكون وحدها وكل شيء هادئ حولها، حتى تبدو صورة الجبل بضوء الشمس والزهور واضحة أمام عينيها. وحين تغط في النوم تحلم بالصخور والحقل الثلجي يتحولان إلى اللون القرمزي في ضوء المساء، وحين تستيقظ صباحًا تظن نفسها عادت إلى الكوخ وتتأهب لتجري بجذل تحت الشمس في الخارج، ثم ترى الفراش الكبير وتعرف أنها في فرانكفورت بعيدًا عن الديار. وكثيرًا ما وضعت هايدي وجهها على الوسادة وبكت طويلًا بهدوء حتى لا يسمعها أحد.

لم يفت الجدة أن تلاحظ حزن هايدي، وانتظرت بضعة أيام لترى إن كانت الطفلة ستغدو أكثر بهجة وتتخلى عن مظهرها الحزين. ولكن الأمور لم تتحسن، ورأت بوضوح أن هايدي تبكي في أصباح كثيرة قبل النزول، فأخذتها إلى غرفتها ثانية ذات يوم، وقالت وهي تقرب الطفلة منها: «والآن أخبريني ما الأمر يا هايدي، هل أنت حزينة؟».

لكن هايدي التي خشيت أن تظنها الجدة جاحدة فتكف عن لطفها معها إن أخبرتها بالحقيقة، أجابت بقولها: «لا أستطيع إخبارك».

«حسن، هل يمكنك إخبار كلارا بالأمر؟».

«أوه، كلا. لا أستطيع إخبار أحد»، قالت هايدي بنبرة حاسمة، وعلى وجهها نظرة حزينة، جعلت الجدة تشعر بالشفقة على الطفلة.

«إذن دعيني أخبرك بما تفعلين يا صغيرتي العزيزة؛ تعلمين أننا حين نحمل همًا كبيرًا ولا نستطيع أن نحدث به أحدًا، علينا أن نتجه للرب وندعوه أن يساعدنا، لأن بوسعه إخراجنا من هم يشغلنا. أنت تفهمين هذا، أليس كذلك؟ أنت تتلين صلواتك كل مساء بقولك إلهنا الرحيم الذي في السماء، وتصلين له ليبعد عنك الشر، أليس كذلك؟».

«كلا، إنني لا أردد أي صلاة مطلقًا»، أجابت هايدي.

«هل تعلمت الصلاة يا هايدي، هل تعرفين ما معنى الصلاة؟».

«اعتدت أن أتلو الصلوات مع الجدة الأولى، ولكن هذا منذ زمن بعيد، وقد نسيتها».

«هذا هو السبب في أنك حزينة جدًا يا هايدي، لأنك لا تعرفين أحدًا يستطيع مساعدتك. تذكّري أن الراحة الكبرى، حين يغمر الهمُّ القلبَ، تكمن في قدرة المرء على التوجه نحو الرب في أي لحظة وإخباره كل شيء، وأن يصلي له ليمنحه العون الذي لا يستطيع أحد آخر تقديمه له. ويمكنه أن يساعده ويعطيه كل شيء يجعله سعيدًا مرة أخرى». غمر وميض فرح مفاجئ عيني هايدي، «هل أستطيع إخباره بكل شيء، كل شيء؟».

«أجل، كل شيء يا هايدي، كل شيء».

أخذت هايدي يدها التي كانت الجدة تمسكها بحنان بين يديها وقالت بسرعة: «هل لي أن أذهب؟».

«أجل بالطبع»، كان الجواب، وخرجت هايدي من الغرفة بسرعة إلى غرفتها، وجلست على مقعد، وقاطعت يديها معًا وأخبرت الرب بكل ما يجعلها حزينة وتعسة، وتضرعت إليه جاهدة أن يساعدها وأن يجعلها تعود إلى جدها.

وبعد أسبوع من هذا طلب المعلم من السيدة زيزمن الإذن بلقائها، لأنه أراد إبلاغها بالأمر المدهش الذي حدث. فدعته إلى غرفتها، وما إن دخل حتى مدت يدها إليه تحية، وقدمت له كرسيًا ليجلس وقالت: أنا سعيدة لرؤيتك، اجلس من فضلك وأخبرني بما جلبك هنا، أرجو ألا تكون أخبارًا سيئة أو شكاوى!».

«على العكس تمامًا»، بدأ المعلم، «لقد حدثت بعض الأمور التي كففت عن الأمل بحدوثها، ولا يمكن لأحد على علم بما حدث قبلًا أن يتوقع حدوثها، لأن ما حدث وفقًا لكل التوقعات يمكن اعتباره معجزة، ومع ذلك فقد حدث بأغرب الطرق، على عكس ما قد يتوقعه المرء تمامًا...».

«هل تعلمت الطفلة هايدي حقًا القراءة أخيرًا؟»، قالت السيدة زيزمن.

نظر المعلم إلى السيدة بدهشة خرساء، ثم تحدث أخيرًا: «إنه لأمر بديع حقًا، ليس لأنها لم تبد قادرة على تعلم الأبجدية بعد شرحي الوافي، وبعد بذل الكثير من الجهود غير العادية عليها فحسب، بل لأنها تعلمتها بسرعة كبيرة. بعد أن قررت ألا أبذل مزيدًا من الجهود على المحال، ولكن أن أضع الأحرف كما هي أمامها دون أي

شرح لأصولها ومعانيها، وها هي كما قلت قد تعلمت الأحرف في الليل، وأخذت تقرأ قراءة سليمة، على عكس معظم المبتدئين. وأنه ليدهشني بالقدر نفسه أنك خمنت أمرًا غير محتمل كهذا».

«تحدث الكثير من الأمور غير المحتملة في الحياة»، قالت السيدة زيزمن بابتسامة بهجة، «وأن يحدث أمران في آن واحد قد ينجم عنه نتيجة سعيدة، فلدينا هنا همة جديدة للتعلم وطريقة جديدة في التعليم، ولا شيء منهما يحدث ضررًا. علينا أن نفرح أن الطفلة قد بدأت بداية حسنة كهذه ونأمل أن تتقدم مستقبلًا».

وبعد أن انتهت من لقاء المعلم نزلت إلى المكتبة لتتأكد من الأخبار الطيبة. وكانت هناك هايدي جالسة قرب كلارا وتقرأ لها بصوت عال، ومن الواضح أنها مندهشة هي نفسها، وقد غدت أكثر فرحًا بالعالم الجديد الذي انفتح أمامها حين دبت الحياة في الأحرف السوداء وصارت بشرًا وأشياء وحكايات مثيرة. وجدت هايدي في ذلك المساء نفسه كتابًا كبيرًا فيه صور جميلة موضوعًا على طاولة، وحين نظرت بتساؤل إلى الجدة، أومت الأخيرة لها بلطف وقالت: «أجل، إنه لك الآن».

«لي، لأبقيه معي دومًا؟ حتى إن عدت للديار؟»، قالت هايدي وقد احمرت وجنتاها من السعادة.

«أجل بالطبع، إنه لك إلى الأبد. سنبدأ قراءته غدًا»، أكدت لها الجدة.

«ولكنك لن تعودي إلى الديار يا هايدي، ليس قبل بضع

سنوات»، أضافت كلارا، «فحين تذهب الجدة أريدك أن تبقي معي».

حين أوت هايدي إلى غرفتها تلك الليلة، ألقت نظرة أخرى على الكتاب قبل أن تخلد للفراش، ومنذ هذا اليوم وصاعدًا صارت بهجتها العظمى أن تقرأ الحكايات التي ترافق الصور مرة بعد أخرى. وإن قالت الجدة وهن جالسات معًا مساء: «والآن ستقرأ هايدي لنا جهرًا»، سرت هايدي، لأن القراءة لم تعد معضلة لديها، وحين تقرأ الحكايات بصوت عال تصبح المشاهد أكثر جمالًا وجلاء، ثم تشرح الجدة وتخبرها المزيد منها.

ولم تزل الصورة التي تحبها أكثر من غيرها هي صورة الراعي الذي يتكئ على متاعه وقطيعه حوله وسط مرعى أخضر، لأنه كان في دياره وسعيدًا، ملاحقًا خراف أبيه وماعزه. ثم تجيء الصورة التي يظهر فيها بعيدًا عن منزل أبيه، ملزمًا بالبحث عن خنزير وقد غدا نحيلًا وشاحبًا بسبب قشور النبات التي لم يجد ما يأكله سواها. وحتى الشمس بدت هنا أقل سطوعًا وبدا كل شيء رماديًا وضبابيًا. ثم تجيء الصورة الثالثة في هذه الحكاية؛ وهنا يظهر الأب العجوز بذراعين ممدودتين يجري للقاء وعناق ابنه العائد النادم الذي يتقدم خائفًا ومنهكًا وأعجف ومرتديًا معطفًا رثًا. كانت هذه الحكاية المفضلة لدى هايدي، فقرأتها مرة بعد مرة بصوت عال ولنفسها، ولم تسأم مرة من سرد الجدة لها عليها وعلى كلارا. لكن في الكتاب حكايات أخرى، ومرت الأيام سريعًا بقراءتها والنظر إلى صورها، واقترب موعد عودة الجدة إلى بيتها.

الفصل الحادي عشر

هايدي تكسب من جهة وتخسر من جهة أخرى

كانت الجدة في أثناء زيارتها تنزل كل عصر وتجلس دقائق قليلة قرب كلارا بعد الغداء، حين تستريح الأخيرة، وتختفي الآنسة روتنماير في غرفتها للسبب نفسه على الأرجح. لكن الجدة تكفيها خمس دقائق ثم تنهض ثانية، وتُرسَل هايدي إليها في غرفتها، فتتحدث إلى الطفلة وتشغلها وتسليها بشتى الطرق. لدى الجدة الكثير من الدمى الجميلة، وعلمت هايدي كيف تصنع فساتين ومیادع لها، فتعلمت هايدي الخياطة وصنع مختلف الثياب الجميلة للدمى الصغيرة من مجموعة القطع الرائعة التي تمتلكها الجدة من كل لون جميل وخلاب. ثم تحب الجدة أن تستمع إلى قراءتها جهرًا، وكلما قرأت هايدي حكاياتها ازداد ولعها بها، فقد دخلت حيوات كل الأشخاص الذين تقرأ عنهم، وصاروا أصدقاء أعزاء لها، وأبهجها أن تكون معهم أكثر فأكثر. غير أن هايدي لم تبد سعيدة تمامًا، ولم يعد يُرى اللمعان في عينيها. وحل الأسبوع الأخير من زيارة الجدة، فاستدعت هايدي إلى غرفتها ذات يوم كالمعتاد بعد

الغداء، وجاءت الطفلة تتأبط كتابها. طلبت منها الجدة أن تقترب ثم وضعت الكتاب جانبًا وقالت «أخبريني الآن يا صغيرتي، لم لست سعيدة؟ هل ما زلت تشعرين بالهم نفسه في قلبك؟».

هزت هايدي رأسها موافقة.

«هل أخبرت الرب بالأمر؟».

«أجل».

«وهل تصلين كل يوم بأن يجعل الأمور في نصابها وأن تكوني سعيدة مرة أخرى؟».

«كلا، لقد كففت عن الصلاة».

«لا تقولي هذا يا هايدي! لماذا كففت عن الصلاة؟».

«لا جدوى منها، فالرب لا يصغي»، تابعت هايدي في صوت حانق، «وأعرف أن في فرانكفورت ناسًا كثيرين كثيرين يصلون له كل ليلة فليس بوسعه الإصغاء لهم جميعًا، ولا بد أنه لم يسمع ما قلته له».

«ولم أنت واثقة من هذا يا هايدي؟».

«لأنني صليت من أجل الشيء نفسه كل يوم منذ أسابيع، ولم يفعل الرب ما طلبته حتى الآن».

«إنك مخطئة يا هايدي، ليس عليك التفكير بالرب على هذا النحو. إن الرب أب صالح لنا جميعًا، ويعرف أفضل منا ما الصالح

لنا. إن طلبنا منه أمرًا ليس في صالحنا، فلن يستجيب لنا، بل سيعطينا شيئًا أفضل إن واظبنا على الصلاة بجد ولم نهرب ونفقد ثقتنا به. لم ير الرب أن ما صليت لأجله في صالحك في الوقت الراهن، ولكن تأكدي أنه استمع إليك، لأن بوسعه سماع الجميع ورؤيتهم في الوقت نفسه، لأنه رب وليس بشريًا مثلك ومثلي. ولأنه رأى أن من الأفضل ألا تحصلي على ما طلبت فورًا قال لنفسه: أجل، ستحظى هايدي بما طلبت، ولكن في الوقت المناسب فتكون سعيدة تمامًا. لو فعلتُ ما أرادته الآن، ورأت يومًا أن من الأفضل لها ألا تؤتى سؤلها لبكت وقالت «لو أن الرب لم يعطني ما طلبت! إنه ليس جيدًا كما توقعت!» وفي أثناء مراقبة الرب ورؤيته إن كنت تثقين به وتواصلين الصلاة كل يوم، وتفضين له بكل ما تريدين، وليت مدبرة وكففت عن تلاوة صلواتك ونسيت أمره. وحين لا يسمع الرب صوت أحد يعرف أنه من أولئك الذين يصلون له، يترك المرء لشأنه حتى يعرف مدى حماقته. ثم يتورط هذا المرء في المتاعب فينادي «ساعدني يا ربي فما من أحد آخر يساعدني»، فيقول الرب «لماذا ابتعدت عني، لا يمكنني مساعدتك وقد فررت». وأنت لا تريدين إغضاب الرب أليس كذلك يا هايدي، وهو الذي لا يريد سوى أن يكون طيبًا معك؟ ألن تذهبي إذن وتطلبي منه أن يغفر لك، وتواصلي الصلاة والثقة به، لأن عليك أن تثقي أنه سيجعل كل شيء جيدًا وسعيدًا لك، وتكونين مسرورة خلية البال ثانية».

كانت هايدي تثق في الجدة ثقة مطلقة، وكل كلمة قالتها وقعت في قلبها.

«سأذهب من فوري وأطلب من الرب أن يغفر لي ولن أنساه ثانية»، أجابت نادمة.

«هذا جيد يا طفلتي العزيزة»، ثم أضافت رغبة في إسعادها، «لا تجزعي لأنه سيحقق كل ما تتمنين في الوقت المناسب».

وجرت هايدي وصلت ألا تنسى الرب وأن يظل هو يفكر بها.

جاء يوم رحيل الجدة، وكان يومًا حزينًا على كلارا وهايدي. لكن الجدة عزمت على أن تجعله بهيجًا قدر المستطاع وألا تجعلهما تغتمان، وأبقتهما جذلتين مسرورتين فلم تسنح لهما فرصة للتفكير بحزنهما لرحيلها حتى ذهبت في عربتها. بدا البيت حينئذ صامتًا وفارغًا للغاية ولم تعرف هايدي وكلارا ما تفعلانه، وجلستا ما بقي من النهار مثل طفلتين تائهتين.

وحين حانت الساعة لتكون هايدي وكلارا معًا في اليوم التالي، دخلت هايدي واقترحت أن تواصل القراءة جهرًا لكلارا كل عصر، إن أحبت ذلك. فوافقت كلارا ورأت أنه سيكون أمرًا لطيفًا لذلك اليوم، فأخذت هايدي تقرأ بحماسها المعتاد. غير أن القراءة لم تدم طويلًا، لأن هايدي ما كادت تبدأ حكاية عن جدة تموت حتى قالت «أوه! فالجدة ميتة!» وانفجرت بالبكاء، لأن كل ما قرأته بدا حقيقيًا لها حتى ظنت أن الجدة في الديار قد ماتت، وظلت تردد حين زاد نشيجها «إنها ميتة ولن أراها ثانية، ولن تحظى بشيء من اللفافات البيض أبدًا!».

فعلت كلارا كل ما بوسعها لتبين لهايدي أن الحكاية كانت عن

جدة أخرى، ولكن حتى بعد أن أقنعت هايدي بهذا في نهاية المطاف، استمرت هايدي بالبكاء بحرقة، لأنها أيقظت هاجس موت الجدة، والجد أيضًا. فقد يموت وهي بعيدة جدًا، وإن مر وقت طويل ولم تذهب للديار فقد تجد كل شيء صامتًا وميتًا هناك، وستكون وحيدة تمامًا، ولن تتمكن من رؤية الأعزاء الذين تحبهم بعد اليوم.

دخلت الآنسة روتنماير الغرفة أثناء ذلك، وشرحت لها كلارا ما حدث. ولأن هايدي واصلت بكاءها، تقدمت السيدة، التي بدا واضحًا أن صبرها نفد من هايدي، وقالت بحسم «كفي عن هذه الجلبة التي لا داعي لها يا أديليد. سأقول لك لمرة واحدة إنني إذا رأيت منك شيئًا كهذا أثناء قراءتك مرة أخرى سآخذ الكتاب منك ولن أسمح لك بأخذه ثانية».

كان لكلماتها تأثير سريع في هايدي التي امتقع لونها خوفًا، فقد كان الكتاب كنزها الرائع الوحيد. فجففت دمعها سريعًا وابتلعت نشقاتها قدر مستطاعها، فلا يُسمع لها صوت. لقد أدى الوعيد مفعوله، لأن هايدي لم تبكِ بصوت عالٍ مرة أخرى أيًا كان ما تقرأه، لكنها جهدت كثيرًا لتحبس دموعها فتنظر إليها كلارا وتقول: «ما هذا التعبير على وجهك يا هايدي؟ لم يسبق لي أن رأيت شيئًا مماثلًا قط!». غير أن التعبير لم يحدث ضجة ولا أغضب الآنسة روتنماير، فواصلت هايدي ذلك بعد أن تغلبت على نوبة بؤسها اليائسة، ولا أحد عرف حزنها. غير أنها فقدت شهيتها، وبدت شديدة الشحوب والنحول لحد أحزن سيباستيان عند النظر إليها، ولم يطق رفضها كل الأطباق الشهية التي قدمها لها، فهمس لها أحيانًا، بأسلوب أبوي

حنون: «كلي قليلًا منه، إنه شهي للغاية! هاك، هذه ملعقة كبيرة، وهذه أخرى»، ولكن دون جدوى، فهي لم تأكل إلا قليلًا، وما إن تضع رأسها على الوسادة ليلًا، حتى تتراقص أمام عينيها صورة الديار فتبكي وهي تدفن رأسها في وسادتها حتى لا يُسمع بكاؤها.

ومرت أسابيع كثيرة، ولم تعرف هايدي إن كان الفصل شتاء أم صيفًا، لأن الجدران والنوافذ التي أطلت منها على الخارج لم تظهر تغييرًا. وهي لم تخرج من المنزل إلا في مناسبات قليلة حين تكون كلارا بصحة جيدة تسمح لها بالتنزه خارجًا، فتذهبان حينئذ لمسافة قصيرة فحسب، لأن كلارا لا تحتمل الحركة لوقت طويل. وفي هذه المناسبات القليلة كانتا تريان الكثير من الشوارع الجميلة والمنازل الكبيرة وحشود الناس، ونادرًا ما ذهبتا أبعد من ذلك، ولم يزل العشب والزهور وأشجار التنوب والجبال بعيدة جدًا. نما شوق هايدي إلى الأشياء المألوفة الجميلة كل يوم، ولم تقرأ كلمة تستحضر لها ذكراها إلا وكانت قاب قوسين أو أدنى من البكاء الذي كبحته بصعوبة. وهكذا مر الخريف والشتاء، ثم طلعت الشمس ساطعة على الجدران البيضاء للمنازل المقابلة، وقالت هايدي في نفسها إن هذا هو الوقت الذي يخرج فيه بيتر ثانية مع العنزات، إلى حيث تلمع زهور القريضة الذهبية في ضوء الشمس، وتشتعل النار في الصخور من حولها عند المغيب. فتذهب هايدي إلى ركن في غرفتها المنعزلة وتضع يديها على عينيها حتى لا ترى الشمس تشرق على الجدار المقابل؛ ثم تظل دون حراك تعارك حنينها الجامح إلى الديار بصمت حتى ترسل كلارا في طلبها مرة أخرى.

الفصل الثاني عشر
شبح في البيت

ظلت الآنسة روتنهاير صامتة لأيام كأنها تائهة في هواجسها. وعند حلول الغسق كانت تنتقل من غرفة لأخرى أو تذرع الممرات الطويلة، وشوهدت تنظر خلفها في حذر، وفي الزوايا المظلمة كأنها تظن أن أحدًا قادم خلفها بصمت وأنه قد يجذب ثوبها على حين غرة. ولم تعد تذهب وحدها إلى بعض أقسام المنزل، فإن أرادت الذهاب إلى الطابق العلوي حيث غرف الضيوف الكبيرة، أو أن تنزل إلى المختصر[1] الذي تكتنفه الأسرار، حيث يرجع صدى وقع الأقدام، وينظر الشيوخ الكبار بياقاتهم البيضاء إلى الأسفل بوقار دون حراك من إطارات صورهم، دعت تنته لترافقها، تحسبًا لوجود شيء ينبغي أخذه إلى الأعلى أو الأسفل كما قالت. فعلت تنته من جهتها الأمر نفسه، فإن كان لها عمل في الطابق العلوي أو في الأسفل دعت سيباستيان لمرافقتها، مدعية أن ثمة شيئًا ما عليه مساعدتها فيه

(١) مجلس مغلق يختلف عن الردهات أو الصالات المعروفة، ويكون خاصًا ورسميًا بعض الشيء ويوجد غالبًا في البيوت الكبيرة أو القصور.

لأنها لا تتمكن من حمله وحدها. أما الأغرب فهو سيباستيان، الذي ينادي جون دومًا للذهاب معه إن أرسل إلى إحدى الغرف البعيدة، تحسبًا، فلربما احتاج مساعدة في إحضار المطلوب. فيذعن جون بسرعة، رغم عدم وجود شيء لحمله، ويمكن لسيباستيان الذهاب وحده. ولكنه لم يعرف متى قد يحتاج أن يطلب من سيباستيان خدمة مماثلة. وفي الوقت الذي كانت فيه هذه الأمور تجري في الأعلى، تقف الطاهية، التي قضت في المنزل سنوات، هازة رأسها فوق قدورها وأباريقها وتتنهد: «أكان مقدرًا علي أن يطول بي العمر حتى أشهد أمرًا كهذا؟!».

ذاك أن أمرًا غامضًا وغريبًا كان يحدث في بيت السيد زيزمن، إذ كلما نزل الخدم كل صباح وجدوا الباب الخارجي مفتوحًا على مصراعيه، رغم عدم وجود أحد من قريب أو من بعيد لعزْوِ هذا الأمر له. في الأيام الأولى لحدوث هذا فُتشت كل غرفة وزاوية بانتباه شديد، للتأكد من عدم سرقة شيء، لأن الجميع ظن أن لصًا يختبئ في البيت وولى هاربًا في الليل مع المتاع المسروق. غير أن شيئًا في البيت لم يمس، وكل شيء كان في مكانه بأمان. أُقفل الباب بأقفال مضاعفة في الليل، وثُبِّت عليه لوح خشبي لمزيد من الحيطة، ولكن بلا جدوى؛ ففي الصباح التالي وجد الباب مفتوحًا مرة أخرى. صار الخدم ينهضون في وقت مبكر أكثر من المعتاد خوفًا وتيقظًا. ولكنهم كلما استيقظوا باكرًا وجدوا الباب مفتوحًا قبل نزولهم، رغم أن كل شيء والجميع ما زالوا يغطون في سباتهم، ونوافذ البيوت المجاورة وأبوابها مغلقة بإحكام. في نهاية المطاف وبعد كثير من إقناع الآنسة

روتنهاير، استجمع كل من سيباستيان وجون شجاعتهما ووافقا على البقاء مستيقظين ذات ليلة في الغرفة المجاورة للمختصر الكبير وليراقبا ويريا ما سيحدث. أخرجت الآنسة روتنهاير عددًا من الأسلحة التي تخص السيد، وأعطتها لسيباستيان إلى جانب زجاجة من الكحول، حتى لا تخور قواهما إن اضطرا للقتال.

جلس الاثنان في الليلة الموعودة وبدأا من فورهما بشرب المسكر المقوي، الذي جعلهما في البدء ثرثارين ثم نعسين فاتكأا في مقعديهما وصمتا. وحين دقت ساعة منتصف الليل، نهض سيباستيان ونادى رفيقه، الذي لم يكن سهلًا إيقاظه، وظل يؤرجح رأسه من جهة لأخرى واستمر في النوم. أخذ سيباستيان يصغي بمزيد من الحذر، لأنه شديد اليقظة. وكان كل شيء هادئًا هدوء الفأر، وكل الأصوات في الشارع قد صمتت. لم يشعر برغبة للعودة إلى النوم، لأن الصمت أخافه، وخشي أن يرفع صوته لإيقاظ جون، فهزه بلطف ليوقظه. استيقظ جون في نهاية المطاف عندما دقت الساعة الواحدة، وعاد إليه صوابه وتذكر سبب جلوسه على كرسي بدلًا من اضطجاعه في سريره. فنهض بكثير من ادعاء الشجاعة وقال: «تعال يا سيباستيان، علينا أن نخرج لنرى ما يجري، لا تخف، اتبعني فحسب».

وعندئذ فتح الباب على وسعه ودخل الردهة. وما إن فعل حتى أحس بعصفة هواء هبت خلال الباب الأمامي المفتوح وأطفأت الشمعة التي حملها جون في يده. فتراجع للخلف، وكاد أن يتعثر بسيباستيان الذي تشبث به وأدخله إلى الغرفة وأغلق الباب بسرعة

وأدار المفتاح بأسرع ما استطاع. ثم أخرج علبة ثقابه وأشعل شمعته ثانية. لم يعرف سيباستيان، في غمرة الأمر، ما حدث تمامًا لأنه لم ير الباب المفتوح ولا شعر بالريح من خلف جسد جون العريض. ولكنه بعد أن رأى الأخير في ضوء الشمعة، صرخ خوفًا لأن جون كان يرتعد وأبيض كالشبح: «ما الأمر؟ ماذا رأيت خارجًا؟» سأله سيباستيان متعاطفًا.

قال جون لاهثًا: «الباب موارب وشيء أبيض يقف على العتبات، وقف هناك، ثم اختفى في لحظة».

شعر سيباستيان ببرودة في دمه، وجلس الاثنان قريبين من بعضهما بعضًا ولم يجرؤا على التحرك حتى طلع الصباح، ودبت الحياة في الشوارع ثانية. ثم غادرا الغرفة معًا، وأغلقا الباب الأمامي وصعدا إلى الأعلى لإخبار الآنسة روتنهاير بما خبراه. كانت متأهبة لاستقبالهما، إذ عجزت عن النوم في قلق انتظار سماع تقريرهما. وما إن قصا عليها تفاصيل ما حدث في الليل حتى جلست وكتبت من فورها للسيد زيزمن، الذي لم يتلقَ رسالة كهذه في حياته قبلًا. أخبرته أنها وجدت صعوبة في الكتابة لأن أصابعها متشنجة من الخوف، ولا بد أن يرتب السيد زيزمن من فضله لأمر العودة حالًا، لأن أمورًا مخيفة ولا تُحكى تحدث في البيت. ثم انتقلت إلى تفصيل كل ما جرى، وأنهم يجدون الباب مفتوحًا كل صباح، وأن الجميع في المنزل لم يعد يأمن على حياته في ظل هذه الأمور المريبة، وأن من المستحيل تخمين العواقب الوخيمة التي قد تلي هذه الأحداث الغامضة.

رد السيد زيزمن بأن من المستحيل عليه أن يترك عمله ويعود إلى البيت حالًا، وقد أصابه الذهول الشديد لسماع حكاية الشبح هذه، وأمل أن يكون الشبح قد اختفى بوصول الرسالة. أما إن واصل إقلاق راحة سكان المنزل، فعلى الآنسة روتنماير أن تكتب إلى الجدة وتسألها إن كان بوسعها القدوم وفعل شيء ما، فهو واثق أنها ستعثر سريعًا على وسيلة للتعامل مع الشبح فلا يجرؤ بعد ذلك على سكنى المنزل. لم تعجب نبرة الرسالة الآنسة روتنماير، إذ وجدت أن الأمر لم يؤخذ على محمل الجد. فكتبت دون تردد إلى السيدة زيزمن، غير أنها لم تحصل على جواب أكثر إرضاء من هذا الجانب، واعتبرت بعض التعليقات في الرسالة مهينة. كتبت السيدة زيزمن أنها لا تشعر برغبة بتكبد عناء الرحلة من هولشتاين إلى فرانكفورت لأن روتنماير تتخيل رؤية أشباح، إذ لم يكن في البيت أي شبح منذ معرفتها به. وإن كان في البيت واحد الآن فلا بد أنه حي ويتعين على الآنسة روتنماير أن تتعامل معه، وإن لم تتمكن فلا بد لها من الاستعانة بحارس. على أية حال، عقدت الآنسة روتنماير العزم على ألا تضيع مزيدًا من الأيام في الخوف، وقد عرفت الطريق الصائب لتسلكه. لم تقل شيئًا للطفلتين بعد عن الخيالات الشبحية، فقد أدركت أنهما لن تبقيا بمفردهما للحظة واحدة إن هي أخبرتهما بالأمر، وهذا ما قد يجلب لها العناء. لكنها مضت قدمًا إلى المكتبة، وأخبرت الطفلتين بصوت خفيض مبهم بكل ما حدث. صرخت كلارا من فورها قائلة إنها لن تبقى وحدها للحظة أخرى، وإن على أبيها العودة للبيت، وإن على الآنسة روتنماير أن تنام في غرفتها ليلًا،

كما يجب عدم ترك هايدي وحدها، لأن الشبح قد يؤذيها. وأصرت على أن ينمن جميعًا في غرفة واحدة، ويبقين الشمعة مشتعلة طوال الليل، ومن الأفضل أن تكون تنته في الغرفة المجاورة، وأن يأتي جون وسيباستيان إلى الأعلى ويمضيان الليلة في الردهة، ويصيحان ليخيفا الشبح لحظة رؤيتهما له على العتبات. وباختصار، غدت كلارا شديدة التوتر، ووجدت الآنسة روتنماير مشقة كبيرة في تهدئتها، ووعدت أن تكتب في الحال إلى أبيها، وأن يوضع سريرها في غرفتها وألا تترك وحيدة ولو للحظة. ولا يمكن لهن جميعًا أن ينمن في غرفة واحدة، ولكن إن شعرت هايدي بالخوف فستذهب تنته للنوم في غرفتها. غير أن هايدي كانت خائفة من تنته أكثر من خوفها من الشبح الذي لم تسمع به الطفلة قبلًا، فأكدت للآخرين أنها لا تبالي بأمر الشبح، وتفضل البقاء وحدها في الليل.

جلست الآنسة روتنماير لتكتب رسالة أخرى إلى السيد زيزمن، قائلة إن هذه الأمور الكثيرة التي تحدث في البيت قد أثرت كثيرًا في طبيعة ابنته الحساسة وإنها تتوقع أسوأ العواقب، وإن نوبات صرع ونوبات رقاص القديس ڤنتوس[1] تحدث فجأة في حالات كهذه، وإن كلارا معرضة لهجوم أي منهما إن لم يزل السبب الرئيس لخوفها.

---

(١) اسم قديم لرقاص سدنهام: مرض يتميز بحركات سريعة فجائية غير متناسقة تؤثر في الوجه واليدين والقدمين. سمي برقاص سدنهام نسبة للطبيب الذي اكتشفه، والاسم القديم إشارة إلى القديس ڤنتوس الذي عذبه أباطرة الرومان ومات شهيدًا.

أدت الرسالة غرضها، ووقف السيد زيزمن بعد يومين أمام باب منزله وقرع الجرس بطريقة جعلت الجميع يأتي راكضًا من كل أنحاء البيت ووقفوا يتبادلون النظرات الخائفة بينهم، ظانين أن الشبح يبدأ خدعه الشريرة بصفاقة في وضح النهار. استرق سيباستيان النظر عبر مصراع موارب، وعندما فعل ذلك رن الجرس رنة قوية مرة أخرى، تبين أنها ليست إلا رنة قوية من يد غير شبحية. وعرف سيباستيان يد من كانت، فخرج من الغرفة مندفعًا نازلًا الدرج بسرعة، لكنه تمالك نفسه عند نهايته وفتح الباب الخارجي.

حياه السيد زيزمن على عجل وصعد دون لحظة تردد إلى غرفة ابنته. حيته كلارا بصيحة فرح، ولما رأى أنها بخير وكما تبدو دومًا راق وجهه، وزالت تقطيبة القلق منه شيئًا فشيئًا حين سمع من شفتي ابنته أنها لم تكترث للأمر البتة، وأنها سرت برؤيته للغاية حد أنها فرحت بأمر الشبح، لأنه السبب في عودته إلى البيت.

«وكيف حال الشبح؟»، سأل ملتفتًا نحو الآنسة روتنماير وعيناه تلمعان مرحًا.

«أؤكد لك أن الأمر ليس مزحة. لن تضحك غدًا يا سيد زيزمن، فما سيحدث في البيت يشير إلى وقوع أمر رهيب في الماضي وقد كتم أمره»، أجابت السيدة.

فقال سيد البيت: «حسن، لا علم لي بهذا، ولكني أتوسل إليك ألا تشكّي بأسلافي المحترمين. والآن هلا ناديت سيباستيان إلى غرفة الطعام من فضلك، فإني أنوي التحدث إليه وحده».

كان السيد زيزمن مدركًا أن سيباستيان والآنسة روتنماير ليسا على وفاق، وكان لديه تصوراته حول هذا الأمر المخيف.

«تعال هنا يا فتى»، قال حين ظهر سيباستيان، «وأخبرني صراحة، هل كنت تلعب دور الشبح لتسلي نفسك على حساب الآنسة روتنماير؟».

«كلا يا سيدي، بشرفي، أرجوك ألا تفكر بذلك؛ إنني قلق من الأمر أيضًا»، أجاب سيباستيان بصدق بيّن.

«حسن، إن كان الأمر كذلك فسأريك أنت وجون غدًا كيف تبدو الأشباح في وضح النهار. عليك أن تخجل من نفسك يا سيباستيان، كيف يجري شاب قوي ضخم مثلك من شبح؟! ولكن اذهب الآن واحمل رسالتي إلى صديقي القديم الطبيب؛ وأبلغه تحياتي الحارة واطلب منه أن يأتي لرؤيتي عند التاسعة من هذه الليلة دون تأخير، فقد قدمت بالقطار السريع من پاريس لاستشارته. أود منه أن يقضي الليلة هنا، وأخبره أن الوضع سيئ هنا فعليه أن يرتب أموره وفقًا لذلك. هل تفهم؟».

«أجل يا سيدي»، أجاب سيباستيان، «سأتولى الأمر حسب أوامرك». ثم عاد السيد زيزمن إلى كلارا، ورجاها ألا تخاف بعد الآن، لأنه سيكشف أمر الشبح قريبًا ويضع حدًا له.

وصل الطبيب عند الساعة التاسعة تمامًا، بعد أن خلدت الطفلتان إلى الفراش وأوت الآنسة روتنماير إلى غرفتها. كان رجلًا ذا شعر رمادي ووجه طلق وعينين لامعتين حنونين. وقد بدا متوترًا

حين دخل، ولكنه انفجر ضاحكًا حين رأى مريضه وأمسك به من كتفيه وقال: «حسن. إنك تبدو بحال سيئة بالنسبة إلى شخص علي ملازمته طوال الليل».

«صبرًا يا صديقي»، أجاب السيد زيزمن، «فمن عليك ملازمته سيبدو أسوأ مني بكثير حين نمسك به».

«ففي المنزل شخص مريض إذن، ولا بد من الإمساك به أولًا؟».

«أسوأ من ذلك أيها الطبيب! شبح في البيت! بيتي مسكون!».

ضحك الطبيب بصوت عال.

«هذه طريقة لطيفة لإظهار التعاطف أيها الطبيب!»، تابع السيد زيزمن، «خسارة أن صديقتي روتنماير لا يمكنها سماعك. فهي شديدة الاقتناع أن أحد أفراد الأسرة الكبار يتجول في البيت ندمًا على جريمة مريعة اقترفها».

«وكيف عرفت بذلك؟»، سأل الطبيب ولم يزل مسرورًا.

فقص عليه السيد زيزمن حكاية فتح أحدهم الباب الخارج كل ليلة، وفقًا لشهادة سكان المنزل بأسرهم، وقد أمّن مسدسين ملقمين لهذا الغرض، ليكونا على أهبة الاستعداد إن حدث أمر ما. فإما أن يكون الأمر برمته مزحة قام بها أحد أصدقاء الخدم لبث الذعر في نفوس سكان المنزل في غيابه -وفي هذه الحالة فإن إطلاق النار في الهواء سيصيبه بالذعر- وإما إنه لص أوْهم الجميع في البدء أنه شبح ليستطيع أن يأتي لاحقًا ويسرق، فما من أحد سيجرؤ على

الخروج إن سمعه، وفي هذه الحالة أيضًا لن يكون السلاح الجيد خطأ.

أخذ الاثنان مكانيهما في الغرفة نفسها التي سهر فيها جون وسيباستيان للمراقبة. وضعت زجاجة نبيذ على الطاولة، إذ لا بد من شيء من المرطبات من الفينة والأخرى إن كانا سيمضيان الليلة جالسين. وقربها وضع المسدسان وأشعلت شمعتان كبيرتان، لأن السيد زيزمن عقد العزم على ألا ينتظر الشبح في غرفة خافتة الإضاءة.

أغلق الباب لئلا يرى الضوء في الردهة خارجًا مما قد يخيف الشبح. وجلس السيدان بارتياح في الكرسيين ذوي المسندين وأخذا يتحدثان عن مختلف الأمور، ويصمتان بين الحين والآخر لأخذ رشفة من النبيذ، وهكذا دقت الساعة الثانية عشرة قبل أن يدركا.

«لا بد أن الشبح قد عرف بأمرنا وظل بعيدًا هذه الليل»، قال الطبيب.

«انتظر قليلًا، إنه لا يظهر عادة قبل الساعة الواحدة»، أجاب صديقه.

وأخذا يتحدثان ثانية، فدقت الساعة الواحدة. لا يسمع صوت في البيت ولا في الشارع خارجًا، ورفع الطبيب إصبعه فجأة.

«هشش! ألا تسمع شيئًا يا زيزمن؟».

وأنصت كلاهما وسمعا بوضوح صوت اللوح يدفع جانبًا بهدوء ثم يدار المفتاح في القفل ويفتح الباب. وضع السيد زيزمن يده على المسدس.

«أنت لست خائفًا، أليس كذلك؟»، قال الطبيب وهو يقف.

«من الأفضل أخذ الحيطة»، همس السيد زيزمن، وأمسك بيده الأخرى إحدى الشمعتين وتبع الطبيب المدجج بالسلاح والشمعة وتقدم بهدوء، ودخلا الردهة. كان ضوء القمر يسطع عبر الباب المفتوح ويسقط على الشيء الأبيض الذي يقف بلا حراك عند الباب.

«من هناك؟»، هدر الطبيب بصوت تردد صداه في الردهة وقد تقدم الرجلان مع الشمعتين والسلاحين نحو الشيء.

فاستدار وأطلق صرخة خافتة. كانت هايدي تقف هناك في منامتها البيضاء، حافية القدمين، تنظر بعينين قويتين إلى الشمعتين والمسدسين، وترتعد من رأسها حتى أخمص قدميها مثل ورقة شجر في مهب الريح. تبادل الرجلان النظرات في دهشة.

«عجبًا، أظنها سقاءتك الصغيرة يا زيزمن»، قال الطبيب.

«ما معنى هذا أيتها الصغيرة؟»، قال السيد زيزمن، «ماذا أردت؟ لماذا نزلت هنا؟».

أجابت هايدي وقد ابيضت من الخوف وبالكاد يسمع صوتها: «لست أدري».

عندئذ تقدم الطبيب: «هذا أمر سأنظر فيه أنا، عد أدراجك يا

زيزمن. علي أن آخذ الطفلة إلى الأعلى إلى فراشها». وبهذا وضع مسدسه وأمسك بيد الطفلة وأخذها للأعلى وقال لها وهما يصعدان جنبًا إلى جنب: «لا تخافي. لا شيء يستدعي الخوف، لا بأس، امشي بهدوء فحسب».

وحين وصلا غرفة هايدي، وضع الطبيب الشمعة على الطاولة، وحمل هايدي بين ذراعيه ووضعها في فراشها وغطاها بعناية. ثم جلس قربها وانتظر حتى هدأت هايدي ولم تعد ترتعد بقوة. وأخذ يدها وقال بصوت مهدئ حنون: «ها أنت أحسن، فأخبريني أين كنت تنوين الذهاب؟».

«لم أنوِ الذهاب إلى أي مكان»، قالت هايدي، «لم أدرك أنني نزلت إلى الطابق السفلي، ثم وجدتني هناك فجأة».

«فهِمت، وهل كنت تحلمين وبدا أنك ترين شيئًا وتسمعينه بوضوح شديد؟».

«أجل، أحلم كل ليلة، وأحلم بالأشياء نفسها. أرى أنني عدت مع جدي وأسمع صوت أشجار التنوب خارجًا، وأرى النجوم تتلألأ بلمعان شديد، ثم أفتح الباب بسرعة وأخرج، وأن كل شيء جميل للغاية! ولكني حين أستيقظ أرى أنني ما زلت في فرانكفورت!»، وجهدت هايدي وهي تتحدث لتحبس نشيجها الذي سيخنقها.

«وهل تشكين ألمًا في أي مكان؟ هل تشكين ألمًا في رأسك أو ظهرك؟».

«كلا، إني أشعر أن صخرة تثقل علي ها هنا فحسب».

«كأنك أكلت شيئًا لا ينزل للأسفل».

«كلا، ليس كذلك. بل شيء ثقيل كأنني أود البكاء بشدة».

«فهمت، ثم تبكين بشدة؟».

«أوه، كلا. يجب ألا أفعل، فقد منعتني الآنسة روتنماير من البكاء».

«فتكبحين بكاءك كما أظن؟ أسعيدة أنت في فرانكفورت؟».

«أجل»، كان جوابها الخافت، لكنه بدا أشبه بقول «لا».

«وأين كنت تعيشين مع جدك؟».

«أعلى الجبل».

«لم يكن ذاك ممتعًا جدًا، بل مملًا بعض الأحيان أليس كذلك؟».

«كلا، كلا، لقد كان جميلًا جميلًا!»، لم تستطع هايدي قول المزيد لأن ذكرى الماضي والإثارة التي تعرضت لها والكبح الطويل للدموع كانت تفوق احتمال الطفلة، وأخذت الدموع تنهمر سريعًا، وانفجرت في بكاء حاد.

نهض الطبيب ووضع رأسها على الوسادة. «حسن، حسن، واصلي البكاء، فهذا سيريحك ثم اخلدي للنوم، وستكون الأمور على ما يرام غدًا».

ثم غادر الغرفة ونزل إلى السيد زيزمن، وحين جلس ثانية على

الكرسي ذي المسندين مقابل صديقه قال: «دعني أخبرك في البدء يا زيزمن أن ضيفتك الصغيرة تسير في نومها، وهي الشبح الذي يفتح الباب الأمامي كل ليلة وبث الذعر في كل سكان منزلك. وثانيًا؛ إن الطفلة مستنزفة بالحنين، إلى حد أنها كادت أن تصبح هيكلًا عظميًا وستصبح هكذا قريبًا. لا بد من فعل شيء حالًا. فأما المشكلة الأولى، ونظرًا لأعصابها المنهكة فليس لها إلا علاج واحد؛ أن ترسلها إلى هواء موطنها في الجبل، وأما المشكلة الثانية فليس لها إلا دواء واحد وهو الدواء نفسه. لذا لا بد أن تنطلق الطفلة غدًا عائدة إلى ديارها، وهذه هي وصفتي للعلاج».

نهض السيد زيزمن وذرع الغرفة جيئة وذهابًا في أقصى حالات القلق.

قال: «ماذا؟! الطفلة تسير في نومها ومريضة! تحن إلى الديار وصارت ضامرة في بيتي! وأنت تقول أيها الطبيب أن أرسل الطفلة التي جاءت سعيدة وبصحة جيدة إلى جدها هيكلًا عظميًا بائسًا؟ لا يمكنني فعل ذلك؛ لا تحلم بشيء كهذا! تولَّ أمر الطفلة وافعل بها ما تشاء واجعلها سليمة معافاة، ثم تعود إلى ديارها، ولكن عليك أن تفعل شيئًا أولًا».

أجاب الطبيب: «فكر بما تفعله يا زيزمن! لا يمكن علاج هذا المرض الذي تشتكيه الطفلة بالأقراص والمساحيق. ليس للطفلة بنية قوية، ولكنك إن أعدتها في الحال فقد تستعيد عافيتها في هواء الجبل، وإلا... ألا تفضل أن تعود مريضة على ألا تعود مطلقًا؟».

وقف السيد زيزمن صامتًا، فقد صدمته كلمات الطبيب.

«إن كنت ترى ذلك أيها الطبيب، فلا مناص منه إذن. ولا بد من الاضطلاع بالأمر في الحال». ثم ذرع الغرفة هو والطبيب لترتيب ما ينبغي فعله. وبعدئذ ودعه الطبيب، وقد مر بعض الوقت منذ جلوسهما معًا، وحين فتح السيد باب الردهة هذه المرة سطع ضوء النهار عبره داخل البيت.

الجزء الثالث

الفصل الثالث عشر
أمسية صيفية في الجبل

ذهب السيد زيزمن شديد الاستياء والقلق إلى الأعلى مسرعًا، وقطع الممر إلى غرفة الآنسة روتنماير، وقرع الباب قرعًا عاليًا على غير المعتاد فاستيقظت السيدة من نومها بصرخة خوف. فسمعت سيد البيت يناديها من وراء الباب: «أسرعي أرجوك وتعالي لرؤيتي في غرفة الطعام، علينا الاستعداد للذهاب في رحلة على الفور». نظرت الآنسة روتنماير إلى ساعتها؛ فرأت أنها الرابعة والنصف، وهي لم تستيقظ في هذا الوقت الباكر من قبل. ما الذي حدث؟ وفي غمرة فضولها وقلقها أمسكت بكل شيء بطريقة خاطئة، وكلما حاولت الإسراع أبطأت أكثر لأنها ظلت تبحث عن ثيابها التي ارتدتها سلفًا.

في أثناء ذلك مضى السيد زيزمن قدمًا وقرع كل الأجراس المتصلة بغرف الخدم العديدة، جاعلًا إياهم يثبون خائفين من فرشهم، وهم واثقون أن الشبح هاجم السيد وأنه يطلب النجدة. ثم حضروا واحدًا بعد الآخر إلى غرفة الطعام، وكل منهم خائف

أكثر من سابقه، ودهشوا لرؤية سيدهم يذرع الغرفة جيئة وذهابًا، ويبدو مرحًا وبحالة جيدة، دون أن يظهر عليه أنه واجه الشبح. أرسل جون دون تأخير لتحضير العربة والجياد، وأُمرت تنته أن توقظ هايدي وتلبسها ثيابها من أجل الرحلة، أما سيباستيان فقد هرع إلى المنزل الذي تعمل فيه ديته لاستدعائها هنا. ثم نزلت الآنسة روتنماير بعد أن فرغت من ارتداء ثيابها وقد عدلت كل شيء عدا قبعتها التي ارتدتها مقلوبة. فعزا السيد زيزمن مظهرها المضطرب إلى إيقاظه لها باكرًا، وأخذ دون تردد يملي عليها تعليماته. إذ عليها أن تحضر حقيبة سفر وتحزم كل ما يخص الطفلة السويسرية، وجزءًا من ثياب كلارا أيضًا، فتأخذ الطفلة إلى ديارها ثيابًا لائقة، ويجب فعل كل شيء على الفور، إذ لم يكن لديهم وقت للتفكير.

وقفت الآنسة روتنماير كأنما سمرت في أرضها وحدقت بالسيد زيزمن دهشة. فقد توقعت سردًا مطولًا وخاصًا لتجربته الرهيبة أثناء الليل، وكانت تؤثر سماعها في وضح النهار. وعوضًا عن ذلك سمعت هذه التعليمات المملة المزعجة، التي فاجأتها كثيرًا فاستغرقت بعض الوقت لتتغلب على دهشتها وخيبة أملها، وظلت واقفة بانتظار مزيد من الإيضاح.

لم يكن لدى السيد زيزمن مزاج ولا وقت للإيضاح وتركها واقفة هناك وذهب للحديث إلى كلارا، التي أقلقها الاضطراب الغريب في المنزل، كما توقع، وقد وجدها مستلقية تتساءل عما حدث. فجلس وأخبرها بكل شيء حدث خلال الليلة الفائتة. وبين لها أن

الطبيب قد أبدى رأيه وقال إن هايدي في حالة توتر شديدة، وقد تأخذها جولاتها الليلية بعيدًا شيئًا فشيئًا، فقد تصعد إلى السطح الذي سيكون خطرًا جدًا عليها بطبيعة الحال. فقررا إرسالها إلى ديارها في الحال، لأنه لا يود تحمل مسؤولية بقائها، وستدرك كلارا أن هذا هو الأمر الوحيد الذي يمكن فعله. استاءت كلارا كثيرًا، وقدمت في بادئ الأمر مختلف الاقتراحات لإبقاء هايدي معها، لكن أباها كان صارمًا ووعدها أنه سيأخذها إلى سويسرا الصيف القادم إن كانت عاقلة ولم تحدث مزيدًا من الجلبة. فأذعنت كلارا لما لا مفر منه، واشترطت أن يؤتى بالصندوق إلى غرفتها لحزمه، فتضيف فيه ما شاءت، وسر أبوها للغاية وطلب منها أن تضع ثيابًا جميلة للطفلة. وصلت ديته في هذه الأثناء وانتظرت في الردهة، متساءلة عن الحدث الغريب الذي جرى حتى يرسل في طلبها في ساعة كهذه. أبلغها السيد زيزمن بحالة هايدي، وأنه يرجو منها أن تأخذها اليوم إلى الديار. شعرت ديته بخيبة رجاء كبيرة، لأنها لم تتوقع أنباء كهذه، وتذكرت آخر كلمات الخال بأنه لا يتمنى أن يقع نظره عليها ثانية، وبدا لها أن أخذ الطفلة إليه بعد أن تركتها معه مرة ثم أخذتها ثانية ليس بالأمر الآمن ولا الصائب لتفعله. فتذرعت للسيد زيزمن بأن من المستحيل عليها أن تنطلق في الرحلة اليوم أو في الغد، وأن لديها الكثير مما تفعله وتشك أنها ستذهب في أي من الأيام التالية. فأدرك السيد زيزمن أنها عازفة عن الذهاب مطلقًا فصرفها. ثم أرسل في طلب سيباستيان وطلب منه أن يستعد للانطلاق؛ فهو سيسافر مع الطفلة حتى مدينة بال ذلك اليوم، ثم

يعود بها إلى الديار في اليوم التالي. وسيحمّله رسالة إلى الجد يشرح فيها كل شيء، ثم يمكنه العودة بعدها.

«غير أني أود منك أن تهتم لأمر واحد»، قال السيد زيزمن في الختام، «واحرص على أن تنتبه لما أقول. أعرف أصحاب الفندق في بال، الذي سأكتب لك اسمه على البطاقة، وسيتولون أمر تهيئة غرفتين لك وللطفلة، وحين تصلان ادخل غرفة الطفلة من فورك وتأكد من أن النوافذ محكمة الإغلاق ولا تفتح بسهولة. وحين تخلد الطفلة إلى الفراش أغلق باب غرفتها بالمفتاح من الخارج، لأن الطفلة تسير في نومها وقد تتعرض للخطر في مكان غريب إن نزلت إلى الأسفل تتجول وحاولت فتح الباب الأمامي، فهل فهمت؟».

«أوه! هذا هو الأمر إذن؟»، قال سيباستيان متعجبًا فقد أميط اللثام عن الشبح الزائر.

«أجل، هذا هو! وأنت جبان، ويمكنك قول الأمر نفسه لجون، وكل سكان المنزل زمرة من الحمقى!»، وبهذا خرج السيد زيزمن إلى مكتبه لكتابة رسالة إلى الخال ألم، وظل سيباستيان مسمرًا في مكانه شاعرًا بالحماقة.

«لو أنني لم أسمح لجون الغبي أن يجرني إلى الغرفة وذهبت خلف ذلك الشيء الأبيض الصغير، وهذا ما سأفعله حتمًا لو رأيته الآن!» وظل يردد ذلك لنفسه، غير أن كل ركن في الغرفة صار مرئيًا في ضوء النهار.

في غضون ذلك وقفت هايدي مترقبة وهي ترتدي ثوب الأحد منتظرة ما سيحدث تاليًا، لأن تنته اكتفت بإيقاظها بهزة وألبستها ثيابها دون أي تفسير. فقد كانت الطفلة الجاهلة الصغيرة أكثر وضاعة من أن تتحدث إليها تنته.

عاد السيد زيزمن إلى غرفة الطعام مع الرسالة، وكان الإفطار جاهزًا فسأل: «أين الطفلة؟».

جيء بهايدي التي تقدمت نحوه وقالت «صباح الخير»، فنظر إلى وجهها متسائلًا وقال: «حسن، ما رأيك بهذا أيتها الصغيرة؟».

نظرت إليه هايدي في حيرة.

«عجبًا، إنك لا تعرفين شيئًا عنه كما أرى»، ضحك السيد زيزمن، «ستعودين إلى الديار اليوم، وستنطلقين حالًا».

«الديار؟!»، همهمت هايدي بصوت خفيض، وقد شحبت؛ وشعرت بتأثر شديد لوهلة أعجزها عن التنفس.

«ألا تودين سماع المزيد عن الأمر؟».

«أوه، بلى، بلى!»، قالت هايدي وقد تورد وجهها من الفرح.

«حسن إذن»، قال السيد زيزمن وهو يجلس وأومأ لها لتفعل الأمر نفسه، «ولكنك ستتناولين إفطارًا جيدًا الآن، ثم تصعدين إلى العربة».

غير أن هايدي لم تستطع ازدراد لقمة رغم محاولتها فعل ما قيل لها؛ إذ كانت متحمسة للغاية ولم تعد تعرف أحلمٌ ما يحدث أم

حقيقة، أو إن كانت ستفتح عينيها ثانية لتجد نفسها في منامتها عند الباب الخارجي.

«أخبري سيباستيان أن يأخذ معه مؤونة كافية»، قال السيد زيزمن للآنسة روتنماير التي دخلت الغرفة، «لا تستطيع الطفلة تناول شيء الآن، وهذا طبيعي تمامًا. عليك الآن الصعود إلى كلارا والبقاء معها حتى تأتي العربة»، أضاف ملتفتًا نحو هايدي.

كانت هايدي تتوق لهذا، فصعدت إلى الأعلى، ووجدت صندوقًا كبيرًا في وسط الغرفة.

«تعالي يا هايدي»، هتفت كلارا حين دخلت، «انظري إلى كل الأشياء التي وضعتها لك، ألست سعيدة؟».

وأخذت تعدد الأشياء من ثياب ومآزر ومناديل، وشتى صنوف الأشغال، ثم أضافت حين حملت سلة بسعادة، «وانظري إلى هذه». اختلست هايدي النظر داخلها وقفزت مرحًا، إذ كان فيها اثنتا عشرة لفافة مدورة بيضاء جميلة وكلها لأجل الجدة. نسيت الطفلة في غمرة سعادتها أن ساعة الفراق قد حانت وحين قال أحدهم «وصلت العربة»، لم يبق وقت للحزن.

جرت هايدي إلى غرفتها لجلب كتابها العزيز، وعرفت أن لا أحد بوسعه حزم هذا لأنه كان تحت وسادتها، إذ أبقته هايدي هناك ليلًا ونهارًا، فوضعته في السلة مع اللفافات. ثم فتحت صوانها بحثًا عن كنز آخر، ربما لم يخطر لأحد أن يحزمه. فقد ترك الوشاح الأحمر القديم إذ لم تره الآنسة روتنماير جديرًا بوضعه مع الأشياء

الأخرى، فلفته هايدي حول شيء آخر وضعته أعلى السلة، فصارت الحزمة الحمراء ظاهرة للعيان. ثم اعتمرت قبعتها الجميلة وغادرت الغرفة. لم تستطع الطفلتان قضاء كثير من الوقت في الوداع، لأن السيد زيزمن كان ينتظر أن يضع هايدي في العربة. أما الآنسة روتنماير فكانت تنتظر في أعلى الدرج لتقول لها وداعًا. وحين وقع نظرها على الحزمة الحمراء الغريبة، أخرجتها من السلة ورمتها على الأرض وقالت «كلا، كلا يا أديليد، لا يمكنك مغادرة البيت مع هذا الشيء. فيم ستحتاجينه؟!» ثم ودعت الطفلة. لم تجرؤ هايدي على أخذ الحزمة الحمراء الصغيرة، غير أنها نظرت إلى سيد البيت نظرة متضرعة كأنما قد سلب منها كنزها الأعز.

فقال السيد زيزمن بصوت حاسم جدًا «كلا، كلا. ستأخذ الطفلة إلى ديارها كل ما تشاء، الهريرات والسلحفاة إن كان هذا يسعدها، وليس علينا أن نعارض هذا يا آنسة روتنماير».

التقطت هايدي الحزمة سريعًا بنظرة فرح وامتنان. وحين وقفت قرب باب العربة، مد لها السيد زيزمن يده وقال إنه يأمل أن تتذكره هو وكلارا، وتمنى لها رحلة سعيدة، وشكرته هايدي على لطفه وأضافت «وقل وداعًا بدلًا مني للطبيب من فضلك، واشكره شكرًا جزيلًا»، لأنها لم تنس أنه قال لها الليلة الماضية: «سيكون الأمر على ما يرام غدًا»، وقد خمنت أنه ساعد في ترتيب الأمر من أجلها وكانت محقة. حملت هايدي إلى العربة ثم وضعت السلة والمؤونة، واتخذ سيباستيان مقعده في النهاية. نادى السيد زيزمن حينئذ: «أتمنى لك رحلة سعيدة»، وانطلقت العربة.

سرعان ما كانت هايدي تجلس في عربة القطار، ممسكة بسلتها بقوة في حجرها، ولم تفلتها من يدها للحظة، لأن فيها اللفافات الشهية من أجل الجدة؛ ولذا يجب أن تحافظ عليها بحرص، واختلست النظر داخلها بين الفينة والأخرى لتسعد برؤيتها. وجلست هادئة لساعات طويلة، ثم أدركت أنها عائدة إلى الجد والجبل والجدة وبيتر، وتراقصت صور كل ما ستراه ثانية أمام عينيها واحدة تلو الأخرى، وتخيلت شكل كل شيء في الديار، غير أن هذا أشغل ذهنها بخاطر آخر، ثم قالت قلقة على حين غرة: «هل أنت متأكد أن الجدة في الجبل ليست ميتة يا سيباستيان؟».

«كلا، كلا. نأمل ألا تكون كذلك، لا بد أنها ما زالت على قيد الحياة»، قال سيباستيان لتهدئتها.

ثم غرقت هايدي في أفكارها ثانية، وكانت تنظر بين الفينة والأخرى داخل السلة، لأن ما تاقت له كثيرًا كان وضع اللفافات على طاولة الجدة. واستانفت الحديث بعد صمت طويل: «ليتنا نعلم على وجه اليقين أن الجدة على قيد الحياة!».

«أجل، أجل»، قال سيباستيان نصف نائم، «لا بد أنها على قيد الحياة، فما من سبب يجعلها ميتة».

غشى النوم هايدي بعد وهلة، وبعد ليلتها المضطربة واستيقاظها الباكر نامت بهدوء شديد حد أنها لم تستيقظ حتى هزها سيباستيان من ذراعها وقال لها: «استيقظي، استيقظي! علينا أن ننزل فورًا، لقد وصلنا بال!».

كانت أمامها رحلة بالقطار لساعات عدة في اليوم التالي، فجلست هايدي ثانية واضعة السلة على ركبتيها، ولم تكن لتعطيها لسيباستيان تحت أي ظرف؛ ولم تفتح فمها اليوم، لأن حماسها الذي ازداد في كل ميل من الرحلة، أبقاها صامتة. وفجأة، ودون أن تتوقع هايدي صاح صوت «مينفيلد»، فقفزت هي وسيباستيان معًا، وقد أُخذ الأخير على حين غرة أيضًا. وفي لحظة أخرى كان كلاهما يقفان على رصيف المحطة مع صندوق متاع هايدي، وتصاعد بخار القطار مبتعدًا أسفل الوادي. فنظر إليه سيباستيان أسِفًا، لأنه آثر الوسيلة الأسهل للسفر على التسلق المنهك على القدمين، وبخاصة أن ذلك خطر إلى جانب أنه منهك في ريف كهذا، حيث كان كل شيء وكل شخص بغيضًا، بحسب رأي سيباستيان. فنظر لذلك بحذر إلى كلا الجانبين ليرى شخصًا يمكن سؤاله عن آمن الطرق إلى دورفلي.

ورأى خارج المحطة عربة بالية وحصانًا يحمّله رجل عريض المنكبين بأكياس ثقيلة جلبها القطار، فذهب إليه وسأله أي الطرق آمن إلى دورفلي.

«كل الطرق هنا آمنة»، كان الجواب الفظ.

فغير سيباستيان سؤاله وسأل أي الطرق لتفادي السقوط من الجرف، كما سأل كيف يمكن نقل الصندوق إلى دورفلي. نظر الرجل إلى الصندوق، متفحصًا إياه بعينيه، ثم تطوع بحمله في عربته إن لم يكن ثقيلًا، لأنه ذاهب إلى دورفلي. وبعد أن تبادلا بضع

كلمات اتُّفِق أخيرًا على أن يأخذ الرجل كلًا من الطفلة والصندوق، ويجد هناك أحدًا يمكن إرساله مع هايدي إلى الجبل.

«يمكنني الذهاب بنفسي، فأنا أعرف الطريق جيدًا من دورفلي»، قالت هايدي التي أصغت إلى المحادثة بانتباه. ارتاح سيباستيان كثيرًا لأنه لن يضطر لتسلق الجبل. فأخذ هايدي جانبًا وأعطاها حزمة ملفوفة ثخينة، ورسالة إلى جدها وقال لها إنها هدية من السيد زيزمن، وإن عليها إخفاءها في أسفل السلة تحت اللفافات وأن تحرص ألا تضيعها، لأن السيد زيزمن سيغتاظ جدًا إن فعلت، ولن يعاملها كالمعتاد، لذا فإن على الآنسة الصغيرة أن تفكر جيدًا بما قاله.

«سأحرص على ألا أضيعها»، قالت هايدي بثقة، فوضعت اللفافة والرسالة أسفل السلة. وضع الصندوق في هذه الأثناء في العربة، فرفع سيباستيان هايدي وسلتها إلى المقعد العالي وصافحها، وأشار إليها أن تبقي عينيها على السلة، لأن السائق يقف قريبًا وظن سيباستيان أن من الأفضل أن تكون حذرة، خاصة أنه يعرف أن عليه الاعتناء بالطفلة حتى نهاية رحلتها. جلس السائق قرب هايدي، وتحركت العربة باتجاه الجبال، أما سيباستيان فقد جلس في المحطة منتظرًا قطار عودته، سعيدًا لعدم اضطراره الذهاب في رحلة خطرة وشاقة على الأقدام.

كان سائق العربة طحان دورفلي، وكان يحمل إلى البلدة أكياس الدقيق. لم يسبق له رؤية هايدي، ولكنه عرف عنها كل شيء مثل الجميع في دورفلي، فقد عرف والديها قبلًا وشعر على الفور أن هذه

هي الطفلة التي سمع عنها كثيرًا. وأخذ يتساءل عما دعاها للعودة، وبدأ حوارًا معها في الطريق. «أنت الطفلة التي عاشت مع جدها، الخال ألم، ألست كذلك؟».

«بلى».

«ألم تلقي معاملة طيبة هناك حتى عدت سريعًا هكذا؟».

«بلى، وليس الأمر على هذا النحو، فكل شيء في فرانكفورت جميل كما ينبغي له».

«فلماذا تعودين إلى الديار إذن؟».

«لأن السيد زيزمن منحني إجازة، وإلا ما كنت سآتي».

«إن كانوا راغبين ببقائك فلماذا لم تظلي حيث كنت أفضل من الديار؟».

«لأني أؤثر أن أكون مع جدي ألف مرة في الجبل على أي مكان آخر في العالم».

«ربما غيرت رأيك حين تصلين هناك»، تمتم الطحان، ثم همس لنفسه «هذا غريب، لا بد أنها تعرف كيف يبدو الأمر».

وأخذ يصفر ولم يقل المزيد، أما هايدي فأخذت تنظر حولها وترتعد من الحماس، لأنها عرفت كل شجرة على الطريق، وفي الأعلى لاحت قمم الجبل المتعرجة تطل عليها مثل أصدقاء قدامى. فأومأت هايدي لها، وازداد حماسها كل لحظة من فرحها وشوقها، شاعرة أن عليها القفز من العربة والجري بأقصى قوتها حتى تصل القمة. لكنها

جلست هادئة ولم تتحرك، رغم الانفعال الذي يجيش داخلها. كانت الساعة تدق الخامسة حين دخلا دورفلي، وتحلق حشد من النسوة والأطفال حول العربة على الفور، لأن الصندوق والطفلة العائدة مع الطحان أثارا فضول الجميع في الجوار، تواقين لمعرفة من أين جاءا وإلى أين يذهبان ولمن يعودان. حين أنزل الطحان هايدي قالت على عجل «شكرًا لك، سيرسل جدي في طلب الصندوق»، وكانت على وشك الانطلاق حين أمسك بها أحد المارة ثم آخر، وكل منهما عنده سؤال مختلف يطرحه عليها. لكن هايدي شقت طريقها خلالهما وقد علا وجهها شيء من الاستياء جعلهما يخليان سبيلها، فقال أحدهما للآخر «ألا ترى ذعر الطفلة؟ ولا عجب من ذلك»، ثم مضيا في الحديث عن الخال ألم، وكيف أصبح في العام الماضي أسوأ من ذي قبل، دون أن ينطق بكلمة ويبدو كأنما يود قتل كل من يلتقيه، ولو كان لدى الطفلة مكان آخر تذهب إليه لما عادت إلى وكر التنين العجوز. غير أن الطحان قاطعهما، قائلًا إنه يعرف عن الأمر أكثر منهما وأخذ يقص عليهما أن سيدًا جلبها إلى مينفيلد وتولى أمر ذهابها، وأعطاه أجرته بلا مساومة، ومالًا إضافيًا له، وعلاوة على ذلك فقد أخبرته الطفلة أنها حظيت بكل ما تتمنى حيث كانت، وأن العودة إلى جدها هي رغبتها. أثارت هذه المعلومات دهشة كبيرة، وترددت في كل أنحاء دورفلي، ولم يبق بيت في المنطقة ذاك المساء لم تناقش فيه الأنباء العجيبة، عن رغبة هايدي بالتخلي عن المنزل المنعّم لتعود إلى جدها.

صعدت هايدي الدرب الشاق من دورفلي بأقصى ما استطاعت

من سرعة؛ واضطرت رغم ذلك للوقوف بين الحين والآخر لالتقاط أنفاسها إذ كانت السلة التي تحملها ثقيلة بعض الشيء، وقد أخذ الدرب يزداد وعورة كلما اقتربت من القمة. شغل هايدي هاجس وحيد «هل ستجد الجدة تجلس في ركنها المعتاد قرب دولاب الغزل، أما تزال على قيد الحياة؟». لمحت هايدي في نهاية المطاف منزل الجدة في نقرة في الجبل وأخذ قلبها يدق بعنف، فركضت أسرع وأسرع وقلبها يدق أعلى وأعلى، ثم وصلت البيت، لكنها ارتعدت ولم تستطع فتح الباب إلا بمشقة، ودخلت، دون أن تتمكن من إحداث صوت في غمرة لهاثها.

«آه، يا إلهي»، صاح صوت من الزاوية، «هكذا اعتادت هايدي أن تدخل، ليتها تكون معي مرة أخرى! من هناك؟».

«إنها أنا، أنا يا جدة»، صاحت هايدي وقد ركضت وألقت بنفسها على ركبتيها قرب المرأة العجوز وأمسكت بكفيها وتشبثت بها عاجزة عن الكلام من فرحتها. ولم تستطع الجدة قول شيء لبعض الوقت، إذ كانت هذه السعادة مفاجئة للغاية، لكنها أخيرًا مدت يدها وربتت على شعر هايدي الأجعد وقالت «بلى، بلى، هذا شعرها؛ هذا صوتها، حمدًا للرب الذي استجاب لصلواتي!» وانهمرت دموع الفرح من العينين العمياوين على كف هايدي، «هل هذه أنت يا هايدي حقًا؟ هل عدت إليّ حقًا؟».

«أجل يا جدة، إنني هنا حقًا»، أجابت هايدي بصوت مطمْئن، «لا تبكي، فقد عدت فعلًا ولن أرحل ثانية أبدًا، وسآتي لرؤيتك

كل يوم، ولن تتناولي خبزًا يابسًا لبعض الأيام، لأنني... انظري، انظري!».

وأخرجت هايدي اللفافات من السلة وكومت الاثنتي عشرة لفافة في حجر الجدة.

«آه يا صغيرتي! أي نعمة جلبتها معك؟!»، قالت المرأة العجوز وهي تتحسس اللفافات دون أن يبدو لها نهاية، «غير أنك أنت النعمة الكبرى يا هايدي»، ولمست شعر الطفلة ثانية ومررت يدها على وجنتيها الساختنين وقالت «قولي شيئًا يا طفلتي، حتى أسمع صوتك».

ثم أخبرتها هايدي كم كانت تعسة، وهي تتخيل أن الجدة ماتت وهي بعيدة ولن تتناول اللفافات البيض، وأنها لن تراها ثانية أبدًا.

دخلت أم بيتر ووقفت للحظة تغمرها الدهشة وقالت: «عجبًا، إنها هايدي، هل يعقل هذا؟».

نهضت هايدي ولم تستطع بريجيتا قول ما يكفي لإعجابها بثوب الطفلة ومظهرها، فمشت حولها وهي تردد طوال الوقت: «لو كان بوسعك رؤيتها أيتها الجدة، ورؤية الثوب الجميل الذي ترتديه، لما عرفتها. وهذه القبعة المريشة لك أيضًا كما أظن؟ اعتمريها حتى أرى كيف تبدو عليك».

«كلا، أفضّل ألا أفعل»، أجابت هايدي بحزم، «يمكنك أخذها إن شئت، فأنا لا أريدها، وما زالت لدي قبعتي». ولدى قولها هذا

حلت هايدي صرتها الحمراء وأخرجت قبعها القديمة، التي غدت أكثر رثاثة أثناء الرحلة. غير أن هذا لم يكدر هايدي، إذ لم تنس ما قاله جدها لديته إنه لا يود رؤيتها ولا رؤية قبعتها المريشة ثانية، وهذا ما جعلها تحرص على الاحتفاظ بقبعتها القديمة، فهي لم تكف عن التفكير بأمر العودة إلى جدها يومًا. غير أن بريجيتا قالت لها ألا تكون حمقاء فتتخلى عن القبعة، وإنها لا تفكر بأخذ قبعة جميلة كهذه، وإن لم ترد هايدي اعتمارها فيمكن لها أن تبيعها بسعر جيد. لكنّ هايدي لزمت قرارها وخبأت القبعة بهدوء في زاوية خلف كرسي الجدة. ثم خلعت ثوبها الجميل ولفت وشاحها الأحمر على تنورتها الداخلية، وأمسكت بكف المرأة العجوز وقالت: «علي الذهاب إلى جدي، لكني سآتي غدًا، ليلة طيبة يا جدة».

«أجل، تعالي ثانية، احرصي على أن تأتي غدًا»، توسلت إليها الجدة وهي تضغط كفي هايدي بين يديها، غير راغبة في تركها تذهب.

«لماذا خلعت هذا الثوب الجميل؟»، سألتها بريجيتا.

«لأنني أؤثر العودة إلى جدي مثلما أنا، وأخشى ألا يعرفني إن لم أفعل، فأنت بالكاد فعلت في بادئ الأمر».

مشت معها بريجيتا إلى الباب، وقالت هناك بصوت غريب بعض الشيء: «كان عليك إبقاء ثوبك، لأنه سيعرفك. ولكن كوني حذرة لأن بيتر يقول لي إن الخال ألم في مزاج سيء دومًا ولا يتحدث مطلقًا».

تمنت لها هايدي ليلة طيبة وواصلت طريقها صعودًا إلى الجبل، حاملة سلتها على ذراعها. تلألأت من حولها المنحدرات الخضراء الوعرة في ضوء المساء، وسرعان ما لاح أمامها الحقل الثلجي الكبير البراق. ظلت هايدي تتوقف لتنظر خلفها، لأن القمم العالية قد صارت وراءها وهي تصعد، وسقط فجأة وميض أحمر على العشب قرب قدميها، فنظرت خلفها ثانية، إذ لم تتذكر كم يبدو خلابًا، ولا أنها رأت شيئًا يضاهيه في أحلامها. وهناك ارتفعت قمتا الجبل العاليتين في الهواء مثل شعلتين عظيمتين، وتحول الحقل الثلجي إلى اللون القرمزي، وسبحت الغيوم الوردية اللون في السماء فوقها. وتحول العشب على الجبل إلى اللون الذهبي، وغدت كل الصخور لامعة وسبح الوادي بأسره في سديم ذهبي. وحين وقفت هايدي تحدق بكل هذا الجمال من حولها انهمرت دموعها على وجنتيها فرحًا وسعادة، فضمت كفيها دون تفكير ورفعت عينيها نحو السماء وشكرت الرب بصوت عالٍ لأنه أعادها إلى الديار، وشكرته لأن كل شيء جميل كالمعتاد بل أكثر جمالًا مما ظنت، وأنه عاد ملكها ثانية. وكانت تطير من الفرحة والامتنان ولم تعثر على كلمات تكفي لشكر الرب، ولم تستطع التقاط نفسها إلا حين بدأ البهاء يخفت، فجرت بسرعة شديدة. وفي وقت قصير لمحت أعالي أشجار التنوب فوق سطح الكوخ، ثم السطح نفسه، ثم الكوخ كله في نهاية المطاف، وأمامها جلس الجد كما في الأيام الخوالي يدخن غليونه، واستطاعت رؤية أشجار التنوب تتمايل في الريح. فمضت قدماها الصغيرتان أسرع فأسرع، وقبل أن يتمكن الخال ألم من رؤية القادم اندفعت إليه هايدي ورمت سلتها

ولفت ذراعيها حول عنقه، وفي غمرة حماسها لرؤيته ثانية لم تستطع قول شيء أكثر من «جدي! جدي! جدي!» مرة تلو الأخرى.

ولم ينبس الرجل العجوز ببنت شفة، واخضلت عيناه للمرة الأولى منذ سنوات واضطر لتمرير يده عليهما. ثم فك ذراعي هايدي وأجلسها على ركبتيه، وبعد أن نظر إليها للحظة قال «ها قد عدت إليّ يا هايدي إذن، كيف حدث هذا؟ إنك لا تبدين مثل سيدة مهذبة، هل أبعدوك؟».

فقلت هايدي بلهفة: «أوه، كلا يا جدي. لا تفكر على هذا النحو، فقد كانوا كلهم طيبين معي؛ كلارا والجدة والسيد زيزمن. ولكن كما تعرف يا جدي، لم أطق صبرًا حتى أعود إلى الديار. لقد ظننت أنني سأموت لأني شعرت أني عاجزة عن التنفس، غير أنني لم أقل شيئًا لأن ذلك سيبدو جحودًا. ثم ذات صباح وعلى حين غرة قال السيد زيزمن لي -لكني أظن الأمر من فعل الطبيب- ولكن ربما كان ذلك كله في الرسالة»، ونزلت هايدي وجلبت اللفافة والرسالة وسلمتهما إلى جدها.

«هذا لك»، قال الجد واضعًا اللفافة بجانبه على المقعد، ثم فتح الرسالة وقرأها بتمعن ووضعها في جيبه دون أن يقول حرفًا.

«هل تظنين أنك ما زلت تستطيعين شرب الحليب معي يا هايدي؟»، سألها وهو يمسك بيد الطفلة ليدخلا الكوخ، «ولكن أحضري نقودك معك، يمكنك بها شراء سرير وملاءات وفساتين لك تكفيك بضع سنين».

«أنا واثقة أنني لا أريدها، فلدي سرير من قبل ووضعت كلارا لي الكثير من الثياب في صندوقي الذي لن أحتاجه بعد اليوم».

«خذيها وضعيها في الصوان، أنا واثق أنك ستحتاجينها يومًا».

أذعنت هايدي وقفزت بسعادة خلف جدها داخل البيت، ومرت على الأركان كلها مبتهجة لرؤية كل شيء مرة أخرى، ثم صعدت السلم، لكنها توقفت ونادت بصوت ملؤه الدهشة والكدر «أوه، لقد اختفى فراشي يا جدي».

«يمكننا صنع واحد آخر سريعًا»، أجابها من الأسفل، «لم أعرف أنك عائدة، تعالي الآن واشربي حليبك».

نزلت هايدي وجلست على مقعدها العالي في مكانه القديم، ثم حملت صُحيْفتها وشربت الحليب بشوق، كأنها لم تشرب شيئًا لذيذًا كهذا من قبل وقالت بعد أن وضعت وعاءها «طعم حليبنا أشهى من أي شيء آخر في العالم يا جدي».

سُمع صفير حاد في الخارج، فانطلقت هايدي مثل البرق. ووجدت العنزات تتقافز وتتواثب بين الصخور وبيتر في وسطها. وحين لمح هايدي تجمد من الدهشة وحدق بها عاجزًا عن الكلام، فقالت هايدي: «مساء الخير يا بيتر»، ثم جرت بين العنزات. «هل تعرفاني يا لتل سوان ولتل بير؟» وتبين أن العنزتين ميزتا صوتها حالًا لأنهما أخذتا تفركان رأسيهما بها وتثغوان عاليًا كأنهما من الفرح. وحين نادت العنزات الأخرى بأسمائها واحدة تلو واحدة، تقدمت كلها مسرعة نحوها باندفاع وتحلقت حولها. قفزت غرينفلنتش في

الهواء نافذة الصبر وفوق اثنتين من رفيقاتها، بغية الدنو أكثر، وحتى الخجولة الصغير سنوفليك ركلت تِـرك الكبير بعيدًا عن دربها بعزم ما جعله يتراجع من جسارتها، رافعًا لحيته في الهواء كأنما ليقول أنت تعرفين من أكون.

طار صواب هايدي من الفرح لتوسطها أصدقائها القدامى ثانية، ولفت ذراعيها حول الصغيرة سنوفليك، وربتت على غرينفلنتش الجموح، بينما تدافعت حولها العنزات المحبة الودودة من كل الجهات، ثم اقتربت في نهاية المطاف إلى حيث كان بيتر يقف، دون أن يتغلب على دهشته.

«اقترب يا بيتر وحيني تحية المساء»، قالت هايدي.

«ها قد عدت إذن؟»، عثر على كلمات يقولها أخيرًا، واقترب ليصافح هايدي التي مدت يدها تحية، ثم قال لها السؤال نفسه الذي اعتاد قوله في الأيام الخوالي حين يعودان إلى البيت مساء: «هل ستخرجين معي ثانية في الغد؟».

«ليس غدًا، بل ربما بعد غد، لأن علي النزول إلى الجدة غدًا».

«أنا سعيد بعودتك»، قال بيتر وقد أشرق وجهه سرورًا، ثم استعد لمتابعة طريقه مع العنزات، غير أنه لم يلق عناء معها هكذا من قبل. لكنه جمعها أخيرًا بالحيلة والتهديد، وبعد أن ذهبت هايدي واضعة يدًا على رأس كل واحدة من عنزتي جدها، فاستدار القطيع كله وجرى خلفها. واضطرت هايدي لدخول العرزال مع العنزتين وإغلاق الباب، وإلا لما عاد بيتر إلى البيت تلك الليلة. وبعد أن

دخلت هايدي إلى البيت، وجدت فراشها جاهزًا لها، إذ كُوم التبن وفاحت رائحته الذكية، لأنه أدخل لتوه وبسطه الجد بعناية ومد عليه ملاءات نظيفة. واستلقت هايدي عليه بقلب سعيد تلك الليلة، وكان نومها أعمق من أي يوم في العام الماضي. نهض الجد لعشر مرات على الأقل آناء الليل وصعد ليرى إن كانت هايدي بخير ولا تبدو عليها علامات الانزعاج، وليتأكد من أن التبن الذي كومه في النافذة المدورة كان يمنع القمر من أن يشع بقوة عليها. لكن هايدي لم تتحرك، فليست بحاجة للتجوال الآن لأنها روت الشوق الحارق في قلبها فرأت الجبال العالية والصخور تشتعل في ضوء المساء، وسمعت الريح في أشجار التنوب؛ لقد عادت إلى البيت ثانية.

الفصل الرابع عشر
أجراس الأحد

كانت هايدي تقف تحت أشجار التنوب بانتظار جدها، الذي سينزل معها إلى بيت الجدة، ثم سيذهب إلى دورفلي لجلب صندوقها. كانت ترغب بمعرفة إن كانت الجدة أحبت اللفافات البيضاء، ولم تطق صبرًا حتى تراها وتسمعها ثانية. لكن الوقت لم يعد يضنيها، لأنها لم تمل سماع الصوت الأليف للأشجار، ولا تنشّق الكثير من الشذى الذي هب عليها من المراعي الخضراء، حيث تلألأت الزهور ذات الرؤوس الذهبية في ضوء الشمس، وبدا ذلك لعينيها احتفالًا. خرج الجد ونظر حوله ثم قال بصوت جذل «حسن، يمكننا الانطلاق الآن». كان يوم السبت، اليوم الذي يرتب فيه الجد وينظف كل شيء داخل البيت وخارجه، وقد كرس هذا اليوم لهذا العمل ليتمكن من مرافقة هايدي بعد الظهر، وبدا المكان كله نظيفًا كما يحب رؤيته. فافترقا قرب كوخ الجدة ودخلت هايدي. سمعت الجدة وقع أقدامها تقترب وحيتها ما إن وطئت العتبة: «هل هذه أنت يا طفلتي؟ هل عدت ثانية؟».

وأمسكت بكف هايدي ووضعتها في كفها، لأنها لم تزل تخشى أن تؤخذ منها الطفلة ثانية. ولا بد لها أن تخبر هايدي كم أحبت الخبز الأبيض، وكم شعرت بالقوة أكثر لقدرتها على تناوله، ثم تابعت أم بيتر قائلة إنها واثقة أن أمها ستستعيد قواها لو استطاعت أن تأكل الخبز الأبيض لأسبوع، غير أنها تخشى نفاد اللفافات، فلم تتناول إلا واحدة فحسب. أنصتت هايدي لكل ما قالته بريجيتا وجلست تفكر لوهلة، ثم خطرت لها فكرة فجأة.

«أعرف ما سأفعله يا جدة»، قالت بلهفة، «سأكتب إلى كلارا وسترسل لي القدر نفسه من اللفافات ثانية، إن لم يكن أكثر مما لدينا بضعفين، لأنني وضعت في الصوان كومة كبيرة، وحين أُخذت مني وعدتني أن تعيد إليّ مثلها، وأنا واثقة أنها ستفعل».

قالت بريجيتا: «هذه فكرة جيدة، غير أنها ستصبح قاسية وبائتة. يعد الخباز في دورفلي اللفافات البيض، ويمكننا الحصول على شيء منها بين الحين والآخر، غير أنني لا أستطيع إلا دفع ثمن الخبز الأسود».

وخطرت لهايدي فكرة لامعة أخرى وقالت بنظرة فرح: «أوه، لدي الكثير من المال يا جدة»، صاحت بجذل وهي تقفز في الغرفة من فرحتها، «وأعرف الآن ما سأفعله به. لا بد لك أن تحصلي على لفافة بيضاء طازجة كل يوم، واثنتين يوم الأحد، ويمكن لبيتر أن يجلبها من دورفلي».

أجابت الجدة: «كلا يا صغيرتي، لا يمكنني السماح لك بذلك،

فلم يعط لك المال لهذا الغرض، وعليك إعطاؤه لجدك، وهو سيخبرك كيف تنفقينه».

ولكن ما من شيء يعوق هايدي عن نواياها الحسنة، وواصلت القفز قائلة المرة تلو المرة بنبرة نشوى: «يمكن للجدة الآن أن تحصل على لفافة كل يوم وستغدو قوية، أوه يا جدتي»، وقالت فجأة بمزيد من الجذل في صوتها «وإن غدوت قوية سيعود الضياء إليك، ربما كان مرد العتمة لوهنك فحسب». لم تقل الجدة شيئًا، إذ لم ترغب بإفساد سعادة الطفلة. لمحت هايدي وهي تقفز كتاب الأغاني العائد للجدة، وخطرت لها فكرة أخرى: «إن بوسعي القراءة أيضًا يا جدة، هل تودين أن أقرأ لك واحدة من الترانيم من كتابك القديم؟».

«أوه، أجل»، قالت الجدة دهشة ومسرورة، «ولكن هل تستطيعين القراءة حقًا يا صغيرتي؟».

صعدت هايدي على كرسي وأنزلت الكتاب، محدثة غيمة من الغبار، لأنه وضع على الرف دون مساس لوقت طويل. فمسحته هايدي وجلست على مقعد قرب المرأة العجوز، وسألتها أي ترنيمة عليها أن تقرأ.

«اقرئي ما شئت يا صغيرتي، ما شئت»، ودفعت الجدة دولاب غزلها جانبًا وجلست في ترقب ولهفة بانتظار أن تبدأ هايدي. قلبت هايدي الصفحات وقرأت سطرًا بهدوء لنفسها هنا وهناك، وقالت في نهاية المطاف «هذه واحدة عن الشمس يا جدة، سأقرأ هذه». وأخذت هايدي تقرأ بمزيد من الدفء في صوتها كلما تابعت:

ينبلج الصباح،
فتغدو الأرض
دافئةً ومشرقةً
في الضوء الذهبي
لأن الفجر قد بدد غيمات الليل.
صنيع الرب
يُرى في الأرجاء
والأشياء صغيرها وكبيرها
تستفيض بالثناء عليه
فأين لا تُرى علامات حبه؟
كل الأشياء ستمضي
لكن الرب يبقى
بقوة راسخة
وتتحقق إرادته
راسخة وثابتة إرادته.
آلاؤه الكثيرة
لن تتضاءل أبدًا
رغم الحزن والخوف
سيصول القلب على
بحار الحياة الهائجة وينتصر
وسيكون الفرح نصيبنا
في تلك الجنة المباركة

حيث بعد العاصفة
نجد مستراحنا
وسأنتظر في هدوء
فوقت الرب هو الأفضل

جلست الجدة وضمت كفيها وقد غمرت وجهها فرحة لا توصف، فرحة لم ترها هايدي من قبل، رغم أن الدموع انهمرت على خديها في الوقت نفسه. حين فرغت هايدي توسلت إليها قائلة: «اقرأيها مرة أخرى يا طفلتي، مرة أخرى فحسب».

وبدأت الطفلة ثانية، سعيدة بالأبيات بقدر سعادة الجدة:

وسيكون الفرح نصيبنا
في تلك الجنة المباركة
حيث بعد العاصفة
نجد مستراحنا
وسأنتظر في هدوء
فوقت الرب هو الأفضل.

«آه يا هايدي، لقد أعاد هذا النور إلى قلبي! أي راحة منحتها لي؟!».

وظلت المرأة العجوز تردد الكلمات السعيدة، وقد أشرق وجه هايدي سرورًا، ولم تبعد نظرها عن وجه الجدة الذي لم يبد هكذا قبلًا. فلم يعد تعلوه ملامح الكدر، بل كان مشرقًا بالسلام والفرح كأنها نظرت بعينين صافيتين إلى الجنة أو الفردوس.

طرق أحدهم النافذة ونظرت هايدي فوجدت جدها يشير إليها لتعود إلى البيت معه. فوعدت الجدة قبل مغادرتها أنها ستكون معها في اليوم التالي، وحتى إن خرجت مع بيتر فإنها ستقضي نصف النهار معه فحسب، لأن فكرة إعادتها النور والسعادة للجدة ثانية أبهجتها كثيرًا، أكثر من خروجها إلى الجبل المشمس مع الزهور والعنزات. وحين خرجت لحقتها بريجيتا حاملة القبعة والثوب اللذين تركتهما، فوضعت هايدي الثوب على ذراعها، إذ قالت في نفسها إن الجد قد رأى هذا الثوب من قبل، لكنها رفضت بعناد استعادة القبعة، وإن بوسع بريجيتا الاحتفاظ بها لنفسها لأنها لن تعتمرها ثانية. كانت هايدي متخمة بوقائع الصباح، وأخذت في الحال تقص على جدها كيف يمكن جلب الخبز الأبيض من دورفلي كل يوم إن توفرت النقود، وأن الجدة غدت أقوى وأسعد في الحال، وأن النور عاد إليها، ثم عادت إلى موضوع اللفافات: «إن لم تأخذ الجدة المال، فهلا أعطيته لي يا جدي، فأعطي بيتر ما يكفي لشراء لفافة كل يوم ولفافتين يوم الأحد؟».

«ولكن ماذا عن السرير؟ سيكون من الجميل أن تحظي بسرير لائق، ثم سيكون لدينا الكثير مما يكفي الخبز».

غير أن هايدي لم تدع جدها حتى سمح لها بفعل ما شاءت، وقالت إنها نامت في فراش التبن نومًا أفضل من أي فراش ووسادة في فرانكفورت. فقال في نهاية المطاف: «المال مالك، فافعلي به ما شئت، ويمكنك أن تشتري به الخبز للجدة لسنوات قادمة».

صرخت هايدي فرحًا لفكرة أن الجدة لن تضطر لأكل الخبز الأسود اليابس وقالت «أوه! يا جدي. كل شيء أسعد مما كان عليه في حياتنا من قبل!»، وغنت وقفزت ممسكة بيد جدها خلية القلب مثل عصفور. غير أنها غدت هادئة على حين غرة وقالت: «لو أن الرب جعلني أعود من فوري، كما صليت، لكان كل شيء مختلفًا، ولما كان عندي سوى القليل من الخبز لأجلبه للجدة، ولما تعلمت القراءة التي أسعدتها كثيرًا. غير أن الرب دبّر الأمر بطريقة أفضل بكثير مما كنت سأفعل؛ وقد حدث كل شيء مثلما قالت الجدة الأخرى. أوه يا لسعادتي أن الرب لم يمنحني ما صليت وبكيت من أجله في الحال! وسأصلي الآن للرب دومًا كما قالت لي وأشكره دومًا، وإن لم يمنحني سؤلي سأقول إن هذا مماثل لما حدث في فرانكفورت؛ وإنني واثقة أن الرب سيمنحني شيئًا أفضل. لذا سنصلي كل يوم يا جدي ولن ننساه ثانية، وإلا فإنه سينسانا، أليس كذلك يا جدي؟».

«وماذا لو نسيه أحد ما؟»، قال الجد بصوت خفيض.

«سيمضي كل شيء على نحو سيء عندئذ، لأن الرب سيتركنا نذهب حيث نشاء، وحين نغدو تعسين وفقراء ونبدأ بالنواح على ذلك لن يشفق علينا أحد، ولكنهم سيقولون إنك ابتعدت عن الرب، ولذا تركك الرب وشأنك، وهو الذي بوسعه مساعدتك».

«هذا صحيح يا هايدي، أين تعلمت هذا؟».

«من الجدة، لقد أوضحت لي كل شيء».

سار الجد لوهلة دون أن ينبس بحرف، ثم قال كأنما يتابع قطار

أفكاره: «وإن حدث الأمر مرة هكذا، فسيحدث على الدوام، ولا يمكن لأحد العودة، وذلك الذي نسي الرب، قد نسي للأبد».

«أوه، كلا يا جدي، يمكننا العودة. لأن الجدة أخبرتني بذلك، وهكذا حدث في الحكاية الجميلة في كتابي، لكنك لم تسمعها بعد، غير أننا سنصل البيت بعد قليل، وسترى كم هي جميلة». وجهدت هايدي في غمرة لهفتها لصعود المطلع الوعر أسرع فأسرع، وحين بلغا قمة الجبل أفلتت يد جدها ودخلت إلى الكوخ. أنزل الجد من على كتفيه السلة التي جلب فيها قسمًا من محتويات الصندوق الذي كان ثقيلًا جدًا لحمله إلى الأعلى على حاله. ثم جلس على مقعده وأخذ يفكر.

سرعان ما خرجت هايدي تتأبط كتابها وقالت حين رأت أنه اتخذ مجلسه «هذا حسن يا جدي»، وجلست قربه بسرعة وفتحت كتابها على تلك الحكاية، لأنها قرأتها كثيرًا فانفتحت الصفحات عليها من تلقاء نفسها. وأخذت هايدي تقرأ بصوت حنون عن الابن الذي عاش سعيدًا في البيت، وخرج إلى الحقول مع قطيع أبيه، وكان مرتديًا ثيابًا جميلة ووقف متكئًا على متاع الراعي العائد له يراقب الشمس وهي تنحدر للمغيب، كما يظهر في الصورة. غير أنه أراد فجأة أن يكون له قطيعه ونقوده وأن يكون سيد نفسه، وطلب من أبيه أن يعطيه حصته، وترك بيته ومضى وبدد كل ثروته. ولما لم يبق له شيء، عمل لدى سيد لا يملك قطعانًا وحقولًا كأبيه، بل خنزيرًا لحراسته، فاضطر لمراقبته ولم يعد لديه ما يرتديه سوى

أسمال، ولا ما يأكله سوى قشور الحبوب، كالتي يتناولها الخنزير. ثم أخذ يتذكر حياته الرغدة في البيت ومعاملة أبيه الطيبة له وجحوده نحوه، وبكى حزنًا وشوقًا. وقال في نفسه: «سأقوم وأذهب إلى أبي وأقول له «أنا لا أستحق أن أدعى ابنًا، فاجعلني مثل واحد من الخدم»». وحين مضى قدمًا رآه أبوه... توقفت هايدي عن القراءة هنا وقالت: «ما الذي تظنه سيحدث الآن؟ هل تظن الأب ما زال غاضبًا وسيقول له: «أخبرتك بذلك!؟» حسن، أنصت إلى ما سيأتي». رآه أبوه وأشفق عليه فجرى نحوه وعانقه وقبله. فقال له الابن: «لقد ارتكبت إثمًا بحق السماء وتحت أنظارها، ولست جديرًا أن أدعى ابنًا بعد اليوم». لكن الأب قال لخدمه: «هاتوا أفضل الثياب وألبسوها له، وضعوا خاتمًا في يده وحذاء في قدميه، واجلبوا العجل المسمّن واذبحوه، ودعونا نأكل ونفرح، لأن ابني قد مات وبعث حيًا، لقد ضل ثم عاد»، وأخذوا يمرحون.

«أليست هذه بحكاية جميلة يا جدي؟»، قالت هايدي في حين ظل الجد جالسًا دون كلام، رغم أنها توقعت أن يبدي سعادته ودهشته.

فأجاب «أنت محقة يا هايدي؛ إنها لحكاية جميلة»، غير أنه بدا حزينًا عند قوله هذا، فصمتت هايدي وجلست تنظر بهدوء إلى صورها. ثم دفعت بكتابها أمامه بلطف وقالت: «انظر كم يبدو سعيدًا هناك»، وأشارت بإصبعها إلى هيئة الابن الضال العائد، الواقف قرب أبيه مرتديًا لباسًا جديدًا كأحد أبنائه ثانية.

وبعد بضع ساعات، حين خلدت هايدي إلى فراشها وغطت في النوم سريعًا، صعد الجد السلم ووضع المصباح قرب فراشها فسقط الضوء على الطفلة النائمة. كان كفاها مضمومتين كأنها نامت وهي تتلو صلواتها، وقد كسا وجهها السلام والطمأنينة، وفيه شيء جذب الجد، لأنه وقف يحدق بها لوقت طويل دون أن ينطق بحرف. وفي نهاية المطاف ضم كفيه هو أيضًا وأحنى رأسه وقال بصوت خفيض: «لقد أخطأت بحقك أيها الأب، ولا أستحق أن أدعى ابنًا»، وانهمرت دمعتان كبيرتان على خدي الرجل العجوز.

وقف في الصباح الباكر من اليوم التالي أمام كوخه ينظر بهدوء حوله. لقد أشرقت الشمس الساطعة على الجبل والوادي من جديد، ورنت أصوات بضعة أجراس من الوادي، وغنت الطيور أغنيتها الصباحية على أشجار التنوب. «تعالي يا هايدي! لقد طلعت الشمس! ارتدي أجمل ثيابك، لأننا ذاهبان إلى الكنيسة معًا!».

لم تتأخر هايدي في الاستعداد، فقد كان أمرًا غريبًا من جدها أن يدعوها لتسرع. فوضعت ثوب فرانكفورت الجميل ونزلت بسرعة، ولكنها وقفت حين رأت جدها، ونظرت إليه في دهشة فقالت: «عجبًا يا جدي! لم أرك تبدو هكذا من قبل! والمعطف ذا الأزرار الفضية! أوه، إنك تبدو أنيقًا في معطف الأحد!».

ابتسم الرجل العجوز وأجاب: «وأنت أيضًا، هلمي بنا!» فأخذ يد هايدي في يده ونزلا الجبل معًا. كانت الأجراس تدق في كل

ناحية، ويصبح صوتها أعلى وأفخم كلما اقتربا من الوادي، وأنصتت هايدي إليه بسرور: «أصغِ إليها يا جدي! إنها مثل مهرجان كبير!».

كان المصلون قد تجمعوا سلفًا والإنشاد بدأ حين دخلت هايدي وجدها الكنيسة في دورفلي وجلسا في المؤخرة. ولكن قبل أن تنتهي الترنيمة لكز كل منهم جاره وهمس: «أترى؟ الخال ألم في الكنيسة!».

وسرعان ما عرف الجميع في الكنيسة بأمر قدوم الخال ألم، وظلت النسوة يستدرن للنظر حتى أنهن أضعن أدوارهن في الغناء. غير أن الجميع أنصت بانتباه حين بدأت الموعظة، لأن الواعظ تحدث بدفء وامتنان شعر معه أولئك الحاضرون بأثر كلماته، كأنما أصابهم جميعًا فرح عظيم. أمسك الخال ألم يد هايدي في نهاية القداس، وبمغادرته الكنيسة شق طريقه نحو بيت القس. ونظر بقية المصلين إليه بفضول، وبعضهم تبعه ليرى إن كان سيدخل بيت القس حقًا، وهذا ما فعله. ثم تحلقوا في جماعات وتحدثوا عن هذا الأمر الغريب، مبقين أعينهم على باب القس ليروا خروج الخال ألم وهو يبدو غاضبًا أو شكسًا، أو إن مر اللقاء بسلام، لأنهم لم يتخيلوا ما أنزل الرجل العجوز، وما معنى هذا كله. تبنى بعضهم، على أية حال، نبرة جديدةً وعبروا عن رأيهم بأن الخال ألم ليس سيئًا كما ظنوا، «انظروا كيف أمسك الطفلة الصغيرة بعناية»، ووافقهم آخرون قائلين إنهم ظنوا دومًا أن الناس يبالغون بشأنه، فلو كان سيئًا بحق لخشي دخول منزل القس. ثم قال الطحان كلمته: «ألم أخبركم بذلك منذ البدء؟ أي طفلة هذه التي تهرب من مكان تحظى

فيه بالكثير من الطعام والشراب ومن كل شيء أحسنه، وتعود إلى جدها القاسي والجلف، وهي تخافه؟».

ثم أخذ الجميع يشعرون بالود تجاه الخال ألم، وجاءت النسوة ورددن كل ما أخبرهن به بيتر وجدته، ثم وقفوا أخيرًا مثل أناس ينتظرون صديقًا قديمًا اشتاقوا له طويلًا وافتقدوا صحبته.

في أثناء ذلك دخل الخال ألم بيت القس وقرع باب المكتب، فخرج إليه القس وحياه، دون أن يفاجأ به، كأنما توقع رؤيته هناك. فقد لمح الرجل العجوز في الكنيسة على الأرجح. فصافحه بحرارة، وعجز الخال ألم عن الكلام في بادئ الأمر، إذ لم يتوقع استقبالًا ودودًا كهذا. وفي نهاية المطاف استجمع قواه وقال: «لقد جئت أطلب منك أيها القس أن تنسى الكلمات التي قلتها لك حين زرتني، وأن أتوسل إليك ألا تظن بي ظن السوء لأني عارضت بشدة الاستماع لنصحك الصادق. لقد كنت محقًا وأنا مخطئ، غير أنني عزمت أمري على اتباع مشورتك وأن أعثر لنفسي على بيت في دورفلي لقضاء الشتاء، لأن الطفلة ليست قوية قوة تجعلها تحتمل البرد القارس أعلى الجبل. وإن نظر الناس هنا إليّ بعين الريبة، وأني شخص لا يوثق به، فأنا أعرف أن هذا خطئي غير أني واثق أنك لن تفعل».

لمعت عينا القس من السعادة، وضغط يد صديقه القديم وقال بحرارة: «لقد ذهبت إلى الكنيسة الصحيحة قبل قدومك إلي يا جاري، إنني مبتهج للغاية. ولن تندم على قدومك للعيش

بيننا ثانية. وستكون دومًا محل ترحيب بالنسبة إلي بوصفك جارًا وصديقًا عزيزًا، وأتطلع لقضاء الكثير من أماسي الشتاء البهيجة معًا، لأنني أثمّن صحبتك، وسنعثر على بعض الأصدقاء الجيدين للطفلة أيضًا». ووضع القس يده بلطف على شعر الطفلة الأجعد وأخذ يدها وهو يتقدم نحو الباب مع الرجل العجوز. ولم يودعه حتى صارا في الخارج، وهكذا رآهما كل الواقفين خارجًا يتصافحان مثل صديقين عزيزين يفترقان. ولم يكد يغلق الباب خلفه حتى تقدم جمع المصلين من الخال ألم لتحيته، وكل منهم يجهد ليكون أول من يصافحه، وقد مدت أيادٍ كثيرة لم يعرف الخال ألم بأيها يبدأ أولًا وقال بعضهم: «إننا سعداء لرؤيتك بيننا ثانية»، وقال آخر: «تمنيت دومًا أن أحظى بحديث معك مرة أخرى». وانهالت التحيات من شتى الصنوف من كل حدب وصوب، وحين أخبرهم الخال ألم أنه يفكر بالعودة إلى بيته القديم في دورفلي لقضاء الشتاء، عمت جوقة من الفرح يظن معها المرء أنه أكثر الأشخاص المحبوبين في دورفلي كلها، وأنهم لا يعرفون كيف يعيشون دونه. رافقه معظم أصدقائه وهايدي لقسم من الطريق صعودًا نحو الجبل، وكلما ودعه أحدهم جعله يعده أن يأتي إليه ويزوره في المرة القادمة التي ينزل فيها إلى دورفلي. وحين وقف الرجل العجوز وحده مع الطفلة ناظرًا إلى الأشخاص العائدين، أشرق وجهه بالنور كأنما ينعكس من ضوء داخلي في القلب. قالت هايدي وهي تنظر إليه بعينيها الصافيتين الثابتتين: «إنك تبدو أجمل اليوم وأجمل يا جدي، لم أرك هكذا من قبل».

«أتظنين ذلك؟»، أجاب باسمًا، «حسن، إنني أسعد مما أستحق اليوم يا هايدي حقًا، أسعد مما ظننته ممكنًا، من الجيد أن تتصالح مع الرب والإنسان! لقد كان الرب كريمًا جدًا معي حين أرسلك إلى كوخي».

وحين وصلا منزل بيتر فتح الجد الباب ودخل فورًا. «صباح الخير أيتها الجدة»، قال، «أظننا بحاجة لشيء من رفو الثياب قبل أن تهب رياح الخريف».

«يا إلهي الرحيم، هذا الخال!»، صاحت الجدة في دهشة وفرح، «لقد عشت حتى أشهد شيئًا كهذا! والآن يمكنني أن أشكرك على كل ما فعلته من أجلي. ليجازِك الرب! ليجازِك الرب!»، ومدت يدًا مرتعشة نحوه، وحين صافحها الجد بحرارة تابعت وهي لم تزل ممسكة بيده: «ولدي شيء في قلبي أود قوله، صلاة أتلوها من أجلك! وإن جرحتك بأي شكل فلا تعاقبني بإبعاد الطفلة حتى أرقد تحت العشب. أوه، إنك لا تعلم ما تعنيه هذه الطفلة لي!»، وجذبت الطفلة إليها لأن هايدي أخذت موقعها المعتاد قرب الجدة.

«لا تخافي أيتها الجدة»، قال الخال بصوت مطمْئن، «لن أعاقبك ولا أعاقب نفسي بفعل أمر كهذا. إننا كلنا معًا، وصلي للرب أن نظل هكذا لوقت طويل».

أخذت بريجيتا الخال جانبًا نحو زاوية من الغرفة وأرته القبعة المريشة، مفسرة له كيف وصلت هناك، ومضيفة أنها لن تأخذ شيئًا كهذا من الطفلة طبعًا.

غير أن الجد نظر نحو هايدي دون أي أثر لاستياء وقال: «هذه القبعة قبعتها، وإن لم ترغب باعتمارها بعد اليوم فلها الحق بقول ذلك وإعطائها لك، لذا خذيها من فضلك».

سرت بريجيتا بذلك للغاية: «إنها تساوي أكثر من عشرة شلنات!»، قالت وهي تحملها بمزيد من الإعجاب، «يا للنعيم الذي جلبته هايدي معها من فرانكفورت! أفكر أحيانًا بإرسال بيتر لوقت قصير فقد يجديه ذلك نفعًا، فما رأيك أيها الخال؟».

وبدت في عين الجد نظرة سرور، فقد رأى أن الأمر لن يضر بيتر، ولكن عليه الانتظار حتى تسنح فرصة مواتية قبل الذهاب. وفي هذه اللحظة دخل موضوع حديثهما، في عجلة كبيرة كما يبدو، ضاربًا رأسه بقوة بالباب في غمرة عجلته، فارتج كل شيء في الغرفة. فوقف بعد هذا لاهثًا منقطع الأنفاس وحمل رسالة. كان هذا حدثًا آخر سعيدًا، فلم يحدث أمر مماثل من قبل، والرسالة موجّهة إلى هايدي وقد سُلمت إلى مكتب البريد في دورفلي. وجلسوا جميعًا حول المائدة لسماع ما فيها لأن هايدي فتحتها وأخذت تقرأ ما فيها دون إبطاء. كانت الرسالة من كلارا، التي كتبت أن المنزل قد صار مملًا منذ مغادرة هايدي، ولم تعرف كيف تطيق ذلك. فأقنعت أباها في نهاية الأمر ليأخذها إلى الحمامات في راغاتز في الخريف المقبل، وقد رتبت الجدة شؤونها للانضمام إليهما، وكلتاهما تتطلعان إلى زيارتها هي وجدها. وأرسلت الجدة لهايدي رسالة أخرى تقول فيها إن هايدي أحسنت صنعًا بأخذ اللفافات للجدة، ولئلا تضطر

لأكلها يابسة فإنها سترسل بعض القهوة، التي كانت في طريقها سلفًا، وأمِلت الجدة أن تأتي إلى جبل ألم في الخريف فتأخذها هايدي لرؤية صديقتها العجوز.

عم السرور والفرح لدى سماع هذه الأنباء، وصار لديهم الكثير مما يتحدثون عنه ويسألون فلم ينتبه الجد لمرور الوقت، إذ غمرت الجميعَ البهجةُ عند التفكير بالأيام القادمة، وباللقاء الذي حدث اليوم، فتحدثت الجدة قائلة: «أسعد ما في الكون أن يأتي صديق قديم ويحيينا كما يفعل في الأيام الخوالي، فيهدأ القلب باليقين أن كل شيء أحببناه سيمنح لنا ثانية يومًا ما، ستأتي ثانية قريبًا أيها الخال، وأنت ستاتين غدًا أيتها الطفلة؟».

وعدها الجد وهايدي بصدق أنهما سيفعلان، ثم حان وقت انفضاض الجمع، وعاد هذان الاثنان إلى الجبل. وكما حيتهما الأجراس حين انطلقا في رحلتهما ذلك الصباح، رافقتهما أجراس المساء الهادئ وهما يصعدان نحو الكوخ، الذي بدا له مظهر يوم الأحد حين لاح مستحمًا بضوء شمس المساء الغاربة.

حين تأتي الجدة في الخريف المقبل ستحظى كل من هايدي والجدة الأخرى بالكثير من الفرح والمفاجآت، وسيوضع سرير في علية التبن بلا شك، حتى يكون كل شيء في مكانه أينما ذهبت الجدة في الداخل والخارج.

الفصل الخامس عشر
الاستعداد للرحلة

كان الطبيب الطيب الذي أعطى أمرًا بإرسال هايدي إلى الديار يسير في أحد الشوارع العريضة باتجاه منزل السيد زيزمن، وكان ذلك صباحًا مشمسًا من أيام سبتمبر، مفعمًا بالنور والعذوبة وبدا أن على الجميع أن يفرحوا. غير أن الطبيب مشى خافضًا نظره إلى الأرض دون أن يرفعه مرة إلى السماء الزرقاء فوقه. وقد كسا الحزن وجهه، الذي كان مبتهجًا في الماضي، وغدا شعره رماديًا أكثر منذ الربيع. كان للطبيب ابنة وحيدة، وكانت رفيقته الوحيدة والدائمة بعد رحيل زوجته، إلا أن الموت قد سرق منه ابنته الحبيبة قبل بضعة أشهر، ولم يعد الرجل المرح والمبتهج نفسه منذئذ.

فتح له سيباستيان الباب الخارجي، وحياه بكل تحيات التهذيب والاحترام، لأن الطبيب لم يكن الصديق المفضل للسيد وابنته فحسب، بل لأنه فاز بقلوب كل سكان المنزل بطيبته.

«أكلّ شيء كالمعتاد يا سيباستيان؟»، سأل الطبيب بصوت مرح وهو يتقدم سيباستيان لصعود الدرج.

«إنني سعيد لقدومك أيها الطبيب»، قال السيد زيزمن عند دخوله، «علينا أن نجلس للحديث حول هذه الرحلة إلى سويسرا؛ ألم تزل متشبثًا بقرارك، حتى بعد تحسن صحة كلارا تحسنًا ملحوظًا؟».

«لم أعرف رجلًا مثلك من قبل يا عزيزي زيزمن!»، قال الطبيب لدى جلوسه قرب صديقه، «أتمنى حقًا لو كانت أمك هنا، إذ سيكون كل شيء واضحًا وبسيطًا وسرعان ما ستضع الأمور في نصابها. لقد أرسلت في طلبي ثلاث مرات البارحة لتسألني السؤال نفسه، رغم معرفتك برأيي».

«أجل، أعرف، وهذا يكفي لينفد صبرك مني، ولكن عليك أن تفهمني يا صديقي العزيز...»، ووضع السيد زيزمن يده بتضرع على كتف الطبيب: «إنني لا أجرؤ على رفض ما وعدت به الطفلة لوقت طويل، وقد باتت تعيش منذ أشهر على فكرة الرحلة ليلًا ونهارًا. لقد احتملت تلك النوبة الأخيرة بصبر شديد لأنها مفعمة بأمل ذهابها قريبًا في رحلتها السويسرية، ورؤية صديقتها هايدي ثانية. والآن علي إخبار الطفلة المسكينة، التي اضطرت للتخلي عن الكثير من المباهج، أن الرحلة التي انتظرتها طويلًا يجب إلغاؤها أيضًا؟ لا أملك الشجاعة لفعل ذلك حقًا».

«عليك أن تقدم على ذلك يا زيزمن»، قال الطبيب بحزم، وحين ظل صديقه صامتًا منقبضًا، واصل بعد أن صمت «فكر بالأمر بنفسك. لم تمر كلارا بصيف سيء مثل هذا الأخير منذ سنوات، وستكون العواقب وخيمة بعد إجهاد رحلة كهذه، وهذا مما لا شك

فيه. ثم إننا قد دخلنا شهر سبتمبر، ورغم أن الطقس لم يزل دافئًا وجميلًا هناك، فإن من المحتمل أن يكون باردًا جدًا. كما أن الأصباح تغدو أقصر، ولأن كلارا لا يمكنها قضاء الليل هناك فلن يكون لديها إلا ساعتين للخروج. والرحلة من راغاتز تستغرق ساعات، لأنها لا بد أن تؤخذ إلى الجبل على كرسي. باختصار يا زيزمن إنه محال. غير أنني سأرافقك وأتحدث إلى كلارا، إنها طفلة عاقلة وسأخبرها بخطتي. سنأخذها في شهر مايو المقبل إلى الحمامات وتبقى هناك للعلاج حتى يغدو الجو حارًا، ثم تؤخذ إلى الجبل بين الحين والآخر، وحين تصبح أقوى ستستمتع بهذه الرحلات أكثر مما ستفعل الآن. عليك أن تدرك يا زيزمن أننا يجب أن نقدم أقصى حالات الرعاية والحذر إن أردنا أن نمنح الطفلة فرصة للتعافي».

وثب السيد زيزمن، الذي أصغى إلى الطبيب بصمت وإذعان وقال: «أصدقني القول أيها الطبيب، هل لديك أمل حقًا بشفائها التام؟».

فرفع الطبيب كتفيه وقال بهدوء: «أمل صغير. ولكن يا صديقي فكر بمصابي. ما زالت لديك طفلتك التي تبحث عنك وتحييك لدى عودتك إلى البيت، ولست تعود إلى بيت خاوٍ وتجلس إلى الطعام وحيدًا. كما أن الطفلة سعيدة ومرتاحة في البيت، وإن كان عليها التخلي عن الكثير فإن لديها الكثير من المزايا من جهة أخرى. كلا يا زيزمن، لستَ مثيرًا للشفقة، ما زلت تحظى بسعادة كونكما معًا، وتذكّر منزلي الفارغ!».

أخذ السيد زيزمن يذرع الغرفة جيئة وذهابًا كعادته حين تشغله الهواجس، ثم توقف فجأة قرب صديقه ووضع يده على كتف الطبيب: «الذي فكرة أيها الطبيب، لا أطيق رؤيتك هكذا، وعليك أن تشغل نفسك لبعض الوقت. وهل تعرف فيم أفكر؟ أن تذهب هذه الرحلة وتزور هايدي باسمنا».

بوغت الطبيب بهذا الاقتراح المفاجئ وأراد أن يعترض، غير أن صديقه لم يتح له الوقت لقول أي شيء. فقد سر بهذه الفكرة وأمسك بالطبيب من ذراعه وأخذه إلى غرفة كلارا. كان الطبيب الطيب محل ترحيب لدى كلارا دومًا، لأن لديه في العادة أمرًا سعيدًا يقوله لها. وصحيح أنه كان أكثر حزنًا في الآونة الأخيرة، إلا أن كلارا عرفت السبب وتمنت كثيرًا أن تراه كما كان في الماضي. مدت يدها إليه وهو يقترب منها؛ وجلس قربها كما جذب أبوها كرسيه أيضًا، وبعد أن وضع كف كلارا في كفه أخذ يتحدث إليها عن الرحلة السويسرية وكم تطلع هو إليها، ومر بأسرع ما استطاع على النقطة الرئيسة بأن من المحال عليها الآن أن تذهبها، لأنه خشي الدموع التي ستعقبها. لكنه تابع دون توقف ليخبرها عن خطته الجديدة، ومر على الفائدة الكبرى التي سيجنيها صديقه إن اقتنع بأخذ هذه الإجازة.

سبحت الدموع حقًا في العينين الزرقاوين، رغم مجاهدة كلارا لكبحها لخاطر أبيها. لكن التخلي عن الرحلة خيبة أمل مريرة، وقد كان التفكير بها فرحتها وسلواها الوحيدة أثناء ساعات الوحدة في

مرضها الطويل. غير أنها عرفت أن أباها لن يرفض لها طلبًا ما لم يكن واثقًا أنه سيضر بها. فكبحت دمعها قدر مستطاعها وحولت أفكارها إلى أمل واحد بقي لها، فقالت بعد أن أخذت يد الطبيب وربتت عليها بتوسل:

«هلا ذهبت ورأيت هايدي أيها الطبيب العزيز؟ ثم يمكنك العودة وإخباري كل شيء، كيف يبدو المكان هناك، وماذا تفعل هايدي والجد والعنزات وبيتر طوال النهار. إنني أعرفهم كلهم جيدًا! ثم يمكنك أن تأخذ ما أود إرساله لهايدي، فقد فكرت بالأمر، وتأخذ شيئًا للجدة أيضًا. وافق من فضلك أيها الطبيب العزيز، وسأشرب من زيت كبد القد قدر ما تشاء».

لا يمكن معرفة إن كان هذا الوعد هو ما غيّر رأي الطبيب، غير أنه ابتسم بلا شك وقال:

«فعليّ الذهاب حتمًا يا كلارا، لأنك ستصبحين ممتلئة وقوية مثلما يتمنى أبوك وأنا أن نراك. وهل قررت متى علي الذهاب؟».

«صباح الغد، باكرًا إن استطعت»، اجابت كلارا.

«أجل، إنها محقة»، قال السيد زيزمن، «فالشمس ساطعة والسماء زرقاء وما من وقت نضيعه. خسارة أن تضيع واحدًا من هذه الأيام دون أن تكون على الجبل».

لم يستطع الطبيب منع نفسه من الضحك: «ستوبخني تاليًا لأنني لم أذهب بعد، حسن علي الذهاب والاستعداد للانطلاق».

لكن كلارا لم تسمح له بالذهاب حتى حملته رسائل لا نهائية لهايدي، وشرحت له كل ما عليه النظر إليه ليعطيها وصفًا دقيقًا عند عودته. وسترسل هداياها في وقت لاحق، لأن على الآنسة روتنماير أن تساعدها في حزمها أولًا؛ وهي الآن خارجة في إحدى نزهاتها التي تشغلها لبعض الوقت في المدينة. وعد الطبيب بأنه سيتبع تعليمات كلارا في كل شأن، وسينطلق في وقت ما من اليوم التالي إن لم يفعل في الصباح، وسيعود بسرد أمين لتجربته وكل ما يسمعه ويراه.

إن لدى خدم المنزل عادة فضولية في معرفة ما يجري قبل أن يقال لهم أي شيء. ولا بد أن سيباستيان وتنته تمتعا بهذه الميزة على أعلى المستويات، لأنه ما إن نزل الطبيب حتى دخلت تنته غرفة كلارا، وقد رن الجرس في طلبها: «خذي الصندوق وعودي بعد أن تملأيه بالكعك الطري الذي نتناوله مع القهوة»، قالت كلارا مشيرة إلى الصندوق الذي جلب قبلًا استعدادًا لهذا. حملته تنته وأخذته مؤرجحة إياه بازدراء.

«إنه لا يستحق العناء كما ظننت»، قالت جهارًا وهي تغادر الغرفة.

حين فتح سيباستيان الباب للطبيب قال منحنيًا له: «هلا حمل السيد الطبيب تحياتي للآنسة الصغيرة؟».

«فهمت. أنت تعلم إذن أنني سأذهب في رحلة؟»، قال الطبيب.

تردد سيباستيان وسعل سعلة خرقاء: «إنني... لقد... لا أعرف

ذلك على وجه اليقين. أوه، أجل، أتذكر أنني مررت بغرفة الطعام وسمعت اسم الآنسة الصغيرة، واستنتجت ذلك، لذا ظننت...».

«فهمت فهمت»، ابتسم الطبيب، «يمكن للمرء معرفة أمور رائعة كثيرة بالتفكير. وداعًا حتى أراك ثانية يا سيباستيان، وسأحرص على إيصال رسالتك».

كان الطبيب مسرعًا حين عرضت له عقبة مفاجئة، إذ منعت الريح القوية الآنسة روتنماير من المسير أكثر، وكانت عائدة ووصلت الباب الأمامي عند خروجه. لقد نفخت الريح الوشاح الأبيض الذي ترتديه فبدت مثل سفينة رفعت أشرعتها. تراجع الطبيب، غير أن الآنسة روتنماير أظهرت احترامًا وإجلالًا واضحًا لهذا الرجل، فتراجعت هي أيضًا بتهذيب مفرط لتجعله يمر. وقف الاثنان لبضع لحظات وكل منهما يود إفساح الطريق للآخر، غير أن هبة ريح مفاجئة دفعت الآنسة روتنماير وشراعها بين ذراعي الطبيب، واضطرت للتوقف وتمالك نفسها قبل أن تصافح الطبيب باحتشام لائق. وحنقت لاضطرارها إلى الدخول على هذا النحو المشين، غير أن للطبيب طريقة في تهدئة الناس، وأصغت بهدوئها المعتاد حين أخبرها الطبيب عن رحلته المزمعة، راجيًا إياها بصوته الملاطف أن تحزم المتاع لهايدي فهي الوحيدة التي تعرف كيف تفعل، ثم غادر.

توقعت كلارا أن تنشب مشادة طويلة مع الآنسة روتنماير قبل أن تجعل الأخيرة تسمح بإرسال كل الأشياء التي جمعتها هدية

لهايدي. غير أنها أخطأت هذه المرة، لأن الآنسة روتنماير كانت بمزاج رائق أكثر من المعتاد، فأفرغت الطاولة الكبيرة حتى تبسط عليها كل أشياء هايدي وتحزمها تحت نظر كلارا. لم يكن ذاك عملًا هينًا، لأن الهدايا كانت من مختلف الأشكال والأحجام. فلديها أولًا الشملة الصغيرة الدافئة ذات القلنسوة، التي صممتها كلارا بنفسها بغية أن تكون هايدي قادرة أن تذهب وترى الجدة كما تشاء في الشتاء القادم، دون أن تضطر لانتظار أن يأخذها جدها ملفوفة بالجراب ليقيها من التجمد. ثم لديها وشاح سميك دافئ للجدة، يمكنها أن تلفه حولها فلا تشعر بالبرد حين تأتي الرياح كاسحة في هبات رهيبة حول البيت. أما الغرض التالي فكان صندوقًا مليئًا بالكعك، وكانت هذه أيضًا للجدة، فيكون عندها ما تأكله مع القهوة إلى جانب الخبز. والتالي كان السجق الكبير، وكان هذا مرسلًا لـبيتر في الأصل، الذي لم يتناول شيئًا سوى الخبز والجبن، لكن كلارا غيرت رأيها وقد خشيت أن يتناوله كله دفعة واحدة في غمرة فرحه وهذا ما سيمرضه. فعزمت على إرساله إلى بريجيتا، التي يمكن أن تأخذ شيئًا لنفسها وللجدة وتعطي بيتر حصته شيئًا فشيئًا. وأما علبة التبغ فكانت هدية للجد، الذي يحب تدخين غليونه وهو يستريح في المساء. وأخيرًا الكثير من الأكياس السرية والحزم والصناديق التي شعرت كلارا بسرور خاص عند جمعها، إذ كان كل منها مفاجأة سارة لهايدي حين تفتحها. انتهى العمل في نهاية المطاف، ووُضع طرد فخم المظهر على الأرض جاهزًا لنقله. نظرت إليه الآنسة روتنماير نظرة رضا، وقد شردت في تأملها لفنها

في الحزم. ونظرت إليه كلارا بسرور أيضًا، متخيلة هتافات هايدي وقفزاتها فرحًا ودهشة حين يصل الطرد الضخم إلى الكوخ.

ودخل سيباستيان ورفع الطرد على كتفه، وحمله وانطلق في الحال ليوصله إلى منزل الطبيب.

الفصل السادس عشر
الزائر

سقط ضوء الصباح الباكر الأحمر حمرة الورد على الجبال، وتخلل أشجار التنوب نسيم عليل جعل أغصانها الكبيرة تتمايل على الجانبين. أيقظ الصوت هايدي وفتحت عينيها. فدائمًا ما أثار صوت حفيف الأشجار شعور هايدي، ويبدو أنه يجذبها نحوها بلا مقاومة. فنهضت من فراشها وارتدت ثيابها بأسرع ما استطاعت، غير انها استغرقت بعض الوقت لأنها صارت تحرص على أن تكون نظيفة ومرتبة.

حين نزلت وجدت جدها قد غادر الكوخ مسبقًا، فقد وقف في الخارج ينظر إلى السماء ويتأمل المناظر كما يفعل كل صباح، ليرى حال الطقس.

كانت غيوم وردية صغيرة تسبح في السماء، التي غدت أكثر لمعانًا وزرقة كل دقيقة، في حين تحولت القمم والمروج إلى اللون الذهبي تحت الشمس الساطعة، التي ظهرت لتوها فوق أعلى القمم.

«أوه، يا للجمال! يا للجمال! صباح الخير يا جدي!»، هتفت هايدي وهي تخرج.

«عجبًا، لقد استيقظت إذن»، أجابها محييًا إياها تحية الصباح.

ثم ركضت هايدي صوب أشجار التنوب لتستمع إلى الصوت الذي تحبه كثيرًا، ومع كل هبة ريح تأتي مزمجرة خلال أغصانها تقفز مرة أخرى وتصيح من البهجة.

ذهب الجد أثناء ذلك لحلب العنزتين، وحين فرغ غسلهما ومشطهما، استعدادًا لنزهتهما الجبلية، وأخرجهما من عرزالهما. وما إن لمحت هايدي صديقتيها حتى جرت وعانقتهما، وثغتا لها، وهما تتنافسان في إظهار حبهما لها بنخسها برؤوسهما لتريا أيهما تقترب منها أكثر، فانحشرت بينهما. ولم تخف هايدي منهما، وحين وكزها لتل بير النشط وكزة قوية اكتفت بالقول: «كلا يا لتل بير، إنك تدفع مثلما يفعل تِرك الكبير»، فتراجع لتل بير على الفور وسحب رأسه وكف عن حركاته الخشنة، أما لتل سوان فقد رفعت رأسها وبدا كأنها تقول: «لا أحد سيتهمني بالتصرف مثل ترك الكبير»، لأن لتل سوان كانت عنزة أكثر تميزًا من لتل بير.

وسمع صفير بيتر وجاءت كل العنزات تتقافز وتتواثب، وسرعان ما وجدت هايدي نفسها محاطة بالقطيع كله، يدفعها هنا وهناك بتحياته الجامحة، غير أنها استطاعت أن تشق طريقها بين العنزات إلى مكان سنوفليك، لأن العنزة الصغيرة جاهدت للوصول إليها دون جدوى.

أطلق بيتر صفيرًا هائلًا أخيرًا، بغية إفزاع العنزات وإبعادها لأنه أراد أن يقترب من هايدي ليقول شيئًا. قفزت العنزات جانبًا واقترب منها.

«هل يمكنك الخروج معي اليوم؟»، سأل بجلاء كارهًا سماع رفضها.

«أخشى أنني لا أستطيع يا بيتر»، أجابت، «إنني أتوقع وصولهم من فرانكفورت في أي لحظة، ولا بد أن أكون في البيت حين يصلون».

«أنت ترددين الشيء نفسه منذ أيام»، تذمر بيتر.

«سأظل أقوله حتى يأتوا»، أجابت هايدي، «كيف يخطر لك يا بيتر أن أكون خارجًا عند وصولهم؟ كأني سأفعل شيئًا كهذا!».

«سيجدون الخال في البيت»، أجاب وهو ينخر.

غير أن صوت الجد الجهوري سُمع في هذه اللحظة: «لماذا لا يتقدم هذا الجيش إلى الأمام؟ هل القائد الميداني أو أحد الجنود غائب؟».

عندئذ استدار بيتر وانطلق ملوحًا بعصاه فصفرت في الهواء، والعنزات التي فهمت الإشارة أخذت تسير هرولة نحو مرعى الجبل وبيتر في أعقابها.

منذ أن عادت هايدي إلى جدها باتت تخطر لها أمور بين الحين والآخر لم تكن لتفكر فيها في الأيام الخوالي. فأضحت ترتب فراشها

كل صباح بجد كبير وهي تربت وتمسد حتى يغدو مستويًا ومسطحًا تمامًا. ثم تذهب إلى الغرفة في الأسفل، وترجع كل كرسي إلى مكانه، وإن عثرت على شيء وضعته في الصوان. ثم تحمل ممسحة وتصعد على كرسي وتمسح الطاولة حتى تلمع. وحين يدخل الجد في وقت لاحق ينظر إلى كل شيء بسرور ويقول لنفسه: «إننا نبدو كل يوم مثلما نبدو يوم الأحد، لم يكن سفر هايدي بلا جدوى».

بعد أن غادر بيتر تناولت هي وجدها طعام الإفطار، واضطلعت هايدي بمهام اليوم كالمعتاد، غير أنها لم تنهها سريعًا. لقد كان الجو جميلًا في الخارج اليوم، وفي كل لحظة يحدث أمر فيقاطع عملها. ها قد سطع شعاع الشمس المشرقة من النافذة المفتوحة كأنه يقول: «اخرجي يا هايدي، اخرجي!». فشعرت هايدي أنها لا تستطيع البقاء في الداخل، وخرجت تلبية للنداء. سقط نور الشمس متلألئًا على كل شيء حول الكوخ وعلى كل الجبال وبعيدًا في الوادي، وبدا مرج العشب ذهبيًا وجميلًا واضطرت للجلوس لبضع دقائق لتنظر حولها. ثم تذكرت على حين غرة أن مقعدها متروك وسط الغرفة وأن الطاولة لم تمسح، فنهضت ودخلت مسرعة. ولم يمض وقت طويل حتى بدأت أشجار التنوب أغنيتها القديمة، وشعرت بها هايدي بكل جوارحها، ومرة أخرى غدت الرغبة في الخروج لا تقاوم، وخرجت لتلعب وتقفز على أنغام الأغصان المتمايلة. كان الجد، المنهمك في مشغله، يخرج بين الحين والآخر مبتسمًا ليرى وثبها، وقد عاد لتوه إلى عمله في واحدة من هذه المرات حين نادت هايدي: «جدي! جدي! تعال، تعال!».

فخرج مسرعًا، خائفًا من أن مكروهًا حدث للطفلة، لكنه رآها تجري نحو درب الجبل وتهبط هاتفة: «إنهم قادمون! إنهم قادمون! والطبيب يتقدمهم!».

تقدمت هايدي للترحيب بصديقها القديم، الذي مد يده محييًا إياها. وحين وصلت إليه تشبثت بذراعه الممدود من فرحة قلبها: «صباح الخير أيها الطبيب، وشكرًا لك مرات كثيرة».

«باركك الرب أيتها الصغيرة! ما الذي تشكرينني عليه؟»، سأل الطبيب مبتسمًا.

«على عودتي للديار وإلى جدي ثانية»، شرحت الطفلة.

أشرق وجه الطبيب كأنما مر عليه شعاع من الشمس، إذ لم يتوقع استقبالًا كهذا، فقد صعد الجبل، غارقًا في إحساسه بالوحدة، دون الاهتمام بالجمال الذي يحيط به من كل جانب، وأنه يزداد ويزداد كلما صعد أكثر. وقد ظن أن هايدي نسيته؛ فلم تره إلا قليلًا وأحس مثل من يحمل رسالة مخيبة للأمل، وقد قدم دون الأصدقاء المنتظرين ولم يتوقع استقبالًا لطيفًا كهذا. وعوضًا عن ذلك، ها هي هايدي وعيناها ترقصان طربًا ومفعمتان بالامتنان والحب، وتتشبث بذراع صديقها الطيب.

فأمسك بيدها بحنان أبوي. «خذيني إلى جدك الآن يا هايدي، وأريني أين تعيشين».

لكن هايدي ظلت واقفة، تنظر إلى الدرب نظرات متسائلة وسألت: «أين كلارا والجدة؟».

«آه، علي إخبارك بأمر ستحزنين له مثلي»، أجاب الطبيب، «لقد أتيت وحدي كما ترين يا هايدي. كانت كلارا معتلة جدًا ولم تستطع السفر، وظلت الجدة هناك أيضًا. ولكن في الربيع القادم، حين تصبح الأيام دافئة وطويلة ثانية، ستأتيان هنا حتمًا».

قلقت هايدي كثيرًا، ولم تستطع في بادئ الأمر أن تصدق عدم حدوث ما تخيلته لوقت طويل، فوقفت دون حراك للحظة أو اثنتين، وقد غمرتها خيبة أمل مفاجئة. لم يقل الطبيب شيئًا، وكل شيء غرق في الصمت، إلا من زفرات أشجار التنوب التي تُسمع حيث يقفان. ثم تذكرت هايدي فجأة سبب وقوفها هنا، وأن الطبيب قد جاء حقًا، فرفعت نظرها ورأت سيماء الحزن على وجهه وهو ينظر إليها، ولم تر هذه النظرة على وجهه حين كانت في فرانكفورت. لقد اخترقت قلب هايدي، إذ لا تحتمل رؤية أحد تعسًا، وبخاصة طبيبها العزيز. لا شك أن هذا كان لعدم قدرة كلارا والجدة على المجيء، وأخذت تفكر بأفضل الطرق لتعزيته.

«أوه، لن يكون انتظار الربيع طويلًا، وعندئذ ستأتيان بلا شك»، قالت بصوت مطمئن، «يمر الوقت سريعًا معنا، وستكونان قادرتين على البقاء أكثر حين تأتيان، وستسر كلارا لذلك. دعنا الآن نذهب ونعثر على جدي».

فصعدت إلى الكوخ مع صديقها يدًا بيد. كانت متحمسة لإسعاد الطبيب فأخذت تطمئنه مرة أخرى أن الشتاء ينقضي سريعًا على الجبل وبالكاد يشعر به المرء وسيعود الصيف قبل أن ينتبهوا،

وغدت أكثر إيمانًا بصدق كلماتها فنادت جدها بابتهاج حين اقتربا: «لم يأتوا اليوم، لكنهم سيكونون هنا في وقت قريب».

لم يكن الطبيب غريبًا عن الجد، لأن الطفلة تحدثت عن صديقها كثيرًا، فمد الرجل العجوز يده لضيفه في تحية ودودة. ثم جلس الرجلان أمام الكوخ وجلست هايدي في مكانها الصغير أيضًا، لأن الطبيب أومأ إليها أن تأتي للجلوس بجانبه. أخبر الطبيب الخال بإصرار السيد زيزمن عليه أن يأتي في هذه الرحلة، وأنه شعر أنها ستفيده لأنه لم يكن على ما يرام لوقت طويل. ثم همس لهايدي أن شيئًا ما سيُأتى به إلى الجبل جلبه معه من فرانكفورت، وأنه سيسعدها أكثر من رؤيتها الطبيب. وانتابت هايدي حالة من الحماس لدى سماع هذا، متسائلة عما يكون. حث الرجل العجوزُ الطبيبَ على أن يقضي من أيام الخريف الجميلة على الجبل بقدر ما يستطيع، وأن يصعد كلما كان الجو جيدًا على الأقل، ولم يستطع أن يعرض عليه المبيت إذ لا مكان لديه لذلك، غير أنه أشار على الطبيب ألا يعود إلى راغاتز وأن يبقى في دورفلي ففيها نزل صغير نظيف، وعندها يستطيع الطبيب أن يصعد كل صباح، وهو ما سيفيده كثيرًا، وسيكون الجد مرشده إلى أي مكان من الجبال يود رؤيته إن شاء. سر الطبيب بالاقتراح، ووافق على أن يكون الأمر كما قال الجد.

في أثناء ذلك كانت الشمس ترتفع في السماء، وكان وقت الظهيرة، وقد سكنت الريح وظلت أشجار التنوب بلا حراك. لم يزل الهواء دافئًا ومعتدلًا تمامًا في هذا الارتفاع، وقد امتزج النقاء البهيج مع دفء الشمس.

نهض الخال ألم ودخل عائدًا بعد بضع لحظات بطاولة وضعها أمام الكرسي.

«هيا يا هايدي، اذهبي واجلبي لنا ما نحتاجه للمائدة. لا بد أن يرانا الطبيب على طبيعتنا، وإن كان الطعام تفهًا فسيجد غرفة الطعام بهيجة»، قال.

«أظن ذلك حقًا»، أجاب الطبيب وهو يطل على الوادي المضاء بنور الشمس، «وإني أقبل الدعوة الكريمة، لا بد أن طعم كل شيء شهي هنا».

غدت هايدي وراحت نشطة مثل نحلة وأخرجت كل شيء عثرت عليه في الصوان، لأنها لم تعرف كيف تبدي سرورها بما يكفي لإبهاج الطبيب. كان الجد يحضر الطعام في هذه الأثناء، وجاء حاملًا إبريق حليب يتصاعد منه البخار وجبنة محمصة ذهبية بنية. ثم قطع شرائح رفيعة من اللحم الذي قدده بنفسه في الهواء الطلق، واستمتع الطبيب بطعامه أكثر مما فعل في العام الماضي كله.

قال: «لا بد أن تأتي ابنتنا كلارا إلى هنا، فهذا سيجعل منها فتاة مختلفة تمامًا، ولو أكلت مثلما أكلت اليوم لبعض الوقت، لغدت ممتلئة أكثر مما سبق لأحد أن رآها».

وفي أثناء حديثه شوهد رجل يصعد الدرب حاملًا طردًا كبيرًا على ظهره، وحين وصل إلى الكوخ أنزله على الأرض وأخذ شهقتين أو ثلاثًا من هواء الجبل.

«آه، هذا ما جاء معي من فرانكفورت»، قال الطبيب ناهضًا، وتقدم نحو الطرد وأخذ يفتحه، وهايدي تنظر بترقب عظيم. وبعد أن حل عنه غلافه الخارجي السميك قال: «إليك يا صغيرتي، يمكنك الآن فتح كنوزك بنفسك».

فتحت هايدي هداياها واحدة بعد الأخرى حتى عُرضت كلها؛ وعجزت عن الكلام لوهلة من الدهشة والسعادة. ولما تقدم منها الطبيب وفتح الصندوق الكبير ليري هايدي الكعكات المرسلة للجدة لتتناولها مع القهوة، أطلقت صرخة فرح قائلة: «سيكون لدى الجدة أشياء جميلة لتأكلها»، وأرادت أن تحزم كل شيء ثانية وتنطلق بها إليها. غير أن الجد قال إن عليه النزول مع الطبيب هذا المساء ويمكنها الذهاب معهم وأخذ المتاع. وجدت هايدي علبة التبغ التي ركضت وأعطتها لجدها، وسر بها كثيرًا فملأ غليونه منها على الفور. ثم جلس الرجلان معًا ثانية، والدخان يتصاعد من غليونيهما وهما يتحدثان عن مختلف الأمور. وظلت هايدي تتفحص هداياها واحدة فواحدة. وذهبت إليهما فجأة، ووقفت أمام الطبيب وانتظرت حتى توقفا عن الحديث ثم قالت: «كلا، لم يمنحني الشيء الآخر سعادة أكثر من سعادتي برؤيتك أيها الطبيب».

لم يستطع الرجلان إلا أن يضحكا، وأجاب الطبيب أنه لم يتوقع ذلك.

نهض الطبيب حين أخذت الشمس تنحدر خلف الجبال، قائلًا إن الوقت حان للعودة إلى دورفلي للبحث عن مسكن. فحمل

الجد الكعكات والوشاح والسجق الكبير، وأمسك الطبيب بيد هايدي، وانطلق الثلاثة نازلين الجبل. حين وصلت هايدي إلى بيت بيتر ودعت الاثنين، وكانت ستنتظر لدى الجدة حتى يأتي جدها، الذاهب إلى دورفلي مع ضيفه، ويأخذها. وحين صافحها الطبيب قالت: «هل تود الخروج مع العنزات صباح الغد؟»، لأنها لم تفكر بمتعة أكبر تعرضها عليه.

«اتفقنا!»، أجاب الطبيب، «سنذهب معًا».

دخلت هايدي منزل الجدة، وتمكنت ببعض المشقة في البدء من حمل صندوق الكعك، ثم خرجت ثانية وأدخلت السجق، لأن الجد وضع الهدايا قرب الباب، ثم جلبت الوشاح في المرة الثالثة. ووضعتها كلها قريبًا من الجدة قدر المستطاع، حتى تتمكن من تحسسها وتعرف ما هي. ووضعت الوشاح على ركبتي المرأة العجوز.

«إنها كلها من فرانكفورت، من كلارا والجدة»، قالت للجدة المندهشة وبريجيتا، وقد رأتها الأخيرة تسحب إلى الداخل كل الأشياء الثقيلة دون أن تعرف ما يجري.

«وأنت مسرورة بالكعكات أليس كذلك يا جدتي؟ تذوقي كم هي طرية!» قالت هايدي مرة بعد مرة، وردت الجدة في كل مرة: «أجل، أجل يا هايدي، أظن ذلك! يا لهم من أناس طيبين!»، ثم مررت يدها على الوشاح السميك الدافئ وقالت: «سيكون هذا جميلًا لبرد الشتاء! لم يخطر لي أنني سأحصل على أشياء رائعة كهذه لأرتديها».

ظلت هايدي مندهشة من سعادة الجدة بالوشاح أكثر من الكعك. وفي هذه الأثناء وقفت بريجيتا تحدق بالسجق بشيء من الإجلال، إذ لم تر في حياتها سجقًا بهذا الحجم، كما أنها لم تحصل على شيء منه من قبل، وما استطاعت تصديق ما تراه. فهزت رأسها وقالت بارتياب: «علي أن أسأل الخال لأي شيء هو».

لكن هايدي أجابت بلا تردد: «إنه للأكل، لا لشيء آخر».

جاء بيتر متعثرًا في هذه اللحظة: «الخال خلفي، إنه قادم...»، بدأ الكلام ثم توقف سريعًا، لأن عينيه لمحتا السجق وقد بوغت فلم يقل المزيد. لكن هايدي فهمت أن جدها قريب فودعت الجدة. لم يعد الرجل العجوز يمر بالباب دون الدخول وتمني يوم سعيد للمرأة العجوز، وقد أحبت سماع وقع أقدامه تقترب، لأن لديه دومًا شيئًا مبهجًا يقوله لها. غير أن الوقت بات متأخرًا اليوم على هايدي، التي تستيقظ باكرًا، ولم يسمح لها الجد قط بالخلود للفراش في وقت متأخر. فاكتفى هذا المساء بتمني ليلة سعيدة من الباب المفتوح وانطلق إلى البيت حالًا مع الطفلة، وصعد الاثنان تحت السماء المرصعة بالنجوم عائدين إلى مسكنهما الهادئ.

الفصل السابع عشر
عزاء

صعد الطبيب في الصباح التالي قادمًا من دورفلي مع بيتر والعنزات، وحاول السيد اللطيف بدء حوار مع الصبي بين الحين والآخر، غير أن محاولاته باءت بالفشل، إذ لم يستطع جعله يتحدث إلا قليلًا إجابة عن أسئلته. لم يكن من السهل حث بيتر على الكلام، لذا شقا طريقهما إلى الكوخ بصمت نوعًا ما، حيث وجدا هايدي بانتظارهما مع عنزتيها، وثلاثتهن منتعشات ونشطات حين ارتفعت شمس الصباح بين الجبال.

«هل ستذهبين اليوم؟»، قال بيتر مكررًا الكلمات التي يحيي بها هايدي كل يوم، إما سؤالًا وإما طلبًا.

«سأذهب طبعًا، إن كان الطبيب ذاهبًا أيضًا»، أجابت هايدي.

نظر بيتر إلى الطبيب نظرة جانبية. خرج الجد حاملًا حقيبة الغداء، وبعد أن تمنى للطبيب نهارًا طيبًا تقدم نحو بيتر وعلقها حول عنقه. وكانت أثقل من المعتاد، لأن الخال ألم قد أضاف بعض اللحم اليوم، إذ ظن أن الطبيب قد يرغب بتناول الغداء في الخارج

ويأكله مع الأطفال. ابتسم بيتر ابتسامة عريضة، فقد أيقن أن فيها شيئًا أكثر من عادي.

وهكذا بدؤوا الصعود، وتجمعت العنزات حول هايدي كالمعتاد، وكل منها تحاول الدنو منها أكثر، حتى وقفت أخيرًا وقالت «والآن عليكن التقدم والتصرف على نحو لائق، ولا تواصلن العودة ودفعي ونخسي، لأني أود التحدث إلى الطبيب»، وربتت على ظهر سنوفليك وقالت لها أن تكون مطيعة وطيبة. وتمكنت شيئًا فشيئًا من شق طريقها بعيدًا عن العنزات وانضمت إلى الطبيب الذي أمسك بيدها. ولم يجد صعوبة في الحديث مع رفيقته، لأن لدى هايدي الكثير مما تقوله عن العنزات وصفاتها، وعن الزهور والصخور والطيور، وهكذا صعدوا حتى وصلوا إلى مستراحهم دون أن ينتبهوا. نظر بيتر نظرات عديدة كارهة للطبيب في طريق الصعود، وكانت النظرات ستثير ذعر الأخير لو أنه انتبه إليها، غير أنه لم يفعل للأسف.

قادت هايدي صديقها إلى بقعتها المفضلة حيث اعتادت الجلوس والاستمتاع بالجمال من حولها، واحتذى الطبيب حذوها واتخذ مقعده قربها على العشب الدافئ. تدلى بهاء النهار الخريفي الذهبي فوق القمم وفوق الوادي الأخضر البعيد، وتلألأ الحقل الثلجي الكبير في ضوء الشمس الساطع، وارتفعت القمتان الصخريتان الرماديتيان في عظمتهما العتيقة وسط السماء الزرقاء الداكنة. وهب نسيم صباحي رقيق ناعم رائع عبر الجبل، وحرك

بلطف الأجراس الزرقاء للزهور التي بقيت من ثروة الصيف، ورؤوسها الرشيقة تتمايل طربًا في ضوء الشمس. وكان الطائر الكبير يحلّق عاليًا في حلقات كبيرة، غير أنه لم يحدث صوتًا اليوم، وحام بهدوء موازنًا جناحيه الكبيرين في الفضاء الأزرق. نقّلت هايدي نظرها إلى كل الأشياء من حولها؛ الأزهار المتمايلة والسماء الزرقاء وضوء الشمس الساطع، والطائر السعيد، وكل شيء كان جميلًا للغاية! جميلًا للغاية! واتقدت عيناها فرحًا، ثم التفتت إلى صديقها لترى إن كان هو أيضًا مستمتعًا بهذا الجمال. جلس الطبيب يحدق متأملًا بما حوله. وحين التقت عيناه بالعينين المسرورتين اللامعتين أجاب: «أجل يا هايدي، إنني أرى جمال كل شيء، ولكن أخبريني، لو صعد المرء إلى هنا بقلب حزين، فكيف يُداويه حتى يُسرّ بكل هذا الجمال؟».

«أوه، ولكن ما من أحد حزينًا في الأعلى هنا، بل في فرانكفورت فحسب»، قالت هايدي.

ابتسم الطبيب ثم صار جديًا ثانية وقال: «ولكن لنقل إن أحدهم لم يستطع ترك كل الحزن خلفه في فرانكفورت، فهلا أخبرتني بشيء يساعده؟».

«عليه الذهاب وإخبار الرب بكل شيء، إن لم يعرف ما يفعله غير ذلك»، أجابت هايدي بحسم.

«آه، هذه فكرة حسنة منك يا هايدي، ولكن ماذا لو كان الرب نفسه هو من تسبب بالحزن، فماذا نقول له حينئذ؟»، قال الطبيب.

فكرت هايدي للحظة؛ فقد كانت واثقة في قلبها أن الرب بوسعه شفاء كل الأحزان، وتذكرت تجربتها ثم عثرت على جواب.

«فعليه الانتظار إذن، وأن يستمر في القول لنفسه: إن الرب يعرف حتمًا ما يسعدنا وسيخرجنا من الحزن، وعلينا أن نتحلى بالصبر فحسب وألا نفر منه. وحينئذ سيحدث أمر على حين غرة وسنرى بأنفسنا بجلاء أن الرب كان لديه فكرة حسنة طوال الوقت، ولكن لأننا لا نستطيع رؤية الأشياء سلفًا ولا نعرف إلا أننا بائسون للغاية، نظن أن الأمر سيظل هكذا على الدوام»، قالت هايدي.

«هذا إيمان صادق يا صغيرتي، واحرصي على التمسك به جيدًا»، أجاب الطبيب، ثم جلس صامتًا لوهلة ناظرًا إلى الجبال الظليلة، والوادي الأخضر المضاء بالشمس في الأسفل قبل أن يتحدث ثانية: «هل بوسعك أن تفهمي يا هايدي، أن رجلًا قد يجلس هنا وعلى عينيه غشاوة فلا يشعر بالجمال من حوله أو يستمتع به، في حين أن الحزن يتضاعف في القلب لأنه يدرك الجمال؟ هل تفهمين هذا؟».

اخترق الألم قلب الطفلة الصغيرة السعيد، فالغشاوة على العينين ذكرتها بالجدة التي لن تستطيع رؤية نور الشمس والجمال في الأعلى هنا ثانية. وكان هذا حزن هايدي الكبير، الذي ينبعث في كل مرة تتذكر فيها العتمة. لم تنطق بشيء لبضع دقائق، لأن غصة مفاجئة قاطعت سعادتها، فقالت في صوت حزين: «أجل، أستطيع

فهم ذلك. وأعرف أن على المرء عندئذ أن يتلو إحدى ترانيم الجدة، التي أعادت إليها شيئًا من النور، وكثيرًا ما جلبت لها الضياء فغدت سعيدة مرة أخرى، لقد أخبرتني الجدة بذلك بنفسها».

«أي ترانيم؟»، سألها الطبيب.

«لست أعرف إلا واحدة عن الشمس والجنة الجميلة، وبعض الأبيات من الترنيمة الطويلة، وهي المفضلة لديها، وهي تحب أن أتلوها عليها دومًا مرتين أو ثلاثًا»، أجابت هايدي.

«حسن، اتلي علي الأبيات إذن، أود سماعها أيضًا»، واعتدل الطبيب في جلسته بغية الإصغاء أفضل.

ضمت هايدي كفيها واستجمعت أفكارها لدقيقة أو اثنتين: «هل أبدأ بالبيت الذي تقول الجدة إنه يمنحها شعورًا بالأمل والطمأنينة؟».

هز الطبيب رأسه موفقًا، وبدأت هايدي:

لا تتركنّ قلبك للحزن
ولا يفزعنّ الخوف روحَك
فثمة حارس حكيم
وسيكون سندًا لك.
سينتصر لك حيث عجزت،
وسترى كيف يفر كل أعدائك!
وكل بلاءاتك

ستغدو مفاجآت سارة.
ولو بدا لك لوهلة
أن رحمته تراجعت
وأنه لا يعبأ بعد الآن
بابنه الضال البائس
فلا ترْتَبْ بعطفه الكبير
فحبه لا ينفد أبدًا
لأولئك الذين ينتظرون بصبر
وسيحقق لهم سؤل قلوبهم.

توقفت هايدي فجأة، إذ لم تكن واثقة أن الطبيب ما زال يصغي، فقد جلس دون حراك واضعًا يديه على عينيه. وظنت أنه غط في النوم، وإن استيقظ ورغب بسماع المزيد فستكمل. ولم يبدر صوت من أي جانب، وظل الطبيب صامتًا، غير أنه لم يكن نائمًا طبعًا. فقد حملته أفكاره إلى الماضي البعيد؛ فرأى نفسه صبيًا صغيرًا يقف قرب كرسي أمه الحبيبة، التي تلف ذراعها حول عنقه وتتلو عليه الأبيات نفسها التي تلتها هايدي، والكلمات التي لم يسمعها منذ سنوات. واستطاع أن يسمع صوت أمه ويرى عينيها المحبتين تنظران إليه، وحين توقفت هايدي بدا أن الصوت القديم الحبيب يقول له أشياء أخرى، والكلمات التي سمعها حملته بعيدًا بعيدًا، فقد مضى وقت طويل قبل أن تبدر عنه حركة أو يرفع يده عن عينيه. وحين نهض أخيرًا رأى عيني هايدي تنظران إليه بتساؤل.

فقال بعد أن أخذ يد هايدي في يده: «كانت هذه ترنيمة جميلة

منك يا هايدي»، وكان صوته أسعد عند حديثه. «سنخرج هنا في يوم آخر معًا وستسمعيني إياها مرة أخرى».

وكان لدى بيتر متسع لينفس عن غضبه، فقد مضت أيام منذ أن خرجت هايدي معه آخر مرة، ولما خرجت أخيرًا فإذا هي تجلس طوال الوقت قرب السيد العجوز، ولم يتلقَّ بيتر كلمة منها، وصار مزاجه نكدًا، وذهب في نهاية المطاف ووقف بعيدًا خلف الطبيب، وطوى قبضته مرسلًا ضربات خيالية نحو العدو. ثم طوى كلتا قبضتيه، وكلما طال بقاء هايدي قرب السيد، ازداد توعده بهما قوة.

في أثناء ذلك ارتفعت الشمس إلى الارتفاع الذي يعرف بيتر أنه يشير إلى وقت الغداء، فنادى على حين غرة بأعلى صوته: «حان وقت الغداء».

نهضت هايدي لتجلب حقيبة الغداء فيستطيع الطبيب تناول طعامه حيث يجلس، لكنه أوقفها قائلًا إنه لا يشعر بالجوع البتة، ويود شرب كأس من الحليب فحسب، لأنه يرغب بالصعود أعلى قليلًا. ثم وجدت هايدي أنها ليست بجائعة أيضًا، وتود شرب الحليب فحسب، وقالت إنها ترغب باصطحاب الطبيب إلى الصخرة التي تغطيها الطحالب، حيث كادت غرينفلنتش تقفز وتقتل نفسها، فذهبت وأخبرت بيتر بالأمر، مخبرة إياه أن يذهب ويجلب الحليب لاثنين. لم يبد على بيتر أنه فهم فسأل «ومن سيأكل ما في الحقيبة إذن؟».

فأجابت: «يمكنك تناوله، أسرع واجلب الحليب أولًا».

نادرًا ما أدى پيتر أي مهمة بسرعة هكذا، غير أنه فكر بالحقيبة ومحتواها الذي صار له. وما إن جلس الاثنان الآخران يشربان حليبهما بهدوء، حتى فتحها وارتعد فرحًا لرؤية اللحم، وأوشك على إخراجه إلا أن شيئًا أوقفه. فقد أنبه ضميره لتذكره وقفته بقبضتين مطويتين خلف الطبيب، الذي تخلى عن غدائه اللذيذ من أجله، فشعر أنه لن يستمتع به. فوقف وجرى من فوره إلى البقعة التي وقف بها قبلًا، ومد ذراعيه في إشارة أنه لا نية لديه في جعلهما قبضتين، وظل رافعًا إياهما إلى أن شعر أنه قوّم سلوكه السابق. ثم اندفع عائدًا وجلس ليستمتع متعة مضاعفة بضميره المرتاح والطعام اللذيذ فوق العادة.

صعدت هايدي والطبيب وتحدثا لوقت طويل، حتى قال الأخير إن الوقت حان ليعود، وإن هايدي تود العودة والبقاء مع العنزات حتمًا، غير أن هايدي لم تنصت لكل هذا لأن الطبيب عندها سينزل الجبل وحيدًا، وأصرت عوضًا عن ذلك على اصطحابه إلى كوخ الجد، أو حتى أبعد. وظلت ممسكة بيد صديقها طوال الوقت، وسلته طوال الطريق بحكاياها عن هذا وذاك، وهي تريه البقع التي تحب العنزات أن تاكل فيها، والبقع الأخرى التي تكبر فيها الزهور من مختلف الألوان في وفرة كبيرة في الصيف. وكان بوسعها تسميتها كلها لأن جدها علمها أسماء الزهور خلال شهور الصيف. ولكن الطبيب أصر عليها في نهاية المطاف أن تعود، فتمنيا لبعضهما ليلة طيبة وتابع الطبيب نزوله، ملتفتًا بين الفينة والأخرى لينظر خلفه، وفي كل مرة يرى هايدي واقفة في المكان نفسه وتلوح بيدها له.

كانت ابنته الحبيبة الصغيرة في الأيام الخوالي تراقبه هكذا حين يخرج من البيت.

كان شهرًا خريفيًا مشمسًا، وكان الطبيب يصعد كل صباح إلى الكوخ ثم ينطلق في نزهة في الجبل. رافقه الخال ألم في بعض نزهاته في الأعلى، حيث يصعدان إلى أشجار التنوب التي ضربتها العاصفة وكثيرًا ما أزعجا الطائر الكبير الذي ينهض مباغتًا من عشه، ناعقًا ومدوّمًا جناحيه قريبًا من رأسيهما. وجد الطبيب متعة كبيرة في حديث رفيقه، ودهش لمعرفته بالنباتات التي تنمو في الجبل؛ فقد كان يعرف استخداماتها كلها، من أشجار التنوب العطرة والصنوبر الداكن بإبره الشذية، إلى الطحالب الملتفة التي تنمو في كل مكان حول جذور الأشجار وأصغر النبتات وأدق الزهور. كما أنه حاذق جدًا في أمور الحيوانات، صغيرها وكبيرها، ولديه حكايات ممتعة كثيرة يحكيها عما يسكن منها الكهوف والحفر وأعالي أشجار التنوب. وهكذا مر الوقت بسرعة وبهجة على الطبيب، الذي نادرًا ما ودع الرجل العجوز في نهاية اليوم دون أن يضيف: «لا أغادرك يومًا دون تعلم شيء جديد منك يا صديقي».

وفي بعض الأيام الجميلة، يخرج الطبيب للتجول مع هايدي ثانية، ثم يجلس الاثنان كما فعلا في يومهما الأول، وتعيد الطفلة ترانيمها وتخبر الطبيب أشياء لا أحد يعلمها سواها. وبيتر يجلس على بعد منهما، غير أنه أصبح وديعًا ولم يعد يأتي بإيماءات غاضبة.

حلت نهاية سبتمبر، وأتى الطبيب ذات صباح وهو يبدو أقل بهجة من المعتاد، فقال إنه يومه الأخير لأن عليه العودة إلى فرانكفورت، غير أنه حزين لاضطراره لوداع الجبل الذي أخذ يشعر أنه بيته. أسف الخال ألم من جانبه كثيرًا لرحيل ضيفه، وقد اعتادت هايدي رؤية صديقها كل يوم ولم تصدق أن الوقت قد حان فجأة للفراق. فنظرت إليه في ارتياب، مبغوتة بالمفاجأة، ولكن ما من مفر، إذ عليه الذهاب. فودع الرجل العجوز وسأل إن كان بوسع هايدي أن ترافقه لقسم من طريق العودة، فأخذت هايدي يده في يدها ونزلت الجبل معه، وما زالت لم تستوعب فكرة مغادرته. وقف الطبيب بعد قطعهما مسافة، ومرر يده على شعر الطفلة الأجعد وقال: «والآن عليك العودة يا هايدي، وعلي أن أودعك! ليتني أستطيع أخذك معي إلى فرانكفورت وإبقاءك هناك!». قفزت صورة فرانكفورت أمام عيني الطفلة، بصفوفها اللامتناهية من البيوت، وشوارعها الحجرية، وصورة الآنسة روتنماير وتنته أيضًا فأجابت مترددة: «أفضل أن تعود أنت إلينا».

«أجل، أنت محقة، سيكون هذا أفضل. ولكن إلى اللقاء يا هايدي». وضعت الطفلة يدها في يده ونظرت إليه؛ وكانت العينان العطوفان تنظران إليها مغرورقتين بالدمع. ثم أخذ الطبيب نفسه وواصل نزوله مسرعًا.

ظلت هايدي واقفة دون حراك، فقد اخترقت العينان الطيبتان المغرورقتان بالدمع قلبها، وانفجرت بالبكاء فورًا وأخذت تجري

بأسرع ما يمكنها خلف الرجل الذاهب هاتفة في نبرات متقطعة: «أيها الطبيب! أيها الطبيب!».

فحانت منه التفاتة وانتظر حتى وصلته الطفلة، وقد انهمرت الدموع على وجهها فنشجت: «سآتي معك إلى فرانكفورت الآن وحالًا، وسأبقى معك بقدر ما تشاء، غير أن علي العودة وإخبار جدي فحسب».

وضع الطبيب يده عليها وحاول تهدئة انفعالها وقال بحنان: «كلا، كلا يا طفلتي العزيزة. ليس الآن، عليك البقاء تحت أشجار التنوب في الوقت الراهن، وإلا ستمرضين ثانية. ولكن اسمعي ما سأقوله لك، إن مرضتُ يومًا وكنت وحيدًا، فهل تأتين وتمكثين معي؟ هل لي أن أعرف أن أحدًا ما سيعتني بي ويهتم بأمري؟».

«أجل، أجل، سآتي في اليوم الذي سترسل في طلبي، وانا أحبك بقدر ما أحب جدي تقريبًا»، اجابت هايدي التي لم تتغلب على حزنها.

وبهذا ودعها الطبيب ثانية وانطلق في طريقه، في حين ظلت هايدي واقفة تنظر إليه وتلوح بيدها ما دامت ترى لمحة منه. حين التفت الطبيب للمرة الأخيرة ونظر إلى هايدي الملوحة والجبل المشمس قال في نفسه: «إن صعود هذا الجبل مفيد للجسد وللروح، ولا بد للمرء أن يتعلم كيف يستعيد سعادته».

الفصل الثامن عشر
الشتاء في دورفلي

كان الثلج عاليًا جدًا حول الكوخ فبدت النوافذ بمستوى الأرض، وقد اختفى الباب تمامًا عن الأنظار، ولو كان الخال ألم في الأعلى هناك، لاضطر لفعل ما فعله پيتر كل يوم، لأن الثلج يتساقط من جديد آناء كل ليلة. وكان على پيتر أن يخرج من نافذة غرفة الجلوس كل صباح، ولو أن الثلج لم يتساقط بغزارة آناء الليل، لغاص في الحال حتى كتفيه في الثلج وجهد لتخليص يديه وقدميه ورأسه منه. ثم تناوله أمه مجرفة كبيرة، فيستخدمها لشق الطريق نحو الباب. وتوجب عليه أن يحرص على جرف الثلج جيدًا، وإلا فإن كتلة طرية كبيرة ستسقط إلى الداخل ما إن يفتح الباب. أو إن كان الثلج قويًا سيشكل جدارًا من الجليد أمام البيت فلا يتمكن أحد من الدخول أو الخروج، فالنافذة كانت كبيرة لتسمح لپيتر فقط للتسلل عبرها. تجمد الثلج الجديد هكذا في الليل في بعض الأحيان، وكان ذاك وقتًا سعيدًا لپيتر، لأنه سيخرج من النافذة إلى الأرض الصلبة المتجمدة الناعمة، فتعطيه أمه الزلاجة الصغيرة،

فيستطيع عندئذ النزول إلى دورفلي عبر أي طريق شاء، فليس الجبل إلا دربًا واحدًا ممتدًا للتزلج.

وفى الخال ألم بوعده ولم يقض الشتاء في بيته القديم، فما إن بدأت بواكير الثلج بالهطول حتى أغلق كوخه والمرافق الخارجية ونزل إلى دورفلي مع هايدي والعنزتين. قرب الكنيسة بيت متهاوٍ متداعٍ، كان منزلًا لشخص ذي شأن ذات يوم. فقد عاش فيه جندي بارز، خدم في إسپانيا وقام بأفعال شجاعة عديدة وجمع ثروة كبيرة. وحين عاد إلى دورفلي أنفق قسمًا من غنائمه في بناء بيت جميل، بغية العيش فيه. غير أنه اعتاد ضجيج العالم وصليل السلاح فلم تعجبه حياة الريف الهادئة، فغادر ثانية ولم يعد بعدها. وتبين بعد سنوات كثيرة أنه مات، فامتلك أحد أقاربه البيت، غير أنه كان في حالة يرثى لها، ولم يرغب بترميمه. فتركه للفقراء الذين لا يدفعون إلا أجرًا قليلًا. وحين يتداعى جزء من البيت يترك دون ترميم. واستمر هذا لسنوات عديدة. وقد استأجر الخال ألم البيت القديم المتداعي منذ أن كان ابنه توبياس طفلًا. ومنذ ذلك الوقت ظل فارغًا، فما من أحد يمكنه سكناه ما لم يعرف كيف يصلح الحفر والثقوب ويجعله صالحًا للسكن. وإلا فإن الريح والمطر والثلج ستدخل الغرف، فيستحيل إشعال شمعة، وسيتجمد ساكنوه حتى الموت أثناء الأشتية الباردة الطويلة. لكن الخال ألم يعرف كيف يصلح الأشياء. ومنذ أن عقد العزم على قضاء الشتاء في دورفلي، استأجر البيت القديم وعمل أثناء الخريف لجعله قويًا وصامدًا، وسكنه هو وهايدي منتصف أكتوبر.

عند الاقتراب من البيت من الخلف يرى المرء أول ما يرى براحًا مفتوحًا له جدار على جانبيه، كان أحدهما نصف متداعٍ. وفوق هذا ارتفع قوس لنافذة قديمة كساها اللبلاب بكثافة، وامتد على بقايا سطح مقبب، من الواضح أنه كان جزءًا من مصلى. تليه ردهة كبيرة مفتوحة بلا أبواب إلى المربع في الخارج، وهنا أيضًا لم يكن إلا بقايا جدران وسطح، بل إن ما بقي من السطح كأنه سيسقط في أي لحظة لولا العمودين الضخمين اللذين يسندانه. وضع الخال ألم هنا ساترًا خشبيًا وفرش الأرض بالقش إذ سيكون هذا مأوى العنزتين. ومن هنا تبدأ ممرات لا نهائية يمكن رؤية السماء والحقول من شقوقها على مراحل، لكن المرء يصل أخيرًا إلى باب ضخم من خشب البلوط يفضي إلى غرفة لم تزل سليمة. فهنا ظلت الجدران والكسوة الخشبية الداكنة بحال جيدة، وفي الركن موقد كبير يصل حتى السقف، وعلى بلاطاته البيضاء رسمت رسومات كبيرة باللون الأزرق، جسدت قلاعًا قديمة محاطة بالأشجار، وصيادين يمتطون جيادهم. أو مشهد بحيرة هادئة، وأشجار بلوط كبيرة ورجل يصطاد السمك. وامتد حول الموقد مجلس يمكن للمرء الجلوس عليه براحة لتأمل الرسوم. جذبت هذه انتباه هايدي في الحال، وما إن وصلت مع جدها حتى ذهبت وجلست وأخذت تتفحصها. غير أن أمرًا آخر جذب انتباهها فور أن ذهبت إلى الخلف. ففي المساحة الكبيرة بين الموقد وضعت أربعة ألواح خشبية كأنها لتصنع صناديق للتفاح، ولكن ما من تفاح بداخلها، بل شيء لم تجد هايدي صعوبة في معرفته، لأنه كان فراشها، بحشيته

التي أعدت من القش وملاءاته والجراب الذي يحل محل الغطاء، كما اعتادت في الكوخ الجبلي. صفقت هايدي فرحًا وقالت: «هذه غرفتي يا جدي، يا لجمالها! ولكن أين ستنام أنت؟».

«لا بد أن تكون غرفتك قريبة من الموقد وإلا تجمدت. غير أن بوسعك القدوم ورؤية غرفتي أيضًا»، أجاب.

نزلت هايدي ومشت في الغرفة الكبيرة خلف جدها، الذي فتح بابًا في الطرف الأقصى يفضي إلى غرفة أصغر ستكون غرفة نومه. ثم ظهر باب آخر، فتحته هايدي ووقفت مذهولة، إذ رأت غرفة كبيرة مثل مطبخ أكبر من أي شيء مماثل رأته هايدي قبلًا. ما زال أمام الجد الكثير من العمل قبل أن تكون هذه الغرفة جاهزة، إذ كان فيها الكثير من الشقوق والصدوع في الجدران التي تصفر فيها الريح، غير أنه دق الكثير من الألواح الخشبية الجديدة بالمسامير فبدت كأنها وضعت في الغرفة خزانات صغيرة كثيرة، كما أنه أغلق الباب الكبير بدق الكثير من المسامير والبراغي، وقاية من الهواء الخارجي، وكان هذا ضروريًا لأن خلفه الكثير من الأبنية المهجورة التي غطتها الحشائش الطويلة، وباتت مأوى للكثير من الخنافس والعظاءات.

سرت هايدي ببيتها الجديد، وبحلول الصباح الذي أعقب قدومهما باتت تعرف كل زاوية وركن جيدًا وصار بوسعها أن تأخذ بيتر وتريه المكان، بل إنها لن تسمح له بالذهاب ما لم ير كل شيء جميل فيه.

نامت هايدي بهدوء في زاويتها قرب الموقد، غير أنها كلما استيقظت صباحًا ظنت أنها لم تزل في الجبل، وأن عليها الخروج فورًا لترى إن كان صمت أشجار التنوب لأن أغصانها مثقلة بالثلج. وكان عليها أن تنظر حولها بضع دقائق قبل أن تعرف أين هي، فيعتريها شعور بالحزن والضيق كلما أدركت أنها ليست في الكوخ. ثم تسمع صوت جدها خارجًا، يعتني بالعنزتين، فتثغوان مرة أو اثنتين كأنما تناديناها لتسرع بالذهاب إليهما. فتشعر هايدي بالسعادة ثانية، لأنها تدرك أنها لم تزل في الديار، فتقفز من فراشها فرحة وتخرج إلى العنزتين بأسرع ما تستطيع. وما إن رأت جدها في الصباح الرابع حتى قالت: «علي الصعود لرؤية الجدة اليوم، يجب ألا تترك وحدها لوقت طويل».

لكن الجد لم يوافق على هذا وقال: «لا يمكنك الذهاب اليوم ولا غدًا، فالثلج يغطي الجبل بطول القامة، وما زال الثلج يتساقط، حتى بيتر القوي لا يمكنه الخروج إلا بمشقة. وطفلة صغيرة مثلك ستغوص به سريعًا، ولن نتمكن من العثور عليك ثانية. انتظري قليلًا حتى يتجمد، ثم يصبح بإمكاننا المشي على الثلج الصلب».

لم تعجب فكرة الانتظار هايدي، غير أن الأيام كانت مزدحمة ولم تعرف كيف مرت.

أخذت هايدي تذهب إلى المدرسة في دورفلي كل صباح وبعد الظهر، وأخذت تعمل بلهفة لتتعلم كل ما يلقن لها. وقليلًا ما رأت بيتر هناك، فقد اعتاد الغياب. وكان المعلم رجلًا سهل السجية يقول

مرحًا بين الحين والآخر: «يبدو أن بيتر لن يأتي اليوم أيضًا. إن في الجبل الكثير من الثلج وأظنه لا يستطيع الخروج». لكن بيتر استطاع دومًا شق طريقه في الثلج مساء حين تنقضي ساعات المدرسة، فيزور هايدي دومًا.

وبعد بضعة أيام ظهرت الشمس أخيرًا وأشرقت ساطعة على الأرض البيضاء، لكنها خلدت للفراش ثانية خلف الجبال في ساعة باكرة جدًا، كأنها لم تجد متعة كبيرة في النظر إلى الأرض مثلما تفعل حين يكون كل شيء أخضر ومزهرًا. ثم برز القمر ساطعًا وكبيرًا وأضاء الحقل الثلجي الكبير طوال الليل، وتلألأ الجبل بأسره ولمع مثل بلورة كبيرة في الصباح التالي. حين خرج بيتر من النافذة كالمعتاد، باغتته المفاجأة، وبدلًا من الغوص في الثلج الطري وقع على الأرض الصلبة وانزلق قليلًا أسفل الجبل مثل زلاجة قبل أن يتمكن من التوقف. فلملم نفسه وتحسس صلابة الأرض بوطئها وحاول بكل قوته أن يحفر كعبيه فيها، غير أنه لم يستطع كسر شظية صغيرة من الجليد، وكان الجبل متجمدًا صلبًا كالحديد. وهذا ما تمناه بيتر، لأنه عرف أن هايدي ستتمكن من الصعود إليهم. فعاد إلى البيت سريعًا، وازدرد الحليب الذي أعدته أمه له، ودس قطعة من الخبز في جيبه وقال: «علي الذهاب إلى المدرسة»، فقالت الجدة مشجعة: «هذا صحيح، اذهب وتعلم كل ما بوسعك». تسلل بيتر من النافذة ثانية، إذ كان الباب مسدودًا تمامًا بالثلج المتجمد، وسحب زلاجته خلفه، وأخذ يهبط الجبل سريعًا.

ومضى بسرعة البرق، وحين وصل دورفلي التي تقع على الطريق

المباشر إلى مينفيلد، عزم على أن يواصل، لأنه واثق أنه لن يتمكن من إيقاف نزوله السريع دون إيذاء نفسه والزلاجة أيضًا. فواصل النزول حتى وصل إلى الأرض المستوية حيث توقفت الزلاجة من تلقاء نفسها. فخرج ونظر حوله، فقد أخذه الحافز الذي شجعه على هذه الرحلة إلى ما وراء مينفيلد، وظن أن الوقت تأخر كثيرًا على الذهاب إلى المدرسة، فلا بد أن الدروس قد بدأت مسبقًا، وستستغرق منه العودة إلى دورفلي ساعة كاملة. لذا فإنه سيتأنى في العودة، وهذا ما فعله، فوصل في الوقت الذي عادت فيه هايدي إلى البيت من المدرسة وجلست لتناول الغداء مع جدها. دخل بيتر، ولما كان لديه ما يقوله كما في هذه الحال، فقد بدأ دون توقف يقول وهو يقف وسط الغرفة: «لقد حدث الآن».

فسأله الخال: «ما الذي حدث؟ تبدو كلماتك حربية أيها القائد».

«الصقيع»، شرح بيتر.

«أوه! يمكنني الذهاب إذن ورؤية الجدة!»، قالت هايدي فرحة لأنها فهمت كلمات بيتر في الحال، «ولكن لماذا لم تأت إلى المدرسة اليوم إذن؟ كان بوسعك القدوم على الزلاجة»، أضافت مؤنبة لأن الغياب لم يتوافق مع تصور هايدي عن السلوك الحسن ما دام قدومه ممكنًا.

«لقد أخذتني الزلاجة بعيدًا جدًا، وتأخرت»، أجاب بيتر.

فقال الخال: «أسمي هذا مروقًا، والمارق تشد أذنه كما تعلم».

جذب بير قبعته خوفًا، إذ ما كان يهاب أحدًا بقدر الخال ألم.

«وقائد جيش مثلك عليه أن يخجل خجلًا مضاعفًا لفراره»، تابع الخال ألم، «ماذا تظن بعنزاتك إن واحدة ذهبت هنا أو هناك، ورفضت الانصياع وفعل ما فيه صالحها؟ فماذا ستفعل عندئذ؟».

«سأضربها»، قال بيتر بسرعة.

«وإن تصرف صبي مثل أولئك العنزات الحرون، وضُرب من أجل ذلك، فما قولك عندئذ؟».

«يستحق ذلك»، كان جوابه.

«حسن، إذن افهم ما أقوله؛ في المرة القادمة التي ستحملك فيها زلاجتك بعيدًا عن المدرسة في حين يتوجب عليك الدخول وحضور الدروس، تعال إلي بعدها وتلق ما تستحق».

فهم بيتر مساق أسئلة الرجل العجوز وأنه هو الصبي الذي تصرف مثل العنزات الحرون، ونظر بشيء من الخوف نحو الزاوية ليرى إن حدث شيء مما اعتاد هو نفسه فعله في مناسبات كهذه عقابًا لعنزاته.

لكن الجد قال بصوت مبتهج فجأة: «تعال واجلس وتناول شيئًا، وستذهب هايدي معك بعدها. أعدها هذا المساء وستجد العشاء جاهزًا بانتظارك هنا».

جعل هذا التحول المفاجئ للحديث بيتر يبتسم ابتسامة عريضة. فأطاع دون إبطاء وأخذ مقعده قرب هايدي، لكن الطفلة لم تستطع تناول المزيد من حماسها لفكرة الذهاب ورؤية الجدة.

فدفعت بالبطاطا والجبنة المحمصة التي ظلت في طبقها نحوه في حين كان الجد يملأ طبقه من الجانب الآخر، فصار أمامه كومة من الطعام، غير أنه هجم عليها دون أي نقص في الشجاعة. وذهبت هايدي نحو الصوان وأخرجت الشملة الدافئة التي أرسلتها كلارا، وارتدتها ووضعت القلنسوة على رأسها، وغدت جاهزة للرحلة. ووقفت منتظرة قرب بيتر، وما إن ابتلع لقمته الأخيرة حتى قال: «هلمي بنا». وحين سار الاثنان معًا كان لدى هايدي الكثير لتخبر به بيتر عن حزن عنزتيها في يومهما الأول في عرزالهما الجديد، فلم تتناولا شيئًا، بل ظلتا تدليان رأسيهما دون أن تثغوا. وحين سألت جدها عن سبب هذا، أخبرها أن ما حدث لهما هو نفسه ما حدث لها في فرانكفورت، لأنهما نزلتا الجبل لأول مرة في حياتهما وأضافت «وأنت لا تعرف هذا الشعور يا بيتر ما لم تشعره بنفسك».

وصل الطفلان وجهتهما تقريبًا قبل أن ينبس بيتر بحرف، فقد بدا غارقًا في أفكاره ولم يسمع ما قيل له إلا قليلًا. غير أنه وقف حين اقتربا من البيت وقال بصوت حزين: «من الأجدر بي الذهاب إلى المدرسة وإلا تلقيت من الخال ما توعدني به».

وهذا ما ظنته هايدي أيضًا، فشجعته على قراره الحسن. وجدا بريجيتا تجلس وحدها للحياكة، لأن الجدة لم تكن بحال جيدة ولزمت الفراش طوال النهار بسبب البرد. لم يسبق لهايدي أن رأت مكان المرأة العجوز في الزاوية خاليًا فجرت بسرعة إلى الغرفة المجاورة، حيث رقدت الجدة على فراشها القليل الغطاء ملتفة بوشاحها الرمادي الدافئ.

«حمدًا للرب»، قالت حين دخلت هايدي، إذ شعرت المرأة المسكينة بخوف سري طوال الخريف، وبخاصة أن هايدي غابت لبعض الوقت، إذ أخبرها بيتر أن سيدًا غريبًا جاء من فرانكفورت، وأنه خرج معهما وتحدث إلى هايدي دومًا، فأيقنت أنه قدم لأخذها ثانية. وحتى عند سماعها أنه رحل وحده، ظل يخطر لها أن يأتي رسول من فرانكفورت لاصطحاب الطفلة. اقتربت هايدي من جانب الفراش وقالت: «هل أنت مريضة جدًا يا جدتي؟».

«كلا، كلا يا صغيرتي»، أجابت المرأة العجوز مطمئنة، ممررة يدها بحب على رأس الطفلة، «إن البرد اخترق عظامي فحسب».

«هل ستكونين بخير تمامًا حين يصبح الجو دافئًا؟».

«أجل، إذا شاء الرب، أو حتى قبل ذلك لأني أود العودة إلى غزلي، ظننت أن بوسعي القيام بالقليل اليوم، غير أنني متأكدة انني سأكون بخير تمامًا غدًا»، استشعرت المرأة العجوز خوف هايدي وقلقها فأرادت أن تهدئ من روعها.

أراحت كلماتها هايدي، التي حزنت حزنًا شديدًا، لأنها لم تر الجدة ترقد في فراش المرض قبلًا، فنظرت إلى المرأة العجوز نظرة جادة لدقيقة أو اثنتين ثم قالت: «في فرانكفورت يضع الجميع أوشحة ويخرجون للتنزه، هل تظنين أن الوشاح يرتدى في الفراش يا جدتي؟».

«لقد ارتديته يا صغيرتي العزيزة لأقي نفسي من البرد، وأنا سعيدة به لأن أغطيتي ليست سميكة جدًا»، أجابت.

فتابعت هايدي: «ولكن يا جدتي، إن فراشك ليس جيدًا لأنه ينخفض عند رأسك بدلًا من أن يرتفع».

«أعرف يا صغيرتي، وأشعر بذلك»، ووضعت الجدة يدها النحيلة على الوسادة الرقيقة المستوية، التي كانت أرفع من لوح تحت رأسها لتجعل نفسها أكثر راحة، «لم تكن الوسادة سميكة يومًا، وأنا أرقد عليها منذ سنوات عديدة حتى صارت مستوية تمامًا».

«أوه، ليتني طلبت من كلارا أن تسمح لي بأخذ سريري في فرانكفورت»، قالت هايدي، «لدي ثلاث وسائد كبيرة واحدة فوق الأخرى، فلم أستطع النوم إلا قليلًا، واعتدت الانزلاق للأسفل للعثور على مكان مستوٍ، ثم علي رفع نفسي للأعلى، لأن من اللائق النوم على هذا النحو هناك. هل يمكنك النوم هكذا يا جدتي؟».

«أوه، أجل! إن الوسائد تبقي المرء دافئًا، وإن كان الرأس عاليًا غدا التنفس أسهل»، أجابت الجدة رافعة رأسها بتعب وهي تتحدث كأنها تحاول العثور على مكان مريح عالٍ، «غير أننا لن نتحدث مطولًا عند ذلك، لأن لدي ما لا يملكه كثير من المرضى فأحمد الرب، إذ لدي الخبز اللذيذ الذي أتناوله كل يوم، وهذا الوشاح الدافئ وزياراتك يا هايدي. هلا قرأت لي شيئًا اليوم؟».

ذهبت هايدي إلى الغرفة المجاورة لجلب كتاب الترانيم، ثم انتقت الترانيم المفضلة واحدة فواحدة، لأنها باتت تحفظها عن ظهر قلب، سعيدة بقدر سعادة الجدة لسماعها ثانية بعد كل هذه الأيام.

رقدت الجدة بيدين مضمومتين، وعلت وجهها المنهك الحزين ابتسامة رضا، مثل من قيلت له أخبار طيبة.

توقفت هايدي فجأة: «هل بدأت تشعرين بتحسن يا جدتي؟».

«أجل يا صغيرتي، لقد تحسنت لدى الإصغاء إليك، فاقرئي حتى النهاية».

واصلت الطفلة القراءة، وحين وصلت إلى الكلمات الأخيرة:

حين تظلم العينان، والعتمة
تخيم في الأنحاء، تغدو الروح أنقى
وترى الهدف الذي تسافر إليه
وتشعر بالسعادة لأن بيتها أقرب.

كررت الجدة الكلمات مرة أو مرتين في سرها، وعلى وجهها ترقب سعيد. وشعرت هايدي بسعادة مماثلة، لأن صورة اليوم الجميل المشمس لعودتها إلى الديار قد تراقصت أمام عينيها، فقالت بفرح: «أعرف تمامًا الشعور بالعودة إلى الديار يا جدتي»، ولم تجب الطفلة، لكنها سمعت كلمات هايدي، وظل على وجهها التعبير الذي أشعر الطفلة أنها تحسنت.

قلت هايدي بعد قليل: «إن الظلام يخيم، وعلي العودة إلى البيت، إنني سعيدة لرؤيتي أنك تحسنت».

أخذت الجدة يد الطفلة في يدها وقربتها منها قائلة: «أجل، أشعر بالسعادة ثانية، حتى لو ظللت أرقد هنا فأنا راضية. لا أحد

يعرف معنى الرقود هنا وحيدًا يومًا بعد آخر في الصمت والعتمة دون سماع صوت أو رؤية شعاع من الضوء. تخطر لي أفكار حزينة، وأشعر أحيانًا أنني لا أحتملها أكثر ولا أن النور سيعود إلي. ولكن حين تأتين وتقرأين لي هذه الكلمات، أشعر بالراحة ويسعد قلبي مرة أخرى عندئذ».

ثم تركت الطفلة، واتجهت هايدي إلى الغرفة المجاورة وطلبت من بيتر أن يأتي بسرعة، لأن الظلام خيم. ولكن حين خرجا وجدا القمر ساطعًا على الثلج الأبيض وكل شيء واضح كما في وضح النهار. جلب بيتر زلاجته وأجلس هايدي في الخلف وجلس هو في الأمام ليقودها، وانطلقا ينزلان الجبل مثل عصفورين يطيران في الهواء.

حين اضطجعت هايدي على فراشها العالي من التبن تلك الليلة، تذكرت الجدة ورقودها على الوسادة الرفيعة، وكل ما قالته عن الضياء والراحة اللذين أيقظاها حين سمعت التراتيل، وقالت في نفسها لو استطعت القراءة لها كل يوم لجعلتها تتحسن. لكنها عرفت أن أسبوعًا أو ربما أسبوعين سيمران قبل أن تتمكن من صعود الجبل ثانية. أحزنت هذه الفكرة هايدي كثيرًا، وحاولت التفكير مليًا بطريقة تمكن الجدة من سماع الكلمات التي تحبها كل يوم. ثم خطرت لها فكرة فجأة، وسرت كثيرًا بها حتى إنها لم تطق الانتظار حتى الصباح، وتلهفت كثيرًا للمضي بتنفيذ خطتها. فاعتدلت في فراشها في الحال، لأنها شغلت بأفكارها فنسيت تلاوة صلواتها، ولم تعد تنهي يومها دون تلاوتها.

وحين صلت من كل قلبها لأجل نفسها ولأجل جدها والجدة، رقدت ثانية على التبن الدافئ الطري ونامت بهدوء وسلام حتى طلع الصباح.

الجزء الرابع

الفصل التاسع عشر
الشتاء يستمر

وصل بيتر في موعده إلى المدرسة في اليوم التالي، وقد جلب معه غداءه، لأن كل الأطفال الذين يسكنون بعيدًا يجلسون دومًا منتصف النهار على الطاولات ويضعون أقدامهم على المقاعد، ويفرشون طعامهم على ركبهم ويتناولون غداءهم، أما أولئك الذين يسكنون دورفلي فيعودون إلى منازلهم لتناول الغداء. ويمكنهم فعل ما شاؤوا حتى الساعة الواحدة، إذ تستأنف الدراسة عندئذ. حين ينهي بيتر دروسه في الأيام التي يحضر فيها إلى المدرسة، يذهب إلى بيت الخال لرؤية هايدي. ولما دخل الغرفة الكبيرة اليوم، تقدمت نحوه هايدي من فورها وأمسكت به، لأنها كانت تنتظره، وقالت على عجل: «لقد خطرت لي فكرة يا بيتر».

«ما هي؟»، سألها.

«عليك أن تتعلم القراءة»، أخبرته.

«لقد تعلمت»، كان رده.

«أجل، أجل. لكني لا أعني القراءة فحسب. بل أن تقرأ بسلاسة بلا تلعثم»، أجابت هايدي بحماس.

«لا أستطيع»، كان الجواب السريع.

«لا أحد يصدق ذلك، ولا أنا أصدق»، قالت هايدي بنبرة حاسمة، «قالت الجدة في فرانكفورت قبل وقت طويل إن هذا ليس بصحيح، وأخبرتني ألا أصدقك».

ففوجئ بيتر بهذا الذكاء.

«سأعلمك القراءة بسرعة، لأنني أعرف كيف»، واصلت هايدي، «عليك أن تتعلم في الحال فتقرأ للجدة ترتيلة أو اثنتين كل يوم».

«أوه، لست مهتمًا بذلك»، أجاب متذمرًا.

فأثارت غضبها هذه الطريقة القاسية في رفض فعل الصالح والطيب، وفعل ما تمنته هايدي من صميم قلبها. فوقفت قبالة الصبي بعينين متقدتين وقال متوعدة: «إن لم تتعلم كما أريدك أن تفعل، فإليك ما سيحدث. أنت تعلم أن أمك تتحدث كثيرًا عن إرسالك إلى فرانكفورت، فتتعلم الكثير من الأمور، وأعرف أي مدرسة يرتادها الأولاد هناك، فقد أرتني كلارا المبنى الكبير حين كنا نتجول معًا. وهم هناك لا يدرسون في صغرهم فحسب، بل يواصلون الدراسة حتى حين يكبرون أيضًا. لقد رأيتهم بأم عيني، ولا تظن أن لديهم معلمًا واحدًا طيبًا مثلنا، بل لديهم الكثيرون، وكلهم في المدرسة في

الوقت نفسه، وكلهم يرتدون السواد كأنهم يذهبون إلى الكنيسة، ويعتمرون قبعات سودًا عالية بهذا الارتفاع...»، ورفعت هايدي يدها لتبين له ارتفاعها عن الأرض.

سرت قشعريرة باردة في جسد بيتر.

«وسيتعين عليك الذهاب مع كل هؤلاء السادة»، تابعت هايدي بحماس متزايد، «وحين يأتي دورك ستعجز عن القراءة وتخطئ في التهجئة، فترى حينئذ كم يسخرون منك، أسوأ مما تفعل تنته، ولا بد لك أن ترى كيف تبدو حين تهزأ».

«حسن، سأتعلم إذن»، قال بيتر بشيء من الحزن والغضب.

فهدأت هايدي سريعًا: «هذا جيد، فلنبدأ في الحال إذن»، قالت مبتهجة وبدأت العمل بنشاط، آخذة بيتر إلى الطاولة ومحضرة كتبها.

من بين الهدايا التي أرسلتها كلارا لهايدي كتاب قالت في الليلة الماضية إنه سيفيد كثيرًا في تعليم بيتر لأنه كتاب أبجدية بأبيات مقفاة. وجلس الاثنان إلى الطاولة وأحنيا رأسيهما إلى الكتاب، لأن الدرس بدأ.

كان على بيتر تهجئة الجملة الأولى مرتين أو ثلاثًا، لأن هايدي أرادت له أن تكون قراءته صحيحة وطلقة، فقالت له أخيرًا: «إنك لا تقرأها قراءة صحيحة، لكنني سأقرأها عليك جهرًا مرة واحدة، فيسهل عليك الأمر إن عرفت لفظها»، ثم قرأت:

أ ب ت لا بد أن تتعلمها اليوم

وإلا سيأمرك القاضي بالدفع

«لن أذهب»، قال پيتر بعناد.

«إلى أين؟»، سألته هايدي.

«لأمثل أمام القاضي»، أجاب.

«حسن أسرع وتعلم هذه الأحرف الثلاثة إذن، فلا تضطر للذهاب».

فمضى پيتر لمهمته مرة أخرى وكرر الأحرف الثلاثة مرات عديدة بشيء من العزم فقالت له أخيرًا:

«عليك أن تتعلم هذه الثلاثة الآن».

وبعد أن رأت تأثير السطرين الأولين من القصيدة فيه، رأت أن من الأفضل إعداده قليلًا للدروس التالية.

«انتظر، سأقرأ لك بعضًا من الجمل التالية، فتعرف ما ينتظرك»، تابعت.

ثم قرأت بصوت صافٍ:

ث ج ح لا بد أن تكون سهلة
وإلا سيعقبها شيء غير سار.
وإن نسيت خ د ذ
عار عليك
ثم تأتي ر ز بعدها

وإلا ستدعى أحمق مثيرًا للشفقة
إن كنت تعرف ما ينتظرك تاليًا
فستتعلم من فورك س ش ص ض
وتعلم بسرعة ط ظ ع
وإلا فسيعقب ذلك الأسوأ

توقفت هايدي لأن بيتر شديد الهدوء فنظرت إليه لترى ما يفعله. فقد أثر به هذا الوعيد الخفي والتلميح للعقوبات الرهيبة فجلس مذعورًا ونظر إلى هايدي بعينين يملؤهما الخوف. فرق له قلبها العطوف حالًا وقالت رغبة منها في طمأنته: «لا تخف يا بيتر، تعال إلي كل مساء، وإن تعلمت مثلما فعلت اليوم فستعرف كل الحروف في نهاية المطاف، ولن تحدث الأمور الأخرى. ولكن عليك القدوم بانتظام، وليس بين الحين والآخر كما تفعل في المدرسة، فالثلج لن يصيبك بسوء».

وعدها بيتر، لأن الخوف الذي انتابه جعله أليفًا وسهل القياد. وعاد إلى بيته حين انتهت الدروس لهذا اليوم.

أطاع بيتر تعليمات هايدي بحذافيرها، وذهب كل مساء بجد لتعلم الأحرف التالية آخذًا الأمور على محمل الجد. كان الجد دومًا في الغرفة يدخن غليونه بارتياح أثناء الدروس، وينتفض وجهه أحيانًا كأنما أصابته نوبة مفاجئة من السعادة. كثيرًا ما دعي بيتر بعد المجهود الكبير الذي يبذله إلى العشاء، الذي عوضه بسخاء عن الجهد الذهني الذي بذله في قراءة الجمل اليوم.

وهكذا مر الشتاء، وأحرز بيتر تقدمًا بتعلم الأحرف، غير أنه وجد مشقة كبيرة في الجمل.

وقد وصل أخيرًا إلى غ، فقرأت هايدي جهرًا:

وإن وضعت الغين محل الفاء
فستذهب إلى حيث لا ترغب بالذهاب

فزمجر بيتر: «أجل، ولكني لن أذهب!»، لكنه كان مجدًّا للغاية ذلك اليوم، كأنما يخشى أن يمسك به أحد من ياقته فجأة ويجره إلى حيث لا يود الذهاب. قرأت هايدي المساء التالي:

وإن فشلت في قراءة ق،
فانظر إلى العصا قرب الحائط.

فنظر بيتر إلى الحائط وقال هازئًا: «ما من عصا».

«صحيح، ولكن هل تعرف ماذا يحفظ الجد في صندوقه؟»، سألت هايدي، «عصا ثخينة بقدر ذراعك، وإن أخرجها فلعلك تقول انظر إلى العصا على الحائط».

عرف بيتر عصا البندق، فأحنى رأسه فورًا على حرف ق وجهد لإتقانه. وفي يوم آخر كانت السطور:

ثم يأتي حرف هـ لتقوله
وإلا ثق أنك لن تنال طعامًا اليوم

نظر بيتر إلى الصوان الذي يحفظ فيه الخبز والجبن وقال حانقًا: «لم أقل أبدًا أنني سأنسى حرف الهاء».

«هذا حسن، إن لم تنسه فسنمضي للحرف التالي فيكون عندك واحدًا آخر فحسب»، أجابت هايدي متحمسة لتحفيزه.

لم يفهم بيتر تمامًا، ولكن حين قرأت هايدي:

وإن توقفت عند حرف الواو
ستشير كلها إليك وتهتف تعسًا تعسًا!

تراءت له صورة كل السادة في فرانكفورت الذين يعتمرون قبعات سودًا عالية، والسخرية والاستهزاء على وجوههم، فأقدم بنشاط على تعلم الواو، ولم يتركها حتى تعلمها جيدًا فصار يعرف شكلها حتى حين يغمض عينيه.

جاء في اليوم التالي بروح عالية، إذ لم يبق إلا حرف واحد يتعلمه، وحين بدأت هايدي الدرس بالقراءة جهرًا:

أسرع بتعلم الياء فأنت بطيء
وإلا أرسلت إلى الهوتنتوت[1]

فعقب بيتر هازئًا: «أستطيع القول إن ما من أحد يعرف أين يعيش هؤلاء».

فأجابت هايدي: «أؤكد لك يا بيتر أن جدي يعرف كل شيء عنهم. انتظر لحظة وسأذهب لسؤاله، لأنه في طريقه للذهاب إلى القس». ونهضت وذهبت إلى الباب لتنفذ ما قالته، لكن بيتر نادى بصوت معنّى: «توقفي!» لأنه تخيل نفسه وقد أخذه الجد والقس

(١) شعب جنوب أفريقي.

وأرسلاه مباشرة إلى الهوتنتوت، لأنه لم يتعلم بعد الحرف الأخير، فأعادت صرخة خوفه هايدي.

«ما الأمر؟»، سألت في دهشة.

«لا شيء! عودي! سأتعلم الحرف»، قال وهو يرتجف خوفًا. أرادت هايدي معرفة أين يعيش الهوتنتوت وأصرت على سؤال جدها، لكنها أذعنت لتوسلات بيتر اليائسة. وأصرت عليه أن يفعل شيئًا بالمقابل، ولا يكتفي بترديد حرف الياء حتى يستقر في ذاكرته ولا ينساه فحسب، بل أخذت تعلمه التهجئة، وبدأ بيتر بداية طيبة ذلك المساء. وهكذا مضى الأمر من يوم لآخر.

ذاب الصقيع وصار الثلج طريًا مرة أخرى، وظل الثلج يهطل بلا توقف، فمرت ثلاثة أسابيع قبل أن تتمكن هايدي من الذهاب إلى الجدة. غير أنها جهدت في تعليمها فيعوض بيتر غيابها بقراءة الترانيم للمرأة العجوز. دخل البيت ذات مساء بعد أن ترك هايدي، وقال حين دخل: «يمكنني فعلها الآن».

«تفعل ماذا يا بيتر؟»، سألته أمه.

«القراءة»، أجاب.

«هل تعني ذلك حقًا؟ هل سمعت هذا أيتها الجدة؟»، نادت.

سمعت الجدة وتساءلت كيف لشيء كهذا أن يحدث.

«لا بد أن أقرأ إحدى الترانيم الآن، هذا ما قالته هايدي»، قال لهما. جلبت أمه الكتاب على عجل، ورقدت الجدة بترقب فرح، إذ

مضى وقت طويل منذ أن سمعت الكلمات الطيبة. جلس بيتر إلى الطاولة وبدأ يقرأ. جلست أمه قربه مصغية بذهول وتقول في ختام كل بيت: «من كان يظن هذا ممكنًا؟!».

لم تتحدث الجدة بل تابعت الكلمات التي قرأها بانتباه شديد.

وصدف في اليوم التالي أن يكون في صف بيتر درس قراءة، وحين جاء دوره قال المعلم «علينا تجاوز بيتر، أم أنك ستحاول مرة أخرى، ولن أقول لك اقرأ بل تأتئ بالجملة».

أخذ بيتر الكتاب وقرأ ثلاثة أسطر دون أدنى إبطاء.

وضع المعلم الكتاب جانبًا ونظر إلى بيتر كأنما ينظر إلى شيء خارق ومدهش لم ير قبلًا، وقال أخيرًا: «لقد حدثت لك معجزة يا بيتر! لقد جهدت بصبر لا مثيل له لتعليمك ولم تقدر أن تلفظ الحروف. والآن، حين عزمت على ألا أضيع مزيدًا من الجهد عليك تغدو قادرًا على قراءة جمل متتالية فجأة على نحو واضح وصحيح. كيف لمعجزة كهذه أن تحدث في أيامنا؟».

«إنها هايدي»، أجاب بيتر.

نظر المعلم في دهشة إلى هايدي التي تجلس ببراءة في مقعدها دون أن يبدو عليها أي مظهر خارق، ثم قال: «لقد لاحظت تغيرًا عليك يا بيتر. إذ كنت في السابق كثيرًا ما تغيب عن المدرسة لأسبوع أو حتى أسابيع، لكنك مؤخرًا لم تغب يومًا واحدًا. فمن أحدث هذا التغيير للأحسن؟».

«إنه الخال»، أجاب بيتر.

نقل المعلم نظره بدهشة مضاعفة بين بيتر وهايدي ثم إلى بيتر ثانية. «حسن، سنحاول مرة أخرى»، قال بانتباه، وأخذ بيتر يتباهى بإنجازه ثانية بقراءة ثلاثة أسطر أخر. ولم يكن في الأمر لبس، إن بيتر يستطيع القراءة. حين انقضت ساعات المدرسة ذهب المعلم إلى القس وأخبره بالأنباء، وأعلمه بالنتيجة السعيدة لجهود هايدي والجد معًا.

قرأ بيتر ترتيلة واحدة جهرًا كل مساء، إذ أطاع هايدي. ولا شيء حرضه على قراءة اثنتين، كما أن الجدة لم تطلب أخرى. لم تستطع أمه بريجيتا التغلب على دهشتها بإنجاز ابنها، وكلما خلد القارئ إلى فراشه عبرت عن سعادتها به. «لا أحد يدري ما الذي سيبدر عنه بعد وقد تعلم القراءة».

في إحدى هذه المرات أجابت الجدة: «أجل، إن من الأفضل له أن يتعلم شيئًا، غير أن علي أن أمتن لعودة الربيع ومجيء هايدي ثانية. فهي ليست التراتيل نفسها حين يقرأها بيتر، وتبدو الكثير من الكلمات مفقودة، وأحاول تذكرها ثم أفقد تركيزي ولا تصل الترتيلة شغاف قلبي كما تصل حين تقرأها هايدي».

في الحقيقة حاول بيتر أن يقرأ بقليل من الجهد قدر المستطاع وحين يصل كلمة يظنها طويلة جدًا أو صعبة بشكل ما فإنه يتركها، لأنه رأى أن إسقاط كلمة أو اثنتين من البيت، لن تحدث فرقًا لدى جدته لأن فيه الكثير من الكلمات. وحدث كثيرًا أن سقطت أهم الكلمات في التراتيل التي يقرأها بيتر جهرًا.

الفصل العشرون
أنباء من أصدقاء بعيدين

جاء شهر مايو. وتدفقت ينابيع الربيع الغزيرة النقية من كل قمة إلى الوادي. وسقطت أشعة الشمس الساطعة الدافئة على الجبل، الذي اخضر ثانية. واختفت أواخر الثلج وغازلت الشمس كثيرًا من الزهور لتظهر رؤوسها الزاهية فوق العشب. وفي الأعلى كانت ريح الربيع النشوى تغني عبر أشجار التنوب، وتهز الإبر العتيقة لتفسح مكانًا للخضراء المشرقة الجديدة التي ظهرت سريعًا على الأشجار في ردائها الربيعي. وفي الأعلى لم يزل الطائر الكبير يدوّم في الفضاء الأزرق كما في الماضي، وأضاءت الشمس الذهبية كوخ الجد، وكل الأرض من حوله دافئة وجافة فيمكن للمرء الجلوس أينما شاء. عادت هايدي إلى بيت الجبل، ومضت جيئة وذهابًا كعادتها، دون أن تدري أي بقعة أكثر جمالًا. وها قد وقفت تصغي إلى الصوت العميق الغامض للريح وهي تهب عليها من قمم الجبل، وتقترب وتقترب مستجمعة قواها كلما اقتربت حتى تهب بقوة على أشجار التنوب فتميلها وتهزها، كأنها تصرخ

فرحًا، فشعرت هي أيضًا، رغم أن الريح طيرتها مثل ريشة، أن عليها الانضمام لجوقة الأصوات الجذلة. ثم ذهبت ثانية إلى البراح المشمس أمام الكوخ، وجلست على الأرض ونظرت عن كثب إلى العشب القصير لترى تفتح أجراس الزهور أو التي توشك أن تتفتح، وسرت بالخنافس الكثيرة والحشرات المجنحة التي تقفز وتدب وترقص تحت الشمس، واستنشقت أنفاسًا عميقة من أريج الربيع الذي يفوح من الأرض المستيقظة لتوها، ورأت أن الجبل أجمل من ذي قبل. لا بد أن المخلوقات الصغيرة سعيدة بقدرها، لأنه تبين لها أن أصواتًا صغيرة تغني من حولها وتدندن في نغمات فرحة: «على الجبل! على الجبل!».

ومن العرزال خلف الكوخ جاء صوت قطع ونشر وأنصتت له هايدي بسعادة، لأنه كان الصوت القديم المألوف الذي عرفته منذ بدء حياتها في الأعلى هنا. فقزت فجأة ودارت لأنها عرفت ما يصنعه جدها. أمام باب المشغل وُضع كرسي جديد فرغ منه للتو، والآخر كان في طور الإعداد تحت يد الجد الماهرة. «أوه، أعرف لأي شيء هذه»، قالت هايدي بفرح كبير، «سنحتاجها إن جاؤوا كلهم من فرانكفورت. هذا للجدة والآخر الذي تصنعه لكلارا، ثم، ثم أظن أنه لا بد من آخر»، قالت هايدي بتردد أكثر في صوتها، «أوَ تظن يا جدي أن الآنسة روتنماير لن تأتي معهم؟».

«حسن، لا يمكنني الجزم بذلك»، أجاب جدها، «غير أن من الأفضل صنع واحد فنقدمه لها إن جاءت».

نظرت هايدي بتمعن إلى الكرسي الخشبي البسيط الذي لا ذراعين له كأنها تتخيل ملاءمة الآنسة روتنماير وكرسي كهذا لبعضهما بعضًا. وبعد دقائق من التفكير قالت وهي تهز رأسها بارتياب: «لا أظن أن بوسعها الجلوس على هذا يا جدي».

«فسنطلب منها إذن الجلوس على الأريكة ذات الكسوة الخضراء الجميلة المحشوة بالريش»، أضاف جدها.

حين توقفت هايدي للتفكير بما يعني هذا اقترب صفير من الأعلى، وأصوات أخرى ميزتها هايدي في الحال. فخرجت ووجدت نفسها محاطة بصديقاتها من ذوات القوائم الأربعة، وبدت سعيدة برؤيتها بقدر سعادتها بأنها على القمم لأنها تقافزت وثغت فرحًا دافعة هايدي هنا وهناك، وكل منها متلهفة للتعبير عن بهجتها بعلامة حب. لكن بيتر فرّقها يمينًا وشمالًا، فلديه ما يعطيه لهايدي. وحين وصل إليها أخيرًا ناولها رسالة.

«إليك!»، قال تاركًا تفسير الأمر أكثر إلى هايدي نفسها.

«هل أعطاك أحد هذه حين خرجت بالعنزات؟»، سألته في دهشة.

«كلا»، كان الجواب.

«من أين جلبتها إذن؟».

«لقد وجدتها في حقيبة الغداء».

وهذا كان صحيحًا إلى حد ما. لقد أعطاه ساعي البريد الرسالة

لهايدي مساء البارحة في دورفلي، واضطر بيتر لوضعها في حقيبته الفارغة. وهذا الصبح وضع خبزه وجبنه في الحقيبة فوقها ونسي أمرها حين أخذ عنزتي الخال ألم، ولم يتذكرها إلا بعد أن انتهى من تناول الخبز والجبن منتصف النهار وأخذ يبحث في الحقيبة عن فتات فتذكر الرسالة التي كانت أسفلها.

قرأت هايدي العنوان باهتمام، ثم عادت إلى المشغل حاملة الرسالة إلى جدها في فرحة بالغة: «من فرانكفورت! من كلارا! هل تود سماعها؟».

كان الجد مستعدًا وسعيدًا لفعل ذلك، وبيتر أيضًا، الذي لحق بهايدي إلى المشغل. أسند ظهره إلى عمود الباب لأنه شعر أن بوسعه سماع قراءة هايدي أفضل إن استند على شيء بقوة، ووقف مستعدًا للاستماع.

«هايدي الغالية:

لقد حزمنا متاعنا وسننطلق في غضون يومين أو ثلاثة، ما إن يستعد بابا للمغادرة؛ إنه ليس قادمًا معنا لأن عليه الذهاب إلى باريس أولًا. يأتي الطبيب كل يوم، وما إن يدخل من الباب حتى يقول «انطلقوا بأسرع ما تستطيعون، انطلقوا إلى الجبال»، إنه نافد الصبر لسفرنا. لا يمكنك أن تتخيلي كم استمتع حين كان برفقتك! لقد أتى كل يوم تقريبًا هذا الشتاء، وفي كل مرة يدخل إلى غرفتي ويقول إن عليه إخباري بكل شيء ثانية. فيجلس عندئذ ويصف كل ما فعله معك ومع

الجد، ويتحدث عن الجبال والزهور وعن الصمت العميق في الأعلى فوق المدن والقرى، والهواء النقي اللذيذ، وكثيرًا ما أضاف «لا يمكن لأحد إلا أن يتعافى هناك». لقد أضحى هو نفسه رجلًا مختلفًا منذ زيارته، ويبدو شابًا وسعيدًا، وهذا ما لم يكن عليه منذ وقت طويل. أوه، كم أتطلع لرؤية كل شيء وأن أكون معك في الجبل والتعرف إلى العنزات وبيتر.

علي الذهاب أولًا للعلاج في راغاتز لستة أسابيع، وهذا ما أمر به الطبيب، ثم سننطلق إلى دورفلي، وسأُحمل إلى الجبل كل يوم مشمس على كرسيي فأقضي النهار معك. ستسافر معي الجدة وتبقى معي، إنها مسرورة أيضًا لزيارتنا لك. ولكن تصوري، إن الآنسة روتنماير ترفض القدوم معنا، وتقول لها جدتي كل يوم «حسن، ماذا عن الرحلة السويسرية يا عزيزتي روتنماير؟ وافقي من فضلك إن كنت تودين الذهاب معنا». لكنها تشكر جدتي دومًا بتهذيب شديد وتقول إنها حسمت أمرها. وأظنني أعرف ما دعاها إلى ذلك، فقد وصف سيباستيان الجبل وصفًا مخيفًا، وأن الصخور متدلية وخطيرة ويمكن للمرء الوقوع في وادٍ سحيق، وأن الصعود شاق فيخشى المرء الانزلاق للأسفل، وأن بوسع العنزات وحدها أن تصعد دون خوف الموت. فقد ارتعدت فرائصها حين سمعته يقول هذا، ومنذئذ لم تشعر بالحماس نحو سويسرا مثل ذي قبل. كما استولى الخوف على تنته، وهي أيضًا رفضت القدوم، ولذا سنأتي أنا والجدة فحسب، وسيذهب معنا سيباستيان حتى راغاتز ثم يعود ثانية.

إنني لا أطيق صبرًا حتى أراك ثانية. إلى اللقاء يا غاليتي هايدي، ترسل لك جدتي حبها وأمنياتها الطيبة».

صديقتك المحبة

كلارا.

وما إن سمع بيتر ختام الرسالة حتى ترك متكأه وخرج، ملوحًا بعصاه في الهواء بطريقة لامبالية ففرت العنزات الفزعة أسفل الجبل قبله بقفزات أعلى وأوسع من المعتاد. لحق بها بيتر بأقصى سرعته، ولم يزل رافعًا عصاه في الهواء بأسلوب متوعد كأنها تاق للتنفيس عن غيظه من عدو خفي. لم يكن هذا العدو إلا فكرة وصول أهل فرانكفورت، وقد ملأته هذه الفكرة بالحنق.

أما هايدي فقد ترقبت مجيئهم فرحة، وعقدت العزم على انتهاز أول فرصة في اليوم التالي للنزول وإخبار الجدة عن القادمين، وعمن لن يأتي على وجه الخصوص. إذ كانت هذه التفاصيل تهمها كثيرًا، لأن الجدة تعرف جيدًا كل الأشخاص المذكورين بفضل وصف هايدي، وقد أشفقت على الطفلة كثيرًا لما أخبرته بها عن حياتها ومحيطها في فرانكفورت. زارت هايدي الجدة في أول العصر، لأن بوسعها الذهاب بمفردها ثانية؛ فالشمس ساطعة في السماء والأيام أطول، ومن المبهج النزول من الجبل على الأرض الجافة، وريح مايو المنعشة تهب من خلفها، وتدفع بهايدي من خلفها فتسرع أكثر مما يمكن لقدميها وحدهما أن تفعلا.

لم تعد الجدة ملازمة لفراشها، بل عادت إلى ركنها ودولاب

الغزل، غير أن وجهها يكسوه قلق حزين. فقد دخل پيتر مساء البارحة طافحًا بالغضب وأخبرها عن المجموعة الكبيرة القادمة من فرانكفورت، وأنه لا يعلم ما سيحدث بعدئذ، ولم تنم المرأة العجوز طوال الليل، وقد أرقها الهاجس القديم بأخذ هايدي منها. دخلت هايدي وقربت مقعدها الصغير من فورها وجلست قرب الجدة وبدأت تحكي لها كل أخبارها بحماس، وهي تزداد حماسًا وسعادة كلما واصلت. غير أنها توقفت على حين غرة وقالت بقلق: «ما الأمر أيتها الجدة، ألست مسرورة قليلًا بما أخبرك به؟».

«بلى، بلى بالطبع يا صغيرتي، ما دام يسعدك هكذا»، أجابت محاولة أن تظهر ابتهاجًا أكثر.

«ولكني أرى تمامًا أن شيئًا يحزنك. هل ذلك لأنك تظنين أن الآنسة روتنماير قادمة؟»، سألت هايدي وقد أخذ القلق يساورها.

«كلا، كلا! لا شيء يا صغيرتي»، قالت الجدة محاولة طمأنتها، «أعطني يدك فحسب حتى أتأكد أنك هنا. لا بد أنه سيكون الأفضل لك، رغم أنني لا أطيقه».

«لا أريد الأفضل إن لم تطيقيه»، قالت هايدي بنبرة حاسمة زادت مخاوف الجدة إذ تأكدت أن أهل فرانكفورت قادمون لأخذ هايدي معهم، فما دامت قد تعافت فلا بد أنهم أرادوا أن تكون بينهم. غير أنها حرصت على إخفاء حزنها عن هايدي إن استطاعت، لأن الأخيرة حنون جدًا فترفض الذهاب، وهذا ليس

بأمر حسن. وبحثت عن العون، ولكن ليس طويلًا لأنها لم تعرف إلا أمرًا واحدًا.

«ثمة أمر سيريحني ويهدئ هواجسي يا هايدي. اقرأي لي الترتيلة التي مطلعها كل الأمور ستكون على ما يرام».

وجدت هايدي موضعها في الحال وقرأت بصوتها اليانع الصافي:

ستكون كل الأمور على ما يرام
لأولئك الذين يثقون بي
سآتي بالشفاء على جناحيّ
لأنقذهم وأطلق سراحهم.

«أجل، أجل، هذا ما أود سماعه»، قالت الجدة وزال تعبير الحزن العميق عن وجهها. نظرت هايدي إليها بتأمل للحظة أو اثنتين ثم قالت: «الشفاء تعني ما يداوي كل شيء ويجعل الجميع معافى، أليس كذلك يا جدتي؟».

«بلى، هذا صحيح»، أجابت المرأة العجوز بإيماءة موافقة، «وعلينا أن نثق أن كل شيء سيحدث وفقًا لمشيئة الرب. اقرأي الترتيلة ثانية، حتى نتذكرها ولا ننساها بعد اليوم».

وقرأت هايدي الكلمات مرتين أو ثلاثًا، لأنها هي أيضًا وجدت بهجة في هذا التأكيد بأن كل شيء سيكون أفضل.

عادت هايدي إلى الجبل عندما هبط المساء. وقد ظهرت النجوم في الأعلى واحدة فواحدة، ساطعة ومتلألئة وكل منها ترسل شعاعًا

جديدًا من الفرح إلى قلبها، وتعمدت الوقوف باستمرار لتنظر للأعلى وحين غدت السماء كلها مرصعة بها قالت جهرًا: «أجل، أدرك سبب شعورنا بالسعادة، وأننا لا نخاف شيئًا لأن الرب يعلم الصالح والمناسب لنا»، وواصلت النجوم بعيونها اللامعة الإيماء لها حتى وصلت البيت، إذ وجدت جدها يقف وينظر إلى النجوم أيضًا، لأنها لم تبد يومًا أجمل مما بدت هذه الليلة.

لم تكن ليالي شهر مايو صافية وساطعة فحسب، بل أصباحه أيضًا، إذ طلعت الشمس كل صباح في السماء الخالية من الغيوم، ساطعة في بهائها بقدر ما كانت عندما غربت المساء الفائت، فنظر الجد وقال مذهولًا: «هذه سنة رائعة للشمس، ستجعل كل الشجيرات والنبتات تكبر سريعًا، وسترى أيها القائد أنك ستفقد السيطرة على جيشك لفرط الأكل»، فيؤرجح بيتر عصاه في الهواء تأكيدًا وعلى وجهه تعبير كأنما يقول: «سأتولى أمر ذلك».

وهكذا مر مايو، وغدا كل شيء أكثر خضرة، ثم جاء شهر يونيو بشمس أسخن وأيام طويلة، أخرجت الزهور في كل أنحاء الجبل، وزهت بها كل بقعة وأفعم الهواء بشذاها العذب. واقترب هذا الشهر من نهايته أيضًا حين خرجت هايدي يومًا وقد أنهت أعمالها المنزلية وهي عازمة على زيارة أشجار التنوب أولًا، ثم الصعود لرؤية إن أزهرت الشجيرات على الصخور، لأن زهورها جميلة حين تتفتح تحت الشمس. ولكنها صرخت صرخة فرحة عالية حين وصلت زاوية الكوخ فجاء جدها راكضًا من المشغل لرؤية ما حدث.

فقالت وقد استولى عليها الحماس: «جدي! جدي! تعال! انظر! انظر!».

كان الرجل قربها حينئذ ونظر في اتجاه يدها الممدودة.

كان موكب غريب يصعد الجبل، يتقدمه رجلان يحملان محفة، جلست عليها فتاة التفت جيدًا بوشاحها، تبعها حصان تمتطيه سيدة وقورة تنظر من حولها في اهتمام شديد وتتحدث إلى المرشد الذي سار قربها، ثم كرسي مائل يدفعه رجل آخر، ومن الواضح أنهم ظنوا أن من الأفضل حمل المعتلّة على محفة على الدرب المنحدر. تبع الموكب حمال يحمل شملات وأوشحة وفراء على ظهره علت فوق رأسه.

«لقد جاؤوا! لقد جاؤوا!»، صاحت هايدي وهي تقفز من الفرح. وكان ذاك بلا شك موكب أهل فرانكفورت، الذين اقتربوا أكثر فأكثر، ووصلوا فعلًا في نهاية المطاف. أنزل الرجلان في المقدمة حمولتهما، فتقدمت هايدي وتعانقت الطفلتان بفرح متبادل. ترجلت الجدة بعد أن وصلت القمة هي أيضًا، وحيت هايدي تحية حارة قبل أن تلتفت نحو الجد الذي خرج للترحيب بضيوفه. لم يكن في اللقاء أي ارتباك، لأن كليهما يعرفان بعضهما بعضًا تمام المعرفة مما قيل لهما.

وبعد تبادل كلمات التحية الأولى قالت الجدة مبدية إعجابها الواضح: «يا له من مسكن جميل لديك أيها الخال! لم أظن أنه بهذا الجمال! لا بد أن يحسدك الملوك! ويا لجمال صغيرتي هايدي، إنها مثل زهرة برية!»، تابعت وهي تجذب الطفلة نحوها وتربت على

وجنتيها الورديتين الجميليتن: «لست أدري في أي اتجاه أنظر أولًا، كل شيء رائع للغاية! ما قولك في هذا يا كلارا، وما رأيك؟».

كانت كلارا تنظر حولها مفتونة، إذ لم تتخيل شيئًا بهذا الجمال، وقد رأت القليل. فأبدت سعادتها في صيحات فرح وقالت: «أود البقاء هنا للأبد يا جدتي».

جلب الجد أثناء ذلك كرسي المُقعدة وبسط عليه بعض الأغطية، وذهب إلى كلارا.

«أظن أن علينا حمل الابنة الصغيرة إلى كرسيها المعتاد، وأرى أنها ستكون أكثر راحة، فالتنقل في محفة صعب بعض الشيء»، قال ودون انتظار مساعدة أحد حمل الطفلة بين ذراعيه القويين وأجلسها بلطف على مقعدها المتحرك. ثم غطاها بحرص ووضع قدميها على المخدة الطرية، كأنه لم يفعل شيئًا طوال حياته سوى الاهتمام بالمقعدين. فنظرت الجدة في دهشة.

وقالت: «أيها الخال العزيز، لو عرفت أين تعلمت التمريض لأرسلت كل من أعرفه من الممرضات إلى المكان نفسه فيتمكنّ من العناية بمرضاهن على النحو نفسه. كيف تأتى لك معرفة الكثير؟».

ابتسم الخال وأجاب: «أعرف الكثير بفضل التجربة لا التعليم»، غير أن الابتسامة تلاشت من وجهه حين تحدث وحلت محلها نظرة حزن. فقد تراءت له صورة وجه متألم عرفه منذ سنوات بعيدة، وجه رجل راقد على أريكته وقد أقعده الألم، ولا يستطيع تحريك طرف. كان هذا الرجل قائده أثناء القتال الضاري في صقلية؛ إذ وجده

مستلقيًا جريحًا وحمله، ولم يعان القائد في وجوده بعد ذلك، وظل الخال قربه واعتنى به حتى انتهت معاناته بالموت. استعاد الخال ذاك كله، وبدا من السهل عليه الاعتناء بكلارا وتقديم كل هذه الرعاية التي ألفها قبلًا.

امتدت السماء زرقاء صافية فوق الكوخ وأشجار التنوب والصخور العالية، التي التمعت قممها الرمادية تحت الشمس.

لم تكتف عينا كلارا من التهام كل الجمال من حولها.

وقالت بلهفة: «لو أن بوسعي السير معك يا هايدي، ليتني أستطيع الذهاب لرؤية أشجار التنوب وكل شيء أعرفه جيدًا من وصفك، رغم أني لم آتِ هنا قبلًا».

استجمعت هايدي قوتها، وتمكنت بشيء من الجهد دفع كرسي كلارا بسهولة حول الكوخ حتى أشجار التنوب، ثم توقفتا. لم تر كلارا أشجارًا كهذه من قبل بجذوعها الطويلة المنتصبة، وأغصانها الكثيفة التي تغدو أكثف فأكثف حتى بلغت الأرض. وحتى الجدة التي لحقت بالطفلتين ذهلت لمرآها، ولم تعرف أكثر ما يعجبها في هذه الأشجار العتيقة؛ أهي الأعالي التي ترتفع بروعتها الخضراء الزاهية نحو السماء، أم جذوعها الشبيهة بالأعمدة بأغصانها المستقيمة الضخمة التي تشي بالعمر الطويل، وبالسنوات الطويلة التي أطلت خلالها على الوادي في الأسفل، حيث يغدو الناس ويروحون، وكل الأشياء تتغير باستمرار، أما هي فتقف لا تتغير ولا تتبدل.

دفعت هايدي كلارا إلى عرزال العنزتين، وفتحت الباب لترى كلارا كل ما بالداخل. لم يكن فيه الكثير مما يرى لأن ساكنتيه غائبتان. اشتكت كلارا لجدتها بأن عليهما المغادرة باكرًا قبل عودة العنزات: «أود رؤية بيتر وكل قطيعه».

«دعينا نستمتع بكل الأشياء الجميلة التي بوسعنا أن نراها يا طفلتي العزيزة، وألا نفكر بما لا نستطيع»، أجابت الجدة وهي تتبع الكرسي الذي تدفعه هايدي إلى الأمام.

«أوه، الزهور! انظري إلى شجيرات الأزهار الحمراء، وكل أزهار الجريس المتمايلة! أوه، ليتني أستطيع النهوض وقطف واحدة!»، قالت كلارا.

فركضت هايدي من فورها وقطفت باقة كبيرة منها.

قالت هايدي وهي تضع الزهور في حجرها: «لكن هذه ليست شيئًا يا كلارا، لو كان بوسعك الصعود أعلى حيث ترعى العنزات، لرأيت شيئًا جميلًا! شجيرات وشجيرات من القنطريون، والكثير الكثير من أزهار الجريس، ثم ورود الصخور الصفراء الزاهية التي تلمع مثل ذهب خالص وكلها تتجمع في بقعة واحدة. ثم لديك الكثير من الأخر ذوات الأوراق الكبيرة التي يسميها جدي العيون اللامعة، والبنيات ذوات الرؤوس المدورة والرائحة الشهية. أوه، إن المكان جميل في الأعلى، ولو جلست بينها لما رغبت بالنهوض أبدًا، فكل شيء جميل ذكي الرائحة للغاية!».

لمعت عينا هايدي لذكرى ما تصفه، فقد تاقت لرؤيته مرة

أخرى، ورأت كلارا حماسها ونظرت إليها بلهفة مماثلة بعينيها الزرقاوين الجميلتين.

«هل تظنين أن بوسعي الصعود هناك يا جدتي؟ هل يمكنني الذهاب؟»، سألت متلهفة، «ليتني أستطيع السير فأصعد معك إلى كل مكان يا هايدي».

«أنا واثقة أن بوسعي دفعك للأعلى فالكرسي يدفع بسهولة»، قالت هايدي وإثباتًا لكلامها دفعت الكرسي بسرعة حول الزاوية فأوشك على النزول لولا أن أوقفته الجدة في الوقت المناسب.

لم يكن الجد في هذه الأثناء خاملًا، فقد وضع الطاولة والكراسي الإضافية أمام المقعد، فيجلسون جميعًا في الخارج ويتناولون الغداء الذي يعد في الداخل. وسرعان ما صارت الجبنة والحليب جاهزين، فجلس الجمع إلى غدائهم بروح عالية.

فتنت الجدة كما فتن الطبيب بغرفة طعامهم، إذ يمكن للمرء رؤية الوادي والجبال وحتى المدى الأبعد من السماء الزرقاء. وهبت ريح خفيفة منعشة عليهم وهم جالسون إلى المائدة، وصنع حفيف أشجار التنوب موسيقى بهيجة مرافقة للطعام.

«لم أستمتع يومًا بشيء بقدر هذا. إنه بديع حقًا!»، قالت الجدة مرتين أو ثلاثًا، ثم قالت فجأة بنبرة دهشة: «هل أراك أخذت قطعة أخرى من الجبنة المحمصة حقًا يا كلارا؟!».

وقد كان في صحن كلارا شريحة ذهبية ثانية من الجبن.

«أوه، إنها شهية حقًا يا جدتي... أشهى من كل الأطباق التي نتناولها في راغاتز»، أجابت كلارا مواصلة تناول طعامها بشهية.

«هذا جيد، كلي ما استطعت!»، قال الجد، «إن هواء الجبل هو ما يصلح نقائص المطبخ».

وهكذا انتهى الطعام. انسجمت الجدة والخال ألم جيدًا، وغدت أحاديثهما أكثر حيوية، فقد اتفقت آراؤهما كثيرًا في الإنسان والأشياء والعالم عمومًا حتى ليظن أنهما صديقان حميمان. مر الوقت بسعادة، ثم نظرت الجدة ناحية الغرب وقالت: «علينا الاستعداد سريعًا للنزول يا كلارا، إن الشمس على وشك المغيب وسيأتي الرجال في الحال مع الحصان والمحفة».

أظلم وجه كلارا فقالت متوسلة: «أوه، ساعة أخرى بعد يا جدتي، أو اثنتين. لم نر داخل الكوخ ولا فراش هايدي، ولا شيئًا من الأشياء الأخرى بعد. ليت ساعات النهار عشر ساعات!».

«حسن، هذا غير ممكن»، قالت الجدة، غير أنها في داخلها شعرت بالحماس لرؤية داخل الكوخ، فنهضوا جميعًا من المائدة، ودفع الجد كرسي كلارا إلى الباب. غير أنهم توقفوا هناك، لأن الكرسي كان عريضًا للغاية ولا يدخل من الباب. غير أن الخال حل المشكلة بسرعة برفعه كلارا بين ذراعيه القويين وحملها إلى الداخل.

تجولت الجدة وتفحصت كل أثاث البيت، وسرت واستمتعت كثيرًا بترتيبها، والمظهر المريح لكل شيء، وسألت «وهذه غرفتك في

الأعلى يا هايدي، أليس كذلك؟»، ثم صعدت السلم دون خوف إلى علية التبن. «أوه، إن رائحتها جميلة، يا له من مكان صحي للنوم»، وتقدمت نحو النافذة المدورة وأطلت منها، ولحقها الجد حاملًا كلارا، وهايدي تقفز خلفهم. ثم وقفوا كلهم وتفحصوا فراش هايدي الرائع، ونظرت إليه الجدة بإمعان واستنشقت بين الحين والآخر نشقات من الهواء المعطر بالتبن، وكلارا مسحورة سحرًا يفوق الوصف بمكان نوم هايدي.

«إنه مكان بهيج هنا لك يا هايدي! يمكنك النظر من فراشك إلى السماء، ثم يا لها من رائحة شذية تحيط بك! وفي الخارج أشجار التنوب تتمايل وتصدر حفيفًا! لم أر غرفة نوم بهيجة بديعة كهذا من قبل!».

نظر الخال إلى الجدة وقال لها: «كنت أفكر أن تبقى حفيدتك هنا، إن وافقت على ذلك، وأنا متأكد أنها ستصبح أقوى. لقد جلبت مختلف أشكال الأغطية والأوشحة معك، ويمكننا صنع فراش ناعم منها. أما فيما يتعلق بالاعتناء بالطفلة، فلا تخشي شيئًا لأنني سأتولى ذلك». سرت هايدي وكلارا بهذه الكلمات بقدر طائرين أطلقا من قفصيهما، وأضاء وجه الجدة بالرضا.

قالت: «إنك لكريم حقًا أيها الخال، فقد صغت بكلماتك الفكرة التي كانت في عقلي. إذ قلت في نفسي إن الإقامة هنا هي رغبتها، غير أن المشكلة ستكون في تعبك! وأنت تتحدث عن تمريضها والاعتناء بها كأنها أمر بسيط! شكرًا لك بصدق، أشكرك من صميم قلبي

أيها الخال»، وأخذت يده وصافحته مصافحة طويلة ممتنة، رد عليها بوجه سعيد.

انطلق الخال من فوره إلى العمل لتجهيز الأشياء، فحمل كلارا إلى كرسيها في الخارج وتبعته هايدي دون أن تدري كيف تقفز في الهواء عاليًا تعبيرًا عن سعادتها. ثم جمع كومة من الأوشحة والفراء وقال مبتسمًا: «من الحسن أن الجدة صعدت متأهبة لمعركة الشتاء، إذ ستتمكن من الانتفاع بهذه».

أجابت السيدة مسرورة: «بعُد النظر فضيلة، ويجنبك الكثير من البلايا. إن انطلقنا في الرحلة إلى جبلك دون مصادفة العواصف والرياح والأمطار، فسنكون شاكرين عندئذ، وهذا ما نحن عليه، ومؤونتي ضد هذه الكوارث قد أجدت نفعًا كما قلت».

صعد الاثنان أثناء ذلك إلى علية التبن وأخذا يعدان فراشًا، وقد كومت الكثير من الأشياء واحدًا فوق الآخر بدت عندما انتهيا مثل حصن صغير عادي. مررت الجدة يدها بحذر عليه لتتأكد من عدم بروز إبر التبن وقالت: «لن تنتأ منها أي واحدة». فقد كانت الحشية الطرية شديدة النعومة والسماكة فلا يخترقها شيء. ثم نزلا ثانية راضيين ووجدا الطفلتين تضحكان وتتحدثان سويًا وتخططان لكل ما ستفعلانه من الصباح حتى المساء طوال إقامة كلارا. فبرز السؤال تاليًا عن مدة إقامتها، فسئلت الجدة أولًا، غير أنها حولت السؤال إلى الجد الذي أبدى رأيه بقوله إن عليها تجربة هواء الجبل لشهر على الأقل. صفقت الطفلتان فرحًا، إذ لم تتوقعا أن تكونا معًا لوقت طويل هكذا.

شوهد حاملا المحفة والحصان والمرشد يقتربون، فأعيد الحاملان وامتطت الجدة حصانها استعدادًا لرحلة العودة.

نادتها كلارا: «لن نقول الوداع يا جدتي، لأنك ستصعدين بين الحين والآخر لترى سير الأمور، وسنترقب زياراتك كثيرًا، أليس كذلك يا هايدي؟».

أما هايدي التي شعرت أن الحياة تعج بالمباهج هذا اليوم فلم تجب كلارا إلا بقفزة أخرى من الفرح.

بعد أن جلست الجدة على حصانها القوي، أمسك الجد بالزمام ليقوده نزولًا على الدرب الجبلي المنحدر، فرجته ألا يذهب بعيدًا معها، غير أنه أصر على إيصالها بأمان إلى دورفلي، قائلًا إن الدرب شديد الانحدار ولا يخلو من الخطر على الراكب.

لم ترغب الجدة بالبقاء وحدها في دورفلي، فعزمت على الذهاب إلى راغاتز، وأن تصعد الجبل بين الحين والآخر من هناك.

نزل بيتر مع عنزاته قبل عودة الخال، وما إن رأت العنزات هايدي حتى تحلقن حولها، وسرعان ما غدت هي وكلارا على مقعدها محاطتين بالعنزات متدافعات ومتناخسات بالرؤوس، وهايدي تعرّف صديقتها كلارا على كل واحدة باسمها.

ولم يمض وقت طويل حتى تعرفت كلارا على الصغيرة سنوفليك التي تمنت طويلًا لقاءها وغرينفلنتش النشيطة وعنزتي الجد المهذبتين، بالإضافة إلى أخر كثيرة ومنها ترك الكبير. وقف بيتر جانبًا أثناء ذلك متابعًا ناظرًا نظرات مبغضة نحو كلارا.

ولم يجب حين قالت الطفلتان «مساء الخير يا بيتر»، بل لوح بعصاه غاضبًا، كأنه يود قطع الهواء إلى شطرين، ثم ذهب وعنزاته خلفه.

وبلغت كل الأشياء الجميلة التي رأتها كلارا على الجبل ذروتها في نهاية اليوم.

حين استلقت على الفراش الكبير الطري في علية التبن وهايدي قربها، أطلت من النافذة المدورة المفتوحة إلى مجموعات النجوم الساطعة وقالت مبتهجة: «إن الأمر لأشبه بالجلوس في عربة عالية ونحن ذاهبتان إلى السماء يا هايدي».

«أجل، أتعرفين لم تبدو النجوم سعيدة جدًا وتنظر إلينا وتومي هكذا؟»، سألت هايدي.

«كلا، لمَ؟»، سألت كلارا بدورها.

«لأنها تعيش في السماء، وتعرف كيف يدبر الرب كل شيء تدبيرًا حسنًا من أجلنا، لذا فليس علينا أن نخاف أو نحزن بل نثق أن الأمور ستكون على ما يرام في النهاية. هذا سبب سعادتها، وهي تومي إلينا لأنها تريد لنا أن نكون سعداء أيضًا. غير أننا يجب ألا ننسى الصلوات وأن نطلب من الرب أن يتذكرنا حين يدبر الأمور، فنشعر بالأمان أيضًا ولا نقلق حيال ما سيحدث».

اعتدلت الطفلتان وتلتا صلواتهما، ثم أسندت هايدي رأسها إلى ذراعها الصغير الممتلئ وغطت في النوم في الحال، أما كلارا فظلت

مستيقظة لبعض الوقت، لأنها لم تتغلب على دهشة التجربة الجديدة في أن تكون في الفراش في الأعلى بين النجوم. في الحقيقة لم تر نجمة إلا نادرًا، لأنها لم تخرج من البيت ليلًا قط، وتسدل ستائر البيت قبل طلوع النجوم. كلما أغمضت عينيها شعرت برغبة في فتحهما ثانية لترى إن كانت النجمتان الكبيرتان ما زالتا تطلان وتوميان إليها كما قالت هايدي. وكانتا في المكان نفسه دومًا، وشعرت كلارا أنها لا تمل من النظر إلى وجهيهما اللامعين المشرقين، حتى أُغمضت عيناها من تلقاء نفسيهما. ورأت في أحلامها أنها ما زالت ترى النجمتين الودودتين الكبيرتين تسطعان عليها.

الفصل الحادي والعشرون
كيف سارت الأمور في كوخ الجد

طلعت الشمس فوق الجبال وأخذت ترسل أشعتها الذهبية الأولى فوق الكوخ والوادي في الأسفل. ووقف الخال ألم كعادته وقفة هادئة لوهلة قصيرة يراقب الضباب الخفيف يتلاشى شيئًا فشيئًا، والقمم والوادي تخرج من ظلالها الغسقية وتستيقظ على يوم جديد.

غدت غيوم الصباح القليلة أشد لمعانًا، حتى طلعت الشمس أخيرًا بكامل بهائها، واستحمت الصخور والأشجار والتلال بالنور الذهبي.

عاد الخال إلى الكوخ وصعد السلم بهدوء. فتحت كلارا عينيها وأخذت تنظر في دهشة إلى الضياء الساطع الذي أشرق عبر النافذة المدورة ورقص حول فراشها وتلألأ. لم تستطع معرفة ما تراه أو أين كانت في بادئ الأمر، ثم لمحت هايدي تنام قربها وسمعت صوت الجد الجذل يسألها إن نامت جيدًا وتشعر بالراحة، فأكدت له أنها ليست متعبة، وأنها ما فتحت عينيها طوال الليل ما إن غطت في

النوم. سر الجد بهذا وباشر العناية بها بكثير من اللطف والرعاية كأنما مهنته الأساسية هي الاعتناء بالأطفال المرضى.

استيقظت هايدي وفوجئت لرؤية كلارا مرتدية ثيابها وأنها بين ذراعي الجد تأهبًا لإنزالها. وعليها أن تنهض هي أيضًا، ومضت في ارتداء ثيابها بسرعة البرق. فنزلت السلم وخرجت من الكوخ، ووجدت مزيدًا من المفاجآت بانتظارها، لأن الجد كان مشغولًا طوال الليل بعد خلودهما للفراش. فبعد أن رأى إدخال كرسي كلارا من باب الكوخ محالًا، جلب لوحين من جانب المشغل وصنع مدخلًا كبيرًا يكفي لتمرير الكرسي، وجعل هذين متحركين يوضعان ويزالان حسب الرغبة. دفع كلارا إلى الشمس في الخارج وتركها أمام الكوخ وذهب للاعتناء بالعنزتين، وجاءت هايدي إلى صديقتها.

هب نسيم الصباح النقي حول وجهي الطفلتين، وكل هبة حملت دفقة عطر من أشجار التنوب، استنشقتها كلارا بسرور وجلست في كرسيها بشعور لم تعتده من الصحة والراحة.

لقد كانت المرة الأولى في حياتها التي تخرج فيها إلى الريف الرحب في هذه الساعة الباكرة وتشعر بنسيم الصباح النقي، وكان هواء الجبل الصافي باردًا ومنعشًا وكانت كل شهقة تستنشقها مبهجة. ثم الشمس الساطعة الحلوة التي لم تكن حارة وقائظة في الأعلى، بل ناعمة ودافئة على يديها وعلى العشب قرب قدميها. لم تتخيل كلارا أن الأمر سيكون هكذا على الجبل.

«ليتني أستطيع البقاء في الأعلى هنا معك يا هايدي»، قالت سعيدة مديرة كرسيها من جانب إلى آخر حتى تستنشق الهواء والشمس من كل مكان.

أجابت هايدي جذلة: «ها أنت ترين أن الأمر مثلما أخبرتك، وأن العيش هنا في الأعلى مع الجد أجمل شيء في العالم».

ظهر الجد في هذه اللحظة قادمًا من عرزال العنزتين جالبًا وعاءين صغيرين تعلوهما رغوة من الحليب الأبيض بياض الثلج، أحدهما لكلارا والآخر لهايدي.

«هذا سيفيد ابنتنا الصغيرة»، قال مشيرًا إلى كلارا، «إنه من لتل سوان وسيجعلك قوية. بصحتك يا صغيرتي! اشربيه».

لم تتذوق كلارا حليب الماعز من قبل، فترددت وشمته قبل أن تضعه على شفتيها، ولكنها حين رأت هايدي شربت صحيفتها دون إبطاء، وأنها تلذذت به كما يبدو، فعلت كلارا الشي نفسه وشربت حتى آخر قطرة لأنها وجدته شهيًا أيضًا وطعمه كأنما أضيف إليه السكر والقرفة.

«سنشرب غدًا صحيفتين»، قال الجد الذي نظر برضا لرؤيتها تحتذي حذو هايدي.

وصل بيتر مع العنزات، وحين كانت هايدي تتلقى تحيات الصباح المعتادة، أخذ الجد بيتر جانبًا وتحدث إليه، لأن العنزات ثغت بصوت عال ومستمر رغبة منها في إظهار فرحها وحبها فلا يمكن سماع أحد قربها.

«أصغ لما سأقوله جيدًا. احرص من اليوم فصاعدًا على أن تسمح للتل سوان بالذهاب أينما شاءت، إذ لديها حدس بمعرفة أماكن أطيب الكلأ لها، وإن أرادت الصعود إلى الأعلى فاتبعها ولن يضر الباقيات إن ذهبن أيضًا، ولا تنزلها بأي حال، وقليل من الصعود لن يؤذيك، وهي على الأرجح تعرف الأفضل لها في هذا الشأن. أريد أن تمنحنا حليبًا لذيذًا قدر المستطاع. ولمَ تنظر إلى هناك كأنك تود أكل أحدهم؟ لن يتطفل أحد عليك، فانطلق الآن وتذكر ما قلته».

اعتاد بيتر الطاعة الفورية للخال، فسار مع عنزاته، ولكن باستدارة من الرأس وتدوير للعينين أظهر أن لديه أفكارًا مخالفة. حملت العنزات هايدي معها شيئًا من الطريق، وهذا ما أراده بيتر. «عليك القدوم معهن»، قال لها، «لأني مضطر لملاحقة لتل سوان».

فردت عليه هايدي من بين صديقاتها «لا أستطيع، ولن أتمكن من القدوم لوقت طويل طويل، ليس طوال إقامة كلارا معي، لأن جدي وعد أن نصعد إلى الأعلى كلنا يومًا ما».

خلصت هايدي نفسها من العنزات وعادت إلى كلارا، فضم بيتر قبضتيه وصنع إيماءات متوعدة باتجاه المُقعدة على كرسيها، ثم صعد لبعض المسافة دون توقف حتى غاب عن الأنظار، لأنه خشي أن يكون الخال رآه، ولم يأبه بمعرفة ما ظنه الخال بالقبضتين.

أعدت هايدي وكلارا الكثير من الخطط لنفسيهما ولم يعرفا بأيها تبدأان. فاقترحت هايدي أن تكتبا للجدة، التي وعدتاها بإرسال رسالة كل يوم، لأنها لم تكن واثقة إن كان في صالح صحة كلارا

على المدى البعيد أن تظل على الجبل أو إن كانت ستظل مستمتعة هناك. وبورود الأخبار اليومية من حفيدتها ستظل في راغاتز دون قلق وتكون جاهزة للذهاب لكلارا في أي لحظة.

«هل علينا الدخول للكتابة؟»، سألت كلارا التي وافقت على اقتراح هايدي لكنها لم ترد التحرك من مكانها لأن البقاء في الخارج أجمل بكثير. وكانت هايدي جاهزة لترتيب كل شيء فدخلت وجلبت كتاب المدرسة وأدوات الكتابة ومقعدها الصغير. ثم وضعت كتاب القراءة والدفتر على ركبتي كلارا ليكونا بمثابة منضدة لها لتكتب عليها، وجلست على مقعدها واقتربت من المقعد الطويل ثم بدأت كلاهما الكتابة إلى الجدة. غير أن كلارا توقفت بعد كل جملة لتنظر حولها، فقد كان كل شيء جميلًا لا يُكتب في رسالة. سكن النسيم قليلًا واكتفى بالترويح على وجهها وهمس بنعومة خلال أشجار التنوب. همهمت الحشرات المجنحة ورقصت من حولها في الهواء الصافي، وعم السكون في المراعي البعيدة المشمسة الرحبة، وارتفعت قمم الجبال عالية وصامتة فوقها، وفي الأسفل وقع الوادي الواسع المفعم بالهدوء والسكينة. ولا يسمع إلا نداء ولد راعٍ يتردد في الهواء بين الفينة والأخرى، ويرجع صداه بهدوء من الصخور. مر الصباح دون أن تدرك الطفلتان، وجاء الجد حاملًا صحيفتي منتصف النهار من الحليب الذي يتصاعد منه البخار، وقال إن على الابنة الصغيرة أن تظل خارجا ما دام في السماء شعاع شمس. وضعت وجبة الغداء وأكلت خارجًا في الهواء الطلق كما حدث البارحة. ثم دفعت هايدي كرسي كلارا

تحت أشجار التنوب، إذ اتفقتا على قضاء بعد الظهيرة تحت ظلالها وأن تحكيا لبعضهما ما حدث منذ مغادرة هايدي لفرانكفورت. وإن مر كل شيء كالمعتاد فما زال ثمة أشياء بعينها لإخبار هايدي عن الأشخاص العديدين الذين يسكنون بيت زيزمن، الذين تعرفهم جيدًا.

فجلستا وتحدثتا تحت الأشجار، وكلما ازداد حديثهما حيوية، علا غناء العصافير فوقهما، كأنها تود المشاركة في ثرثرة الطفلتين التي أسعدت العصافير كما يبدو. وهكذا طارت الساعات، في الحال كما بدا لهما، وحل المساء مع عودة بيتر الذي لم يزل حانقًا وغاضبًا.

«ليلة طيبة يا بيتر»، قالت هايدي وقد رأت أنه لا ينوي التوقف للحديث.

«ليلة طيبة يا بيتر» قالت كلارا بصوت ودود، فلم يحفل بيتر وواصل بفظاظة مع عنزاته.

حين رأت كلارا الجد يسوق لتل سوان ليحلبها شعرت فجأة برغبة شديدة في شرب صحيْفة أخرى الحليب الشذي وانتظرته بفارغ الصبر.

قالت مندهشة من نفسها: «أليس هذا غريبًا يا هايدي؟! فأنا، بقدر ما تسعفني ذاكرتي، لم آكل يومًا إلا لأنني مجبرة وبدا طعم كل شيء بطعم زيت كبد القد، وتمنيت دومًا ألا يكون ثمة حاجة للأكل والشرب، أما الآن فإنني أترقب الجد ليجلب لي الحليب».

«أجل، أعرف ما تقصدين» أجابت هايدي التي تذكرت

الأيام العديدة في فرانكفورت حين بدا أن كل الطعام يقف في حلقها. غير أن كلارا لم تفهم، فما سبق لها أن قضت يومًا كاملًا في الهواء الطلق، ولا في هواء جبل عال يرد الروح كهذا. حين جلب الجد أخيرًا حليب المساء، شربته بسرعة وأفرغت صحيفتها قبل هايدي، ثم طلبت المزيد. دخل الجد حاملًا الوعاءين وحين عاد بهما ثانية ملآنين أضاف إليهما شيئًا آخر للعشاء. لقد ذهب بعد الظهر إلى بيت راعي الخراف حيث تصنع الزبدة اللذيذة المذاق، وجلب قالبًا كبيرًا دهن قسمًا منه على شريحتين لذيذتين من الخبز. فوقف وراقب مسرورًا تناول كلارا وهايدي وجبتهما الشهية بجوع طفولي ومرح.

حين رقدت كلارا في فراشها تلك الليلة وتأهبت لمراقبة النجوم، لم تبق عينيها مفتوحتين وغطت في النوم سريعًا بقدر هايدي ونامت بهدوء طوال الليل، وهذا أمر لا تتذكر حدوثه قبلًا. مر اليوم التالي والذي يليه على النحو المبهج نفسه، ووصلت مفاجأة للطفلتين في اليوم الثالث. فقد صعد حمالان قويان الجبل وكل منهما يحمل سريرًا على كتفه مفروشًا بمختلف الأشياء وغطاءين أبيضين جديدين. كما حمل الرجلان رسالة الجدة تقول فيها إن هذين لكلارا وهايدي وإن على هايدي مستقبلًا النوم في سرير ملائم، وحين تقضي الشتاء في دورفلي يمكنها أخذ واحد معها وتترك الآخر في الكوخ، فتعرف كلارا أن ثمة سريرًا جاهزًا لها كلما فكرت في زيارة الجبل، وواصلت شكر الطفلتين على رسالتيهما الطويلتين وشجعتهما على متابعة الكتابة كل يوم، لتتخيل كل ما تفعلانه.

فذهب الجد وألقى بالتبن من فراش هايدي إلى الكومة الكبيرة، ثم نُقل السريران بمساعدته إلى العلية. ووضعهما قرب بعضهما حتى تتمكن الطفلتان من الرؤية عبر النافذة إذ يعرف أي سرور يصيبهما في ضوء الشمس والنجوم.

في أثناء ذلك كانت الجدة في راغاتز سعيدة بالأخبار الرائعة التي وصلتها يوميًا من الجبل عن الطفلة المعتلة. فقد وجدت كلارا الحياة أكثر فتنة كل يوم ولم تجد كلامًا يكفي للتعبير عن لطف الجد ورعايته لها ولا لرفقة هايدي الممتعة والمسلية لأن الأخيرة كانت أكثر تسلية مما كانت عليه في فرانكفورت، وكان أول ما يخطر لكلارا كل صباح «أوه، يا لسعادتي بوجودي هنا».

فكرت الجدة بتأجيل زيارتها للطفلتين، بعد وصول أخبار جديدة مطمئنة لها كل يوم، لأن الدرب الشاق صعودًا ونزولًا قد أنهكها.

شعر الجد بالحنو على هذه الطفلة المعتلة الصغيرة إذ حاول التفكير بشيء جديد كل يوم للمساعدة في تعجيل شفائها. فصعد الجبل أعلى فأعلى بعد ظهر كل يوم، وعاد في المساء حاملًا باقة كبيرة من الأرواق التي ملأت الهواء بمزيج من روائح القرنفل والصعتر حتى من بعيد. فعلقها في عرزال العنزتين. وجهدت العنزتان للحصول عليها لأنهما ميزتا الرائحة. لكن الخال لم يبحث عن أعشاب نادرة ليمنح العنزتين سعادة تناولها دون عناء العثور عليها، وما جمعه كان للتل سوان فحسب، حتى تدر المزيد من الحليب، وقد

ظهرت ثمرة الأكل الإضافي في الجذل الذي ترفع به رأسها في الهواء، وفي البريق اللامع لعينيها.

مضى على إقامة كلارا في الجبل ثلاثة أسابيع. كان الجد يقول في بعض الأيام الماضية وهو ينزلها كل صباح: «ألن تحاول الابنة الصغيرة الوقوف لدقيقة أو اثنتين؟»، وحاولت كلارا رغبة في إسعاده، غير أنها تشبثت به ما إن مست قدماها الأرض قائلة إن هذا يؤلم كثيرًا، وأخذ يجعلها تحاول أكثر كل يوم.

لقد مرت سنوات عديدة منذ أن مر عليهم صيف رائع كهذا بين الجبال. ويومًا بعد يوم كانت السماء صافية والشمس ساطعة، والزهور فتحت في الهواء براعمها الشذية وكل مكان حيى العين بلون زاهٍ. وإن حل المساء سقط الضوء القرمزي على قمم الجبال والحقل الثلجي الكبير، حتى تغوص الشمس أخيرًا في بحر من اللهب الذهبي.

ولم تسأم هايدي قط من إخبار كلارا عن هذا؛ إذ يمكن في الأعلى فحسب رؤية زهو الألوان بتمامه، وبخاصة أنها تسكن في المنحدر الأعلى من الجبل، حيث تنمو زهور الصخور الذهبية زُرافات والزهور الزرق بأعداد يبدو معها العشب قد تحول للأزرق وقربها شجيرات كاملة من البراعم البنية بشذاها الذكي فلا يرغب المرء بالتحرك حين يجلس بينها.

كانت تطوف على الزهور حين جلست هي وكلارا تحت أشجار التنوب ذات مساء وتخبرها ثانية عن الضوء الرائع لشمس

المساء حين طغى عليها شوق لا يكبح لرؤيته ثانية فقزت وذهبت نحو جدها الذي كان في المشغل يوشك أن يخرج قبل أن تأتيه.

«هلا أخذتنا للخروج مع العنزات غدًا يا جدي؟ إن المكان شديد الجمال في الأعلى!».

فأجاب: «حسن جدًا، ولكن إن فعلت، لا بد أن تفعل الابنة الصغيرة شيئًا لإسعادي، عليها أن تحاول جهدها هذا المساء للوقوف على قدميها».

عادت هايدي إلى كلارا بالأخبار السعيدة، ووعدت كلارا أن تحاول جهدها كما تمنى الجد لأنها تطلعت بشوق إلى رحلة اليوم التالي. سرت هايدي كثيرًا وتحمست فنادت بيتر ما إن رأته ذاك المساء: «سنخرج كلنا معك غدًا يا بيتر، وسنبقى هناك طوال النهار».

دمدم بيتر الغاضب مثل دب مجيبًا ورفع عصاه ليضرب غرينفلنتش بلا سبب محدد، لكن غرينفلنتش رأت حركته وفرت من طريقه بقفزة من فوق سنوفليك، ولم تصب العصا إلا الهواء.

خلدت كلارا وهايدي إلى فراشيهما تلك الليلة مفعمتين بالترقب السعيد لغد، وكان لديهما خطط كثيرة فاتفقتا على السهر طوال الليل للحديث عنها حتى يحين وقت النهوض. لكن الكلام انقطع ما إن مس رأساهما الوسادتين الطريتين، وحلمت كلارا بالحقل الكبير الذي له لون السماء، تغطيه زهور الجريس بكثافة، وسمعت هايدي الطائر الجارح الكبير يناديها من الأعالي «هلمي! هلمي! هلمي!».

الفصل الثاني والعشرون
مفاجأة

خرج الخال في الصباح التالي باكرًا ليرى حال الطقس. ولمع فوق القمم الأعلى ضوء ذهبي محمر، وهب نسيم رقيق فتمايلت أغصان أشجار التنوب على الجانبين، والشمس في طريقها للطلوع.

وقف الرجل العجوز وراقب المنحدرات الخضراء تحت القمم العالية وهي تزداد لمعانًا مع ضوء النهار القادم والظلال الداكنة تغادر الوادي، حتى ملأ تجاويفه ضوء محمر في البدء ثم انساب نور الصباح على كل قمة ومنخفض، فقد أشرقت الشمس.

دفع الخال الكرسي خارج المشغل استعدادًا للرحلة القادمة، ثم دخل لينادي الطفلتين ويخبرهما عن جمال شروق الشمس.

جاء پيتر في هذه اللحظة، ولم تتجمع العنزات حوله باطمئنان كالمعتاد، بل تحاشته بخوف، إذ طفح الكيل بـپيتر غضبًا واستياء، وكان يؤرجح عصاه الثخينة من حوله بلا داع، وأينما وقعت كانت ضربتها قاسية. فهو لم يحظ بفرصة البقاء مع هايدي وحده منذ أسابيع كما في الماضي. وكلما صعد صباحًا كانت الطفلة المعتلة تجلس

في كرسيها وهايدي مشغولة بها تمامًا، وكان الأمر نفسه حين ينزل في المساء. ولم تخرج مع العنزات لمرة هذا الصيف، وها هي اليوم تخرج برفقة صديقتها والكرسي فحسب، وستلزم جانب صديقتها طوال الوقت. وكان التفكير في هذا هو ما جعله شكسًا بالتحديد هذا الصباح. وقف الكرسي بعجلاته العالية، ورأى فيه پيتر شيئًا متكبرًا ومتعجرفًا، فحملق به كأنما ينظر لعدو آذاه ومن المرجح أن يزيده أذىً هذا اليوم. فنظر من حوله، فلم يرَ حوله من يراقبه. فوثب إلى الأمام مثل حيوان بري وأمسك به ودفعه دفعة غاضبة قوية باتجاه المنحدر. فدرج الكرسي بسهولة إلى الأمام واختفى في لحظة.

صعد پيتر الجبل مسرعًا كأنما له جناحان دون أن يتوقف حتى وجد مخبأ خلف شجيرة عليق كبيرة، لأنه لم يرد للخال أن يراه. غير أنه كان متحمسًا ليرى ما حدث للكرسي، وكانت شجيرته مكانًا جيدًا لهذا، إذ استطاع من مخبئه أن يراقب ما حدث في الأسفل ويرى ما فعله الخال دون أن يكتشف أمره. فنظر ورأى عدوه ينزل أسرع فأسرع، ثم انقلب رأسًا على عقب عددًا من المرات، وفي نهاية المطاف وبعد وثبة عالية درج مرة بعد أخرى وتحطم تمامًا. وطار حطامه في كل اتجاه، القدمين والذراعين والكسوة الممزقة للمقعد المحشو والتنجيد، وشعر پيتر بسعادة بلا حدود لهذا المنظر فقفز في الهواء ضاحكًا بصوت عال وخابطًا بقدميه من الفرح، ثم دار يقفز فوق الشجيرات في طريقه وعاد إلى مكانه نفسه وانفجر في نوبات ضحك أخرى. طار فرحًا لأنه لم ير إلا عاقبة طيبة عليه لهذه الكارثة

على عدوه. ستضطر صديقة هايدي للرحيل وحين تصبح هايدي وحدها ستخرج معه كما في الأيام الخوالي وسيعود كل شيء إلى مساره الصحيح. غير أن پيتر لم يفكر أو لم يعرف أننا حين نرتكب خطأ فإن المتاعب تعقبه.

خرجت هايدي من الكوخ وذهبت نحو المشغل، يتبعها الجد حاملًا كلارا. فتح باب المشغل واسعًا وقد أنزل منه لوحان وكان مضيئًا في الداخل. بحثت هايدي في كل زاوية وذهبت من مكان لآخر ثم وقفت متسائلة عما حدث للكرسي، فدخل الجد.

«ما هذا؟ هل أخرجت الكرسي يا هايدي؟».

«لقد بحثت في كل مكان يا جدي، قلت إنه جاهز في الخارج»، ثم بحثت في كل ركن من المشغل بعينيها.

عندئذ فتحت الريح التي هبت فجأة باب المشغل وجعلته يصطفق بالحائط.

«لا بد أنها الريح يا جدي»، قالت هايدي وقد توترت عيناها لهذا الاكتشاف المفاجئ، «أوه! إن أخذت الريح الكرسي حتى دورفلي فلن نتمكن من إعادته في الوقت المناسب ولن نتمكن من الذهاب».

«إن درج حتى هذه المسافة فلن يعود مطلقًا، لأنه قد تحطم إلى مئة قطعة»، قال الجد وقد ذهب نحو الزاوية ونظر للأسفل، «إن ما حدث لأمر غريب!»، أضاف وهو يفكر بالأمر، لأن الكرسي لا بد أن ينعطف قبل أن ينزل.

تحسرت كلارا «أوه، أنا آسفة أننا لن نذهب اليوم، ولا في أي يوم ربما. أظن أن علي العودة للديار إن لم يكن عندي كرسي. أوه، أنا آسفة، أنا آسفة».

لكن هايدي نظرت نحو جدها بملامح الثقة دومًا.

«ستتمكن من فعل شيء يا جدي، فلا يكون الأمر كما قالته كلارا، ولن تضطر للعودة، أليس كذلك؟».

«حسن، سنصعد الجبل في الوقت الراهن كما خططنا، ثم نرى ما يمكن فعله لاحقًا»، أجاب مفرحًا الطفلتين كثيرًا.

فدخل وجلب كومة من الأوشحة، ووضعها على أكثر البقع المشمسة التي أمكنه العثور عليها وأجلس عليها كلارا، ثم جلب حليب الصباح للطفلتين وأخرج العنزتين.

«لماذا لم يصل بيتر بعد؟»، قال الخال في نفسه لأنه لم يسمع صفير بيتر هذا الصباح. وحمل الجد كلارا بيد والأوشحة بيد أخرى.

قال: «يمكننا الانطلاق الآن، ويمكن للعنزتين أن ترافقانا».

سرت هايدي بهذا وسارت خلف جدها واضعة يدًا على كل من العنزتين، اللتين كانتا مبتهجتين لأنها معهما فالتصقتا بها بحب خالص. وحين وصلوا البقعة التي ترعى فيها العنزات عادة دهشوا لرؤيتها تكلأ هناك وتتسلق الصخور وبيتر معها ممددًا على الأرض.

«سألقنك درسًا في وقت لاحق لذهابك على هذا النحو أيها المحتال الكسول! ماذا تعني بذلك؟»، قال له الخال.

قفز بيتر مثل طلقة بعد أن ميز الصوت: «لم يكن أحد في الخارج»، أجاب.

«هل رأيت الكرسي في أي مكان؟»، سأل الجد.

«أي كرسي؟»، قال بيتر مجيبًا بصوت نكد.

لم يقل الجد شيئًا، وبسط الأوشحة على المنحدر المشمس وأجلس كلارا عليها وسألها إن كانت مرتاحة.

«مرتاحة بقدر ما أكون في كرسيي»، قالت شاكرة إياه، «وهذه أجمل البقاع. إنها جميلة، إنها جميلة يا هايدي!»، هتفت وهي تنظر حولها بسعادة.

استعد الجد لتركهما، إذ قال إنهما ستكونان بمأمن سعيدتين معًا، وإن حان وقت الغداء ستأتي هايدي لجلب الحقيبة من الحفرة الظليلة حيث وضعها، وعلى بيتر أن يجلب لهما حليبًا بقدر ما شاءتا، ولكن على هايدي أن تتأكد أنه حليب لتل سوان. وإنه سيأتي لاصطحابهما قبيل المساء، وعليه الذهاب الآن للبحث عن الكرسي ورؤية ما حدث له.

كانت السماء داكنة الزرقة، ولم تُر غيمة واحدة في الأفق، وتلألأ الحقل الثلجي الكبير في الأعلى كأنما نثرت عليه الآلاف والآلاف من النجوم الذهبية والفضية. ورفعت القمتان الجبليتان الرماديتين رأسيهما العاليين قبالة السماء وأطلتا بوقار على الوادي كما في السابق، وتوازن الطائر الكبير عاليًا في الفضاء الأزرق الصافي، وجاءت رياح الجبال من الأعالي وهبت عليلة حول الطفلتين وهما تجلسان

في البقعة المضاءة بالشمس. لقد كان ممتعًا لكلارا وهايدي متعة لا توصف. وتجيء إليهما بين الفينة والأخرى عنزة صغيرة وتستلقي قربهما، وكانت سنوفليك أكثر من فعل واضعة رأسها الصغير قرب هايدي، ولا تتحرك إلا إن جاءت عنزة أخرى وأزاحتها عن الدرب. باتت كلارا تعرف العنزات جيدًا فلم تخطئ بينهما، إذ لكل واحدة قسمات وأساليب خاصة بها. كما ألفت العنزات كلارا وأخذت تفرك رؤوسها على كتفيها، وهذه علامة صداقة ونوايا حسنة دومًا.

مرت بعض الساعات، وظنت هايدي أن بوسعها الذهاب إلى البقعة التي تنمو فيها كل الزهور لترى إن تفتحت تمامًا وبدت جميلة كالسنة الماضية، ولن تستطيع كلارا الذهاب حتى يعود الجد مساء، عندها ستغمض الزهور على الأرجح، وصار توقها للذهاب أقوى ولم تعد تستطيع مقاومته.

قالت بشيء من التردد: «هل سترينها وقاحة مني إن تركتك لبضع دقائق يا كلارا؟ سأذهب إلى هناك وأعود سريعًا، إذ أود بشدة رؤية هيئة الأزهار، ولكن انتظري...» إذ خطرت لهايدي فكرة. فذهبت وقطعت حزمة أو اثنتين من الأوراق الخضراء، وأمسكت بسنوفليك وقادتها نحو كلارا.

«إليك، لن تكوني وحيدة الآن»، قالت هايدي وهي تدفع العنزة دفعة صغيرة لتخبرها أن عليها الجلوس قرب كلارا، وقد فهمتها العنزة في الحال. ألقت هايدي الأوراق في حجر كلارا،

وأخبرت الأخيرة صديقتها أن تذهب من فورها وتنظر إلى الأزهار لأنها سعيدة لتركها مع العنزة، وأحبت هذه التجربة الجديدة. انطلقت هايدي وأخذت كلارا تمد الأوراق واحدة فواحدة إلى سنوفليك التي استكانت لصديقتها الجديدة بطريقة حميمة وأكلت الأوراق ببطء من يدها. من السهل رؤية أن سنوفليك استمتعت بهذه الطريقة الهادئة الآمنة في الرعي، لأنها حين تكون مع العنزات الأخرى تلقى العسف من الأكبر والأقوى في القطيع. ووجدت كلارا مسرة جديدة غريبة في الجلوس وحدها هكذا على الجبل، ورفيقتها الوحيدة عنزة تنظر إليها طلبًا للحماية. فانتابتها رغبة مفاجئة كبيرة لتكون سيدة نفسها وأن تساعد الآخرين بدلًا من كونها عالة كما هي الآن. تزاحمت في عقلها الكثير من الأفكار التي لم تخطر لها من قبل، والتوق لمواصلة العيش تحت نور الشمس، وفعل شيء يجلب السعادة للآخرين، مثلما تساعد الآن في إسعاد العنزة. استولى عليها إحساس غريب بالفرح كأنما كل شيء عرفته أو شعرته غدا أكثر جمالًا على حين غرة، وأخذت ترى الأشياء بنور جديد، وكان الإحساس بهذا الجمال والسعادة الجديدين قويًا للغاية فلفت ذراعيها حول عنق العنزة الصغيرة وقالت: «إن العيش هنا بهيج يا سنو فليك! ليتني أستطيع البقاء هنا للأبد وأنت قربي!».

وصلت هايدي في هذه الأثناء حقل الزهور، وأطلقت صرخة فرح فور رؤيتها لها. كانت الأرض كلها أمامها بقعة من الذهب اللامع إذ نشرت أزهار القريضة براعمها الصفراء. وفوقها تمايلت شجيرات كبيرة من زهور الجريس الكبيرة، وكان الأريج الذي

يفوح من البقعة المضاءة بالشمس كلها كأنما رش عليها بلسم نادر. هب الشذى على أية حال من الزهور البنية الصغيرة، ومن رؤوسها المدورة التي ارتفعت باعتدال هنا وهناك بين البراعم الصفراء. وقفت هايدي ونظرت واستنشقت الهواء النقي. ثم استدارت فجأة ووصلت مكان كلارا منقطعة الأنفاس من الجري والحماس: «أوه، عليك القدوم»، قالت لها فور أن رأتها، «إنها أجمل مما تتخيلين، ولعلها تغدو أجمل هذا المساء. أظن أن بوسعي حملك، ألا تظنين؟». نظرت كلارا إليها وهزت رأسها نفيًا: «عجبًا يا هايدي! أنى لك التفكير بذلك؟! إنك أصغر مني، أوه ليتني أستطيع المشي!».

نظرت هايدي حولها كمن يبحث عن شيء، ومن الواضح أن فكرة جديدة طرأت لها. كان بيتر يجلس في الأعلى ناظرًا إلى الطفلتين، وكان يجلس ويحدق أمامه بالهيئة نفسها منذ ساعات، كأنه لا يفهم ما رأى. لقد حطم الكرسي حتى لا يكون بوسع الصديقة أن تتحرك في أي مكان فتنتهي زيارتها، وبعد ذلك بوقت قصير ظهرت في الأعلى على مرأى منه وهايدي إلى جانبها. وظن أن عينيه تخدعانه، غير أنها هنا بلا شك.

نظرت هايدي إلى حيث يجلس ونادت بصوت آمر: «انزل إلى هنا يا بيتر!».

«لا رغبة لي في النزول»، صاح مجيبًا.

«ولكن عليك ذلك، يجب عليك، لا يمكنني فعلها وحدي،

ولا بد أن تأتي وتساعدني، أسرع وانزل»، هتفت ثانية بصوت حاسم.

«لن أفعل شيئًا كهذا»، كان جوابه.

صعدت هايدي قسمًا من الدرب نحوه ثم توقفت وقالت ثانية وعيناها تشتعلان غضبًا: «إن لم تأت في الحال يا بيتر فسأفعل شيئًا لن يعجبك، وأنا أعني ما أقول».

شعر بيتر بألم يعتصره لدى سماع هذه الكلمات واستولى عليه خوف عظيم. فقد فعل شيئًا شريرًا لا يريد لأحد أن يعرفه، وقد ظن أنه بأمان حتى الآن. غير أن هايدي تحدثت كأنها تعرف كل شيء، وأيًا كان ما تعرفه فستخبر جدها، وليس ثمة أحد يخافه أكثر من هذا الرجل. فما ذا لو ساوره الشك بأمر ما حدث للكرسي؟! اشتد خوف بيتر فوقف ونزل إلى حيث تنتظره هايدي.

«أنا قادم وأنت لن تفعلي ما قلت».

بدا بيتر مذعنًا من الخوف فشعرت هايدي بالأسى لحاله وقالت مطمئنة: «كلا، كلا. بالطبع لن أفعل. هلم معي، فلا داعي للخوف مما سأقوله لك».

أعطت هايدي تعليماتها فور وصولهما إلى كلارا: على بيتر أن يمسك بها من ذراعها من جانب وهي تفعل الشيء نفسه على الجانب الآخر وعليهما أن يُنهضاها معًا. أديت الحركة الأولى بنجاح، ثم واجهتهما صعوبة. فما دام أن كلارا لا تستطيع الوقوف وحدها،

فكيف يسندانها ويمشيانها؟ وذراع هايدي صغيرة جدًا لتستند عليها كلارا.

«عليك وضع ذراع حول عنقي، والآخر حول ذراع پيتر والاتكاء عليه بقوة، ثم ستتمكن من حملك».

غير أن پيتر لم يساعد أحدًا في حياته. فوضعت كلارا ذراعها في ذراعه، لكنه أبقى ذراعه متدلية بمعنى الكلمة بجانبه مثل عصا.

«ليست هذه هي الطريقة يا پيتر»، قالت هايدي بصوت آمر، «عليك أن تضع ذراعك على شكل حلقة، وعلى كلارا وضع ذراعها خلالها وتسند بثقلها عليك، وأيًا فعلت لا تفلتها هكذا. أنا واثقة أننا سنتدبر الأمر».

فعل پيتر ما قيل له، غير أنهم لم يبلوا حسنًا، إذ لم تكن كلارا خفيفة الوزن، ولم يتماثل أعضاء الفريق في الحجم، إذ كان عاليًا من ناحية ومنخفضًا من ناحية أخرى، وهكذا كانت الدعائم مهتزة بعض الشيء.

حاولت كلارا تحريك قدميها قليلًا، غير أنها تسحب قدميها بسرعة في كل مرة.

«ضعي قدمك بقوة مرة»، اقترحت هايدي، «أنا متأكدة أنه سيؤلمك قليلًا بعد هذا».

«هل تظنين هذا يا هايدي؟»، قالت كلارا بشيء من التردد، لكنها اتبعت مشورة هايدي واتخذت خطوة قوية على الأرض ثم

أخرى، فتأوهت قليلًا وهي تفعل، ثم رفعت قدمها ثانية وتابعت: «أوه، إن هذا أقل ألمًا»، قالت فرحة.

«حاولي ثانية»، قالت هايدي مشجعة.

وواصلت كلارا وضع قدم تلو الأخرى حتى هتفت ثانية: «يمكنني فعلها يا هايدي، انظري، انظري! يمكنني سير خطوات صحيحة!». وهتفت هايدي بسعادة أكبر: «هل يمكنك سير خطوات حقًا؟ أوه، ليت جدي هنا!» وواصلت القول بجذل: «يمكنك المشي الآن يا كلارا! يمكنك المشي!».

ما زالت كلارا تمسك بسانديها بقوة، لكنها شعرت بالأمان على قدميها، كما أدرك كل الثلاثة وطارت هايدي من الفرحة.

«ستتمكن من الصعود هناك معًا كل يوم، ونذهب حيث شئنا، وستكونين قادرة كل حياتك على المشي كما أفعل، ولن تضطري لأن تدفعي في كرسي، وستصبحين قوية ومعافاة. إنها أعظم سعادة نحظى به!».

ووافقت كلارا من صميم قلبها، لأنها لم تتخيل فرحة في العالم أكبر من أن تكون قوية وقادرة على المشي مثل الناس الآخرين، ولن تضطر إلى الجلوس على كرسي المقعدين يومًا بعد يوم.

وصلوا حقل الزهور بعد قليل من المشي، وتمكنوا من رؤية زهور القريضة تلمع ذهبية تحت الشمس. وحين وصلوا إلى شجيرات زهور الجريس وبينها بقع مشمسة جميلة من الأرض الدافئة، فقالت كلارا: «ألن نجلس هنا لوهلة؟».

وكان هذا ما تحبه هايدي، فجلس الأطفال وسط الزهور، وكلارا تجلس للمرة الأولى على العشب الجاف الدافئ في الجبل، ووجدته مبهجًا بهجة تفوق الوصف. حولها تمايلت الزهور الزرقاء برقة على الجانبين، وخلف الرقع المشرقة لأزهار القريضة والقرطون الحمراء وقد طوقها الشذى الزكي للبراعم البنية وبقلة الأوجاع العطرة في جلوسها. كل شيء جميل للغاية! جميل للغاية! وهايدي التي كانت قربها ظنت أنها لم تر المكان بهذا الجمال الشديد من قبل ولم تعرف لمَ شعرت بالسعادة في قلبها وودت أن تصرخ من الفرحة. ثم تذكرت فجأة أن كلارا شفيت وكانت هذه السعادة العظمى التي جعلت الحياة بهيجة للغاية وسط كل هذا الجمال المحيط بهما. جلست كلارا صامتة وقد استحوذت عليها فتنة كل ما وقعت عينها عليه، وترقب كل السعادة التي تنتظرها، ولم يكن في قلبها مكان لكل عواطفها الفرحة التي تزايدت، وقد أبكمتها النشوة في ضوء الشمس وشذى الزهور.

اضطجع بيتر أيضًا بين الزهور دون كلام أو حراك لأنه غط في النوم سريعًا. وهب النسيم بنعومة وحب من خلف الصخور المظللة ومر هامسًا خلال الشجيرات في الأعلى. نهضت هايدي بين الحين والآخر لتمشي بينها، لأن الزهور تمايلت في الريح الدافئة بقوة أينما مرت، وشعرت أن عليها الجلوس في كل بقعة منعشة لتستمتع بالمنظر والرائحة وهكذا مرت الساعات.

لقد كان الوقت بعد الظهر حين تقدم حشد صغير من العنزات بمهابة من سهل الزهور، ولم يكن ذاك موقع كلأ لها لأنها لا تحفل

بأكل الزهور. لقد بدت مثل موكب تقوده غرينفلنتش. من الواضح أنها جاءت بحثًا عن رفيقها الذي تركهن في ارتباك، والذي على غير عادته ظل بعيدًا وقتًا طويلًا لأن العنزات تستطيع معرفة الوقت دون أن تخطئ. وثغت غرينفلنتش ثغاء عاليًا جدًا فور رؤيتها للأصدقاء الثلاثة المفتقدين يجلسون وسط الزهور، وانضمت إليها الأخريات في جوقة ثغاء، وجاءت المجموعة كلها تهرول نحو الأطفال. استيقظ بيتر فاركًا عينيه لأنه حلم برؤية الكرسي ثانية بتنجيده الأحمر الجميل سليمًا وصحيحًا أمام باب الجد، وحين استيقظ خيل إليه أنه ينظر إلى المسامير نحاسية الرؤوس التي رصعته، غير أنها كانت الزهور الصفراء الزاهية من حوله. وانتابه مرة أخرى خوف رهيب بأنه ضائع في حلم الكرسي السليم هذا، رغم أن هايدي وعدت بعدم فعل شيء، وظل الخوف القوي بأن يفتضح أمره بطريقة أخرى. فسمح لهايدي أن تفعل ما تشاء به، وقد بات في حال من اليأس والخنوع حتى استعد لتقديم مساعدته لكلارا دون تذمر أو تردد.

حين عاد الثلاثة إلى أماكنهم ذهبت هايدي وجلبت الحقيبة وشرعت في تنفيذ وعدها، لأن تهديد الصباح تعلق بغداء بيتر. فقد رأت جدها يضع مختلف صنوف الأشياء الشهية وسرت لأن يحظى بيتر بنصيب منها وأرادته أن يفهم حين رفض مساعدة كلارافي البدء بأنه لن يحصل على شيء لغدائه، لكن ضمير بيتر فسر كلماتها تفسيرًا آخر. أخرجت هايدي الطعام من الحقيبة وقسمته إلى ثلاث حصص كل منها كبيرة الحجم فقالت في نفسها «سيبقى الكثير من حصتينا فتكون من نصيبه».

وقدمت للآخرين حصصهما وجلست بجانب كلارا وأكل الثلاثة بشهية طيبة بعد نزهتهم الرائعة.

لقد انتهت كما توقعت هايدي، وحصل بيتر على الكثير من الطعام مما تركته هايدي وكلارا بعد أن أكلتا بقدر ما شاءتا. أكل بيتر كل لقمة من الطعام حتى الفتات الأخير لكن ثمة ما ينقص استمتاعه بالغداء اللذيذ لأنه غص بكل لقمة وشعر بشيء يقرضه من الداخل.

لقد تأخروا في تناول الغداء إذ لم يمض وقت طويل حتى عاد الجد لأخذهم، واندفعت هايدي للقياه فور رؤيته، لأنها أرادت أن تكون أول من يخبره بالأنباء السعيدة. لقد كانت بالغة الحماس فلم تعثر على كلمات حين وصلته ولكنه ما إن فهم حتى أضاء وجهه بسعادة مفرطة فأسرع إلى مجلس كلارا وقال بابتسامة مرحة «لقد حاولنا ونجحنا إذن، أليس كذلك؟».

ثم أنهضها واضعًا ذراعه اليسرى خلفها وذراعه اليمنى لتستند عليه وجعلها تمشي قليلًا وقد فعلت بارتعاش وتردد أقل من السابق وقد وجدت ذراعًا قويًا تستند عليها.

قفزت هايدي حولها بفرح النصر وبدا الجد كأن السعادة غمرته، لكنه حمل كلارا قائلًا علينا ألا نبالغ وقد حان وقت العودة للبيت، ثم انطلق على الدرب الجبلي لأنه أراد أن يعود بها للبيت فترتاح بعد مجهودها الشاق.

حين نزل بيتر إلى دورفلي ذاك المساء وجد جماعة كبيرة من الناس

تجمعوا حول مكان بعينه يتدافعون وينظرون من فوق الأكتاف متلهفين لرؤية شيء ما ملقى على الأرض. وظن پيتر أنه يود رؤيته فنكز ودفع بمرفقه حتى شق طريقه.

ووجد الشيء الذي أراد رؤيته؛ كانت بقايا كرسي كلارا متناثرة على العشب، جزء من الظهر والجزء الأوسط وما يكفي من الحشية الحمراء والمسامير اللامعة التي أظهرت جمال الكرسي حين كان سليمًا.

«كنت هنا حين رأيت الرجال يحملونه إلى الأعلى»، قال الخباز الواقف قرب پيتر، «أراهن أي أحد منكم أنه يساوي خمسة وعشرين جنيهًا على الأقل لا أدري كيف وقع حادث كهذا».

«قال الخال إن الريح ربما فعلت ذلك»، عقبت إحدى النسوة التي لم تخف إعجابها الواضح بالتنجيد الأحمر.

قال الخباز ثانية: «من الجيد أن أحدًا لم يفعل ذلك سوى الريح، وإلا فسيكون في ورطة! إذ لا شك أن السيد في فرانكفورت سيحقق في الأمر مليًا، أنا سعيد أنني لم أصعد الجبل لسنتين كاملتين، لأن الشك سيطال على الأرجح كل من كان في الأعلى في هذا الوقت».

قيلت آراء عديدة حول الأمر لكن پيتر سمع ما كفاه. فتسلل من الحشد بهدوء وأطلق ساقيه للذهاب إلى البيت بأسرع ما استطاع كأن أحدًا يلاحقه. فقد ملأته كلمات الخباز بالخوف والرعشة، وتأكد أن محققًا سيأتي من فرانكفورت في أي يوم ويحقق في تحطم الكرسي، ثم سيظهر كل شيء وسيقبض عليه ويؤخذ

إلى فرانكفورت فيحبس. كانت صورة الآتي واضحة أمام عينيه، فانتصب شعر رأسه خوفًا.

ووصل البيت بهذه الحال المضطربة، ولم يفتح فمه للإجابة عن أي شيء قيل له ولم يتناول طبق البطاطا وكل ما فعله أنه زحف نحو فراشه بسرعة قدر الإمكان واختبأ تحت الغطاء وأنّ.

«لقد عاود بيتر أكل الحميض، لا بد أنه يتألم ما دام يئنّ هكذا»، قالت بريجيتا.

«عليك إعطاؤه شيئًا من الخبز ليأخذه معه، أعطيه قليلًا من خبزتي غدًا»، قالت الجدة متعاطفة.

حين اضطجعت الطفلتان تلك الليلة في الفراش مطلتين من النافذة إلى النجوم قالت هايدي «خطر لي طوال اليوم أنه لأمر سعيد أن الرب لم يمنحنا ما طلبناه حتى بعد أن صلينا وصلينا وصلينا، لأنه يعرف أن القادم أفضل، هل شعرت بهذا؟».

«لمَ تسأليني عن هذا الليلة فجأة؟»، سألت كلارا.

«لأنني صليت كثيرًا حين كنت في فرانكفورت لأعود إلى البيت في الحال، ولأنني لم يسمح لي ظننت أن الرب نسيني. وكما ترين الآن، لو أنني عدت حين أردت أول مرة لما أتيت هنا وما تعافيت».

غرقت كلارا في التفكير بدورها ثم قالت «ولكن يا هايدي في هذه الحال علينا ألا نصلي، لأن الرب يمنحنا الأفضل لنا دومًا أكثر مما نعرف أو نتمنى».

«عليك ألا تفكري على هذا النحو يا كلارا، أجابت هايدي متلهفة، «بل علينا مواصلة الصلاة لكل شيء، كل شيء، ليعرف الرب أننا لم ننس أن كل شيء يأتي منه. فإن نسينا الرب فسيجعلنا نتولى أمرنا ونقع في المتاعب، هذا ما أخبرتني به جدتي. وإن لم يمنحنا سؤلنا يجب ألا نظن أنه لم يسمعنا ونهجر الصلاة، بل علينا المواظبة على الصلاة وأن نقول أنا واثق يا إلهي الرحيم أنك تخبئ شيئًا أفضل لي، ولن أحزن لأنني أعرف أنك ستجعل الأمور في مسارها الصحيح في نهاية المطاف».

«كيف تعلمت هذا؟»، سألت كلارا.

«شرحته لي جدتي أول مرة ثم حين حدث مثلما قالت أدركته بنفسي وأظن يا كلارا»، وتابعت وقد اعتدلت في فراشها، «أن علينا شكر الرب حتمًا هذه الليلة بأنك تستطيعين المشي وأنه أسعدنا للغاية».

«أجل يا هايدي، أنا واثقة أنك محقة، وأنا سعيدة لأنك ذكرتني فقد كدت أنسى صلواتي من السعادة».

تلت الطفلتان صلواتهما وكل منهما شكرت الرب بطريقتها على النعم التي أنعم بها على كلارا التي رقدت مريضة وواهنة لوقت طويل.

اقترح الجد في الصباح التالي أن يكتبوا للجدة لسؤالها إن كانت ستزورهم، لأن عندهم شيئًا جديدًا يرونه لها. غير أن الطفلتين لديهما خطة أخرى، لأنهما أرادتا تحضير مفاجأة كبيرة للجدة. على كلارا

أولًا أن تتمرن أكثر على المشي فتصبح قادرة على السير وحدها، دون إخبار الجدة عن شيء من ذلك. وسألتا الجد كم سيستغرق هذا في رأيه، وحين قال لهما إنه يستغرق حوالي أسبوع أو أقل، جلستا من فورهما وكتبتا دعوة ملحة للجدة يطلبان منها أن تأتي سريعًا دون إخبارها بشيء يودان أن تراه.

كانت الأيام التالية من أسعد الأيام التي قضتها كلارا على الجبل، واستيقظت كل صباح وصوت سعيد في داخلها يقول «أنا معافاة أنا معافاة! لن أتنقل على كرسي، يمكنني السير وحدي مثل الناس الآخرين».

ثم بدأت تمشي وقد غدا أسهل عليها كل يوم، وغدت قادرة على المشي مسافة أطول، وقد فتحت الحركة شهيتها للطعام فقطع الجد شرائح أسمك من الخبز والزبدة كل يوم وسر لرؤيتها تختفي. وأخرج معه إبريق كبيرًا من الحليب المزبد وملأ صحيفتها الصغيرة مرة بعد أخرى. وهكذا مر أسبوع آخر وجاء اليوم الذي ستحضر فيه الجدة إلى الجبل في زيارتها الثانية.

الفصل الثالث والعشرون

إلى اللقاء حتى نلتقي ثانية

كتبت الجدة قبل يوم من وصولها لتخبر الطفلتين أن تنتظراها قطعًا. جلب بيتر الرسالة باكرًا في الصباح التالي وكان الجد والطفلتان في الخارج سلفًا والعنزتان بانتظاره تهزان رأسيهما بمرح في هواء الصباح النقي، والطفلتان تمسدان عليهما وتتمنيان لهما رحلة سعيدة في الجبل. وقف الجد بالقرب ناظرًا إلى وجهي الطفلتين النضرين وإلى عنزتيه المعتنى بهما وعلى وجهه ابتسامة، وهو بادي السرور لكلا المنظرين.

حين اقترب بيتر من الجماعة تباطأت خطواته وما إن سلم الرسالة للجد حتى استدار بسرعة كأنه مذعور وهو ينظر خلفه نظرة عجولة، كأن الشيء الذي يخافه يلاحقه، ثم قفز وصعد إلى الجبل.

قالت هايدي التي راقبته بعينين مذهولتين «لماذا يتصرف بيتر على هذا النحو مثل تِرك الكبير حين يظن أحدًا يلاحقه بعصا يا جدي، إنه يلتفت ويهز رأسه وينطلق واثبًا هكذا؟».

«ربما يتخيل بيتر العصا التي يستحقها خلفه»، أجاب الجد.

صعد بيتر المنحدر الأول دون توقف، غير أنه حين اختفى عن الأنظار وقف ونظر بريبة من حوله، ثم قفز فجأة ونظر خلفه بوجه خائف، كان أحدًا أمسك به من قفا عنقه، لأن بيتر توقع كل لحظة أن محقق الشرطة من فرانكفورت سيثب عليه من خلف شجيرة أو سياج. وكلما طال ترقبه أصابه الذعر والبؤس أكثر ولم يهنأ براحة البال للحظة.

انطلقت هايدي ترتب الكوخ فتجد الجدة كل شيء نظيفًا ومرتبًا حين تصل.

تابعتها كلارا مستمتعة وسعيدة لرؤية هايدي المنكبة بعملها.

وهكذا مر الصباح سريعًا، ويمكن أن تصل الجدة في أي لحظة. تأنقت الطفلتان وذهبتا للجلوس خارجًا على المقعد جاهزتين لاستقبالها.

انضم إليهما الجد ليريا باقة الجنطيان (كف الذئب) الزرقاء التي صعد إلى الجبل لقطفها وفرحت الطفلتان بجمال الزهور وهي تلمع تحت الشمس. ثم أخذها الجد إلى الداخل، وقفزت هايدي بين الحين والآخر لترى أي أثر لاقتراب الجدة.

ورأت في نهاية المطاف الموكب يصعد الجبل بالترتيب الذي توقعته. إذ ظهر المرشد أولًا ثم الحصان الأبيض الذي تمتطيه الجدة، وأخيرًا الحمال حاملًا حزمة ثقيلة على ظهره، لأن الجدة لن تفكر بالذهاب إلى الجبل دون مؤونة كبيرة من الأوشحة والبسط.

اقترب الموكب أكثر فأكثر ووصل القمة أخيرًا وكانت الجدة

تنظر إلى الطفلتين من فوق حصانها. وما إن رأتهما جالستين قرب بعضهما حتى أخذت تترجل وصاحت بصوت مذهول «ما هذا؟ لم لا تجلسين في كرسيك يا كلارا؟ ما الذي تفكرين به؟»، ولكنها قبل أن تقترب منهما رفعت يديها في دهشة قائلة: «هل هذه أنت حقًا يا طفلتي الصغيرة؟ عجبًا لقد باتت وجنتاك ممتلئتين ومتوردتين! بالكاد عرفتك! وأسرعت لعناقها حين نزلت هايدي من المقعد واتكأت كلارا على كتفها وأخذت الطفلتان تمشيان مشيًا عاديًا سلسًا. فوجئت الجدة حقًا، أو خافت بالأحرى لأنها ظنت أن هذه بدعة من بدع هايدي لا سابقة لها.

ولكن كلا، كانت كلارا تمشي بثبات وسلاسة قرب هايدي، وانعطفت الطفلتان واقتربتا منها بوجهيهما المشرقين وخدودهما الموردة. فجرت نحوهما وهي تبكي وتضحك وعانقت كلارا أولا ثم هايدي ثم كلارا ثانية عاجزة عن الكلام من فرحها. ثم لمحت الجد يقف قرب المقعد وينظر باسمًا إلى اللقاء. أخذت كلارا بين ذراعيها وبتعابير متواصلة من الفرح لحقيقة أن الطفلة يمكنها المشي معها حقًا، اتجهت نحو الرجل العجوز وتركت ذراع كلارا وأمسكت بيديه: «أيها الخال العزيز! أيها الخال العزيز! كم علينا شكرك... هذا كله من صنعك إنها رعايتك واهتمامك....».

«وشمس الرب وهواء الجبل»، قاطعها مبتسمًا.

«أجل، ولا تنسي الحليب اللذيذ الذي أتناوله»، أضافت كلارا، «لا تعرفين مقدار حليب الماعز الذي أشربه وكم هو لذيذ!».

«أرى ذلك على خديك يا صغيرتي!».

أجابت الجدة «لم أكن لأعرفك، فقد غدوت قوية وممتلئة وأطول أيضًا، لم أتوقع يومًا أو أترقب رؤيتك تبدين هكذا. لا يمكنني إبعاد نظري عنك لأنني لا أصدق. ولكن علي أن أرسل برقية لابني في باريس بلا إبطاء وأخبره أن عليه القدوم هنا في الحال، ولن أذكر له السبب، إذ ستكون هذه أعظم سعادة عرفها. أيها الخال العزيز كيف لي إرسال برقية، هل صرفت الرجال؟».

«لقد ذهبوا»، أجاب، «ولكن إن كنت في عجلة فسأدعو بيتر ويمكنه أخذها لك».

شكرته الجدة لأنها تحمست ألا تخفي الأخبار السعيدة عن ابنها يومًا آخر إن أمكن.

فتنحى الخال جانبًا وصفر بأصابعه صفيرًا عاليًا تردد صداه بين الصخور بعيدًا في الأعلى، ولم ينتظر دقائق كثيرة حتى جاء بيتر ملبيًا النداء لأنه يعرف صوت صفير الخال. وصل بيتر وهو بادي الشحوب كالشبح، لأنه ظن أن الخال يرسل في طلبه ليسلمه. ولكن حين أعطي ورقة مكتوبة، وأمليت عليه تعليمات أن ينزل بها في الحال إلى مكتب البريد في دورفلي وأن الخال سيدفع لاحقًا، لأنه لم يكن من الآمن تحميل بيتر الكثير ليهتم به.

انطلق بيتر حاملًا الورقة في يديه شاعرًا براحة البال في الوقت الراهن لأن الخال لم يصفر له بغية تسليمه واتضح أن الشرطة لم تصل بعد.

وأمكنهم الآن جميعًا الجلوس في هدوء لتناول غدائهم حول الطاولة أمام الكوخ وسمعت الجدة سردًا مفصلًا لكل ما حدث، وأن الجد جعل كلارا في البدء تحاول الوقوف ثم تحريك قدميها قليلًا كل يوم، وأنهم اتفقوا على أن نزهة الجبل وتحطم الكرسي ورغبة كلارا برؤية الزهور حفزتها على أول مشي لها، وهكذا تدريجيًا أدى شيء إلى آخر. استغرق السرد بعض الوقت لأن الجدة واصلت مقاطعتهم بتعبيرات جديدة عن الدهشة والامتنان «هذا لا يصدق! أكاد لا أصدق أنه ليس حلمًا. هل نحن مستيقظون ونجلس كلنا أمام كوخ الجبل، وهل هذه الطفلة المدورة الوجه المعافاة هي صغيرتي كلارا المسكينة الشاحبة المعتلة؟».

ولم تتمالك كلارا وهايدي نفسيهما من سعادتهما لنجاح مفاجأتهما التي أعدتاها للجدة جيدًا ولدهشتها المتواصلة.

في أثناء ذلك، كان السيد زيزمن -الذي أنهى عمله في باريس- يحضر مفاجأة من جانبه. ودون أن يقول شيئًا لأمه صعد القطار في صباح مشمس وسافر ذاك اليوم إلى بال، وتابع رحلته في الصباح التالي لأن الشوق الكبير استولى عليه لرؤية ابنته الصغيرة التي ابتعد عنها طوال الصيف. وصل راغاتز لساعات قليلة بعد مغادرة أمه بساعات قليلة، وحين سمع أنها انطلقت ذلك اليوم إلى الجبل استأجر عربة من فوره ليسافر إلى مينفيلد وهنا وجد أن بوسعه إن شاء أن يتابع حتى دورفلي وهذا ما فعله لأنه وجد المشي من ذاك المكان سيكون أطول مما توقع.

ووجد السيد زيزمن أنه محق لأن صعود الجبل كان مرهقًا وطويلًا عليه، فواصل وواصل لكنه لم ير شيئًا وعرف أن پيتر يسكن هنا في منتصف الطريق، لأن الدرب وصف له مرارًا وتكرارًا.

ثمة آثار أقدام للصاعدين ترى على كل الجوانب، وبدا الدرب الضيق يذهب في كل اتجاه، وأخذ السيد زيزمن يتساءل عن الاتجاه الصحيح. أو إن كان الكوخ يقع على الجانب الآخر من الجبل. فنظر حوله ليبحث عن أحد قريب فيسأله عن الطريق لكن على المدى البعيد والرحب لم يُر أحد أو يُسمع صوت، إلا إن صفرت ريح الجبل في الهواء وغنت الحشرات في ضوء الشمس أو غنى طائر سعيد من أغصان شجرة أرز وحيدة أحيانًا. وقف السيد زيزمن لوهلة ليسمح لريح الألب الباردة أن تهب على وجهه الحار، غير أن أحدًا جاء راكضًا من الجبل، وكان ذاك پيتر حاملًا البرقية في يده، فجرى نازلًا المنحدر الوعر دون سلك الدرب الذي وقف عليه السيد زيزمن. وما إن لمحه الأخير حتى أومى له ليأتي فتقدم پيتر نحوه ببطء وخوف بما يشبه الحركة الجانبية، كأنما لا يستطيع إلا تحريك ساق واحدة وجر الأخرى. وحين اقترب پيتر ناداه السيد زيزمن وقال «أسرع يا فتى قل لي، هل هذا هو طريق الكوخ حيث يعيش الرجل العجوز وهايدي، وحيث يقيم أهل فرانكفورت؟».

كان الجواب الذي تلقاه صوتًا خفيضًا من الخوف، إذ استدار پيتر بعجلة متهورة حتى انقلب رأسًا على عقب عدة مرات، وظل يتدحرج ويتعثر أسفل المنحدر في قفزات لا إرادية، كما حدث

للكرسي تمامًا، عدا أن بيتر لم يتحطم إلى قطع لحسن الحظ كما حدث للكرسي، إلا أن البرقية تلفت وتمزقت إربًا إربًا وطارت.

«كم يخاف سكان الجبل هؤلاء خوفًا غير معقول!»، قال السيد زيزمن في نفسه، لأنه اقتنع أن رؤية غريب هي ما أحدثت هذا الأثر في طفل ساذج من الجبال.

بعد أن رأى سقوط بيتر القاسي نحو الوادي لبضع دقائق واصل رحلته.

في أثناء ذلك لم يستطع بيتر إيقاف نفسه رغم كل محاولاته، بل ظل يتدحرج وينقلب رأسًا على عقب بفواصل بطريقة غريبة.

لكن هذا لم يكن أكثر الأجزاء فظاعة من معاناته في تلك اللحظة، فقد استولى عليه رعب وخوف أسوأ بكثير وقد تأكد الآن أن الشرطي قد جاء لأجله من فرانكفورت. ولم يساوره أدنى شك أن الغريب الذي سأله عن الطريق كان شرطيًا، وعندما تدحرج إلى حافة المنحدر الأخير العالي فوق دورفلي صدته شجيرة، وتمكن أخيرًا من منع نفسه من السقوط أكثر، وظل راقدًا للحظة أو اثنتين ليستجمع قواه وليفكر بالأمر.

«أحسنت! من غيرك سيأتي متعثرا هكذا؟!»، قال صوت قريب من بيتر، «وأي جزء منك سترسله الريح متدحرجًا هكذا مثل جراب سيء الحياكة من البطاطس»، كان هذا الخباز الذي وقف ضاحكًا، إذ كان يتمشى لإنعاش نفسه بعد نهاره الحار في العمل، ورأى مستمتعًا تدحرج بيتر مرارًا بالطريقة نفسها التي سقط بها الكرسي.

وقف بيتر من فوره، فقد كانت تلك صدمة جديدة، ودون أن ينظر خلفه ولو لمرة أخذ يغذ الخطى صاعدًا المنحدر. إذ ود الذهاب للبيت كثيرًا والتسلل إلى الفراش، لكنه ترك العنزات في الأعلى وقد أعطاه الخال تعليمات صارمة بأن يسرع في العودة، فلا تُترك وحدها لوقت طويل. وقد شعر بالخوف من الخال أكثر من أي شخص آخر، ولن يجرؤ على عصيان أمره تحت أي ظرف، ولم يكن لديه مناص من العودة، وتابع طريقه يئن ويعرج. لم يعد بوسعه الجري بسبب عذاب الضمير والسقوط والارتجاج الذي تلقاه، وقد أخذت آثارها تظهر عليه، وهكذا بخطوات متثاقلة وآهات شق طريقه صعودًا نحو الجبل ببطء.

وبعد أن مر السيد زيزمن ببيتر تجاوز الكوخ الأول وسر لأنه على الطريق الصحيح، ثم واصل صعوده بشجاعة متجددة، ولمح هدفه في نهاية المطاف بعد سير طويل منهك، فعلى مبعدة قصيرة يقع بيت الجد وأعالي قمم اشجار التنوب الداكنة تتمايل فوق سطحه.

سر السيد زيزمن بوصوله إلى الجزء الأخير من رحلته، فسيكون بين دقيقة وأخرى مع ابنته الصغيرة وسلى نفسه بفكرة مفاجأتها، لكن الجماعة في الأعلى رأوا شخصًا يقترب وعرفوا من يكون وأخذوا يعدون شيئًا لم يكن ليتوقعه مفاجأة له من جانبهم.

وحين وطئ البراح أمام الكوخ جاء إليه شخصان، الأولى فتاة طويلة بشعر فاتح وخدين ورديين تتكئ على هايدي التي تراقصت عيناها الداكنتين طربًا. فتوقف السيد زيزمن فجأة ونظر

إلى الطفلتين وأخذت الدموع تنهمر من عينيه. يا للذكريات التي ثارت في روحه! هكذا كانت تبدو أم كلارا؛ الفتاة الشقراء الشعر ذات البشرة البيضاء الناعمة الموردة، ولم يدر السيد زيزمن أفي حلم هو أم يقظة.

«ألا تعرفني يا بابا؟»، قالت له كلارا ووجهها مشرق بالسعادة، «هل تغيرت كثيرًا منذ رأيتني؟».

ثم جرى السيد زيزمن إلى طفلته وحملها بين ذراعيه.

«أجل لقد تغيرت حقًا! كيف يعقل هذا؟ هل ما أرى حقيقة؟»، وتراجع الأب السعيد لينظر إليها مليًا وليتأكد أن الصورة لن تتلاشى من أمام عينيه.

«هل أنت صغيرتي كلارا، حقًا صغيرتي كلارا؟»، ظل يردد ثم لف ذراعيه حولها وأبعدها عنه حتى ينظر ويتأكد أنها هي من تقف أمامه.

ثم جاءت الجدة متحمسة لرؤية وجه ابنها:

«حسن، ما قولك يا بني العزيز؟»، قالت، «لقد فاجأتنا مفاجأة سارة، ولكن عليك أن تقرّ أن هذا ليس شيئًا مقارنة لما أعددنا لأجلك»، وقبلت ابنها قبلة حب وهي تتحدث ثم تابعت، «ولكن عليك الآن القدوم وتقديم احترامك للخال الذي كان مفضالًا علينا كثيرًا».

«أجل بالطبع ومعه الساكنة الصغيرة لبيتنا؛ صغيرتنا هايدي

أيضًا»، قال السيد زيزمن مصافحًا هايدي «حسن، أما زلت معافاة وسعيدة في بيتك الجبلي؟ ولكن يجب ألا أسأل؛ لا يمكن لزهرة ألب أن تبدو أكثر تفتحًا. إنني مسرور يا صغيرتي، تسرني رؤيتك هكذا».

ونظرت هايدي بسرور مماثل إلى وجه السيد زيزمن، كم كان حنونًا معها دومًا، وأن يجد سعادة كهذه بانتظاره على الجبل جعل قلبها ينبض فرحًا.

أخذت الجدة ابنها لتعرّفه على الخال. ولما تصافح الرجلان وعبّر السيد زيزمن عن شكره الجزيل ودهشته اللا محدودة للرجل العجوز، تجولت الجدة لترى أشجار التنوب العتيقة.

وهنا رأت منظرًا مفاجئًا آخر. فتحت الأشجار، حيث أفسحت الأغصان الطويلة مكانًا خاليًا على الأرض، انتصبت شجيرة من أجمل زهور الجنطيان الداكنة الزرقة، زاهية ولامعة كأنها تنمو في هذا المكان، فضمت يديها نشوى بجمالها وقالت: «يا للجمال! يا له من منظر جميل! هايدي يا طفلتي الغالية تعالي هنا، هل أنت من حضّر هذه السعادة من أجلي؟ إنها رائعة للغاية!».

فجاءت الطفلتان.

«كلا، كلا. لم أضعها»، هنا قالت هايدي، «لكني أعرف من فعل».

«إنها تنمو هكذا على الجبل يا جدتي، إلا أنها تبدو أجمل»، أضافت كلارا، «ولكن خمني من جلب هذه اليوم؟»، ورسمت ابتسامة سرور

وهي تتحدث فظنت معها الجدة للحظة أن الطفلة هي من جمعها، غير أن هذا ليس ممكنًا.

وفي هذه اللحظة سُمع حفيف خلف أشجار التنوب، وكان ذاك بيتر الذي وصل لتوه. لقد دار دورة طويلة بعد أن رأى من بعيد مَن الواقف قرب الخال أمام الكوخ، وحاول التسلل دون أن يلاحظه أحد. ثم فجأة ظنت الجدة أن بيتر قد يكون من أحضر الزهور، وأنه يحاول الهروب دون أن يُرى شاعرًا بالخجل من ذلك. لكنها لم تتركه يذهب هكذا، بل كان عليها أن تقدم له مكافأة صغيرة.

«تعال أيها الولد، تعال هنا، لا تخف»، قالت له.

وقف بيتر يسكنه الخوف، فبعد كل ما مر به ذلك اليوم شعر أنه لا يملك أي قوة مقاومة. وكل ما استطاع التفكير به: «لقد انتهى أمري!»، وانتصبت كل شعرة في رأسه وتقدم من خلف أشجار التنوب ووجهه شاحب وقد تغير من الخوف.

«تشجع يا فتى»، قالت الجدة محاولة تبديد خجله، «أخبرني الآن بلا تردد، هل أنت من فعلها؟».

لم يرفع بيتر نظره ولم ير لذلك إلام تشير الجدة، لكنه عرف أن الخال يقف في زاوية الكوخ يراقبه بعينيه الرماديتين، وقربه وقف الشخص الأكثر مهابة وظنه بيتر مفتش الشرطة من فرانكفورت، فقال بصوت خفيض وشفتين مرتعشتين وقد ارتعدت فرائصه «أجل».

«حسن، وما المخيف في ذلك؟»، قالت الجدة.

«لأنه... لأنه تحطم إلى شظايا، ولا يمكن لأحد أن يجمعه ثانية،» نطق بيتر كلماته بصعوبة واصطكت ركبتاه ولم يستطع الوقوف.

فذهبت الجدة إلى الخال وسألته مشفقة «هل هذا الصبي فاقد لصوابه قليلًا؟».

«كلا، أبدًا»، أكد لها الجد، «غير أنه الريح التي جعلت الكرسي يتدحرج أسفل المنحدر، وهو ينتظر عقابه الذي يستحقه».

وجدت الجدة هذا يصعب تصديقه، لأن بيتر في رأيها لا يبدو ولدًا سيئًا، ولا سبب يدعوه لتحطيم شيء مهم كالكرسي. لكن الخال عبر عن الشك الذي ساوره منذ لحظة وقوع الحادث، فلم تفلت من عين الخال النظرات الغاضبة التي نظر بها بيتر نحو كلارا وبراهين أخرى على كرهه لما يحدث في الجبل، فخلص إلى النتيجة الصحيحة لسبب الكارثة، وتحدث بلا تردد حين اتهم بيتر، فانفجرت السيدة بعتاب مرح لسماع هذا: «كلا، كلا أيها الخال العزيز. لن نعاقب الصبي المسكين، ولا بد للمرء أن يكون عادلًا معه، فقد جاء كل هؤلاء الغرباء من فرانكفورت وأخذوا هايدي رفيقته الوحيدة، وهي رفيقة تساوي الكثير، وتُرك للجلوس وحيدًا يومًا بعد يوم طوال أسابيع بلا شيء يفعله سوى التفكير مليًا بأخطائه. كلا، كلا، دعنا ننصفه، فقد كان لغضبه اليد الطولى وجعله ينتقم، وهذا فعل أحمق كما أرى، غير أننا جميعًا نتصرف بحماقة عند الغضب». وبقولها هذا ذهبت إلى بيتر الذي لم يزل واقفًا خائفًا ويرتعش، فجلست على المقعد تحت أشجار التنوب ونادته نحوها بعطف: «تعال إلى هنا

أيها الولد وقف أمامي، لأن لدي ما أقوله لك. كفّ عن الارتعاش والارتجاف، لأني أريدك أن تصغي إلي. لقد جعلت الكرسي يتدحرج أسفل الجبل فتكسر إلى شظايا، وكان هذا خطأ منك مثلما أدركت بنفسك، وعرفت أيضًا أنك تستحق العقاب. وبغية الفرار من هذا فعلت ما بوسعك لإخفاء الحقيقة عن الجميع، ولكن تأكد من هذا يا بيتر؛ يخطئ أولئك الذي يقترفون الشر إن ظنوا أن لا أحد يراهم، لأن الرب يرى ويسمع كل شيء. وحين يحاول مرتكب الشر إخفاء فعلته يوقظ الرب حارسًا صغيرًا يضعه داخلنا جميعًا منذ الولادة، ينام بهدوء حتى نرتكب خطأ. ولدى الرقيب الصغير مهماز في يده يظل ينخسنا به حين يستيقظ، فلا نهنأ براحة البال للحظة، ويتابع الرقيب تعذيبنا أكثر لأنه يظل يردد: «سيكتشف أمرك وسيأخذونك للعقاب» وهكذا نمضي حياتنا في الخوف والحزن، ولا نعرف لحظة سعادة أو هناءة، هل شعرت بشيء كهذا مؤخرًا يا بيتر؟».

هز بيتر رأسه هزة الندم مثل من عرف ذلك كله لأن الجدة وصفت مشاعره وصفًا دقيقًا.

«كما أنك أخطأت في تقديرك من جانب آخر»، تابعت الجدة، لأنك ترى الشر الذي قصدته قد تحول إلى الأفضل لأولئك الذين رغبت بإيذائهم. لما لم يكن لدى كلارا كرسي لكنها ودت بشدة رؤية الزهور فحاولت المشي ومنذئذ وهي تمشي أفضل وأفضل كل يوم، وإن ظلت في الأعلى هنا ستصبح بمرور الوقت قادرة على صعود الجبل كل يوم أكثر مما ستفعل على الكرسي. وها أنت

ترى يا بيتر أن الرب قادر على إخراج الخير من الشر لأولئك الذين نويت إيذاءهم. وتُركتَ أنت يا من ارتكبت الخطأ لتعاني عواقبه الوخيمة. هل تفهم تمامًا ما قلته يا بيتر؟ إن فهمت فلا تنس كلماتي، وكلما شعرت برغبة بارتكاب الخطأ، تذكر الرقيب الصغير داخلك بمهمازه وصوته الكريه، هل ستتذكر هذا؟».

«أجل سأفعل»، أجاب بيتر ولم يزل خانعًا لأنه لم يعرف بعد كيف سينتهي الأمر، وما زال محقق الشرطة يقف قرب الخال.

«هذا حسن، والآن لقد انتهى الأمر وفرغنا منه»، قالت الجدة، «لكني أود أن تحصل على ذكرى سارة من زوار فرانكفورت، هلا أخبرتني بشيء تمنيته طويلًا؟ ما الذي ترغب به هدية؟».

رفع بيتر رأسه عند قولها هذا وحدق بالجدة فاغرًا فاه، فقد كان حتى اللحظة الأخيرة يتوقع حدوث شيء فظيع، والآن يمكنه الحصول على ما يريد، فأصابه الدوار.

«إنني أعني ما أقول»، واصلت الجدة، «اختر ما تود الحصول عليه ذكرى من زوار فرانكفورت ودليلًا على أنهم لن يذكروا الخطأ الذي ارتكبته، هل تفهمني يا ولد؟».

اتضح لبيتر أخيرًا أنه لن ينال عقوبة، وأن السيدة الحنون الجالسة أمامه قد حررته من محقق الشرطة، وشعر فجأة كأن حمل الجبل قد سقط عن كاهله، كما أنه في هذه اللحظة انتبه إلى اليقين الأكيد بأن الاعتراف الكامل السريع أفضل من أي شيء فعله أو لم يفعله. فقال «كما أنني أضعت الورقة».

فكرت الجدة للحظة فيما يعنيه، غير أنها تذكرت أنه يعني برقيتها، وقالت بحنان: «إنك ولد طيب لأنك اخبرتني. لا تخفِ خطأ فعلته أبدًا، وحينها تعود الأمور إلى مسارها الصحيح، والآن ماذا تود أن أقدم لك؟».

شعر پيتر بالدوار لفكرة حصوله على ما شاء في العالم، وتراءت له صورة السوق السنوي في مينفيلد بأكشاكه الزاهية وكل الأشياء الجميلة التي وقف ينظر إليها لساعات دون أمل امتلاك شيء منها، لأن محفظة پيتر لم تحوِ يومًا أكثر من نصف پنس، وكل هذه الأشياء الفاتنة تكلف ضعف ذلك المبلغ. ففيه صفارات صغيرة حمراء جميلة بوسعه استخدامها لنداء العنزات، وسكاكين رائعة ذات مقابض مبرومة تعرف باسم المطواة، يمكن للمرء أن ينجز بها عملًا رائعًا على أغصان البندق.

ظل پيتر يفكر، وحاول التفكير بأي واحد من هذه الأغراض الجميلة يود الحصول عليه أكثر، ووجد صعوبة في حسم أمره. ثم خطرت له فكرة ذكية،؛ يمكنه التفكير بالأمر من اليوم وحتى موعد المعرض العام القادم.

«پنسًا»، أجاب پيتر الذي لم يعد مترددًا.

لم تستطع الجدة منع نفسها من الضحك، «هذا ليس طلبًا باهظًا. تعال إلي إذن». ثم أخرجت محفظتها ووضعت أربعة شلنات لامعة في يده، ووضعت بعض الپنسات فوقها. «سنصفي حسابنا في الحال»، تابعت، «وسأبينها لك. لقد أعطيتك من الپنسات بعدد

الأسابيع في السنة، فتستطيع كل يوم أحد أن تنفق پنسًا طوال العام».

«طوال حياتي؟»، قال پيتر بسذاجة.

فزاد ضحك الجدة لهذا، وتوقف الرجلان عن الكلام لدى سماعها ليسمعا ما يجري. «أجل يا فتى. ستحصل عليها طوال حياتك، وسأكتب هذا في وصيتي، هل تسمعني يا بني؟ وعليك أن تكتب في وصيتك أيضًا «پنس في الأسبوع لپيتر طوال حياته»».

هز السيد زيزمن رأسه موافقًا وضحك.

نظر پيتر ثانية إلى الهدية في يده ليتأكد أنه لا يحلم، ثم قال «حمدًا للرب».

وانطلق يجري ويقفز بأكثر من مرحه المعتاد، وتمكن هذه المرة من السيطرة على قدميه. فليس الخوف ما أرسله طائرًا من الجبل، بل فرحٌ لم يعرف مثله في حياته. لقد اختفى كل الحزن والرعدة، وسيحصل على پنس كل أسبوع طوال حياته.

في وقت لاحق بعد الغداء جلس الجمع معًا يتحدثون، وتنحّت كلارا بأبيها جانبًا وقالت بحماس لم تعرفه الصغيرة المعتلة قبلًا:

«ليتك تعرف كل ما فعله الجد لي يا بابا يومًا بعد يوم. لا يمكنني وصف حنانه، لكني لن أنساه ما حييت. وظللت أفكر فيما يمكنني فعله له، أو أي هدية أقدمها له تسعده نصف السعادة التي منحها لي».

«هذا ما أود معرفته أنا نفسي يا كلارا»، أجاب أبوها الذي غدا وجهه أسعد كلما نظر إلى ابنته الصغيرة، «كنت أفكر أنا أيضًا كيف يمكننا إبداء امتناننا لمحسننا الكريم».

ذهب السيد زيزمن إلى حيث كان الخال والجدة منهمكين في حديث حيوي، فوقف الجد عند اقترابه وأخذه السيد زيزمن من يده قائلًا: «دعنا نتبادل بضع كلمات قليلة يا صديقي العزيز. ستصدقني إن قلت لك إني لم أشهد سعادة حقيقية في السنوات الماضية. فما قيمة المال والأملاك عندي إن لم تستطع جعل طفلتي سعيدة ومعافاة. لكنك بعون الرب جعلتها سليمة وقوية، وقد منحتَ حياة جديدة ليس لها فحسب بل لي أيضًا. أخبرني الآن كيف لي أن أبدي امتناني لك؟ لا يمكنني رد صنيعك، ولكن كل ما بوسعي فعله سيكون رهن إشارتك، فتحدث يا صديقي وأخبرني ماذا يسعني أن أفعل؟».

أصغى الخال بهدوء وعلى وجهه سعادة واضحة وهو ينظر إلى الأب السعيد.

وأجاب بطريقته الوقورة «صدقني يا سيد زيزمن أنني نلت أيضًا نصيبي من الفرح بشفاء ابنتك وقد كوفئ تعبي جيدًا به. أشكرك من كل قلبي لكل ما قلت، لكني لست بحاجة لشيء، ولدي ما يكفيني لنفسي وللطفلة طوال حياتي. غير أن لي رجاءً واحدًا فحسب، وإن تحقق فإنني لا أعبأ بالحياة».

«تحدث يا صديقي العزيز، وأخبرني ما هو»، قال السيد زيزمن مستعطفًا.

«إنني أهرم»، تابع الخال، «وقد لا أكون هنا بعد بعض الوقت وليس لدي ما أتركه للطفلة حين أموت، وليس لها أقارب سوى واحدة تود دومًا الانتفاع منها بأي طريقة كانت. إن وعدتني أن هايدي لن تضطر للذهاب لتجني قوتها بين الغرباء، فقد كافأتني بسخاء على كل ما فعلته لابنتك».

«ليس هذا محل شك يا صديقي العزيز»، قال السيد زيزمن بسرعة، «إنني أنظر إلى الطفلة كابنتي، واسأل أمي وابنتي وثق أنهما لن تسمحا للطفلة أن تترك في رعاية أحد آخر. ولكن إن كان هذا يسعدك، فإني أعاهدك على هذا، أعدك أن هايدي لن تضطر للذهاب وكسب قوتها بين الغرباء، وسأحرص على هذا في حياتي ومماتي. غير أن لدي أمرًا آخر أقوله، بغض النظر عن ظرفها فإن الطفلة لا تلائمها الحياة بعيدًا عن بلدها تمامًا، وقد اكتشفنا ذلك حين كانت معنا. غير أن لها أصدقاء، ومنهم أعرف واحدًا في فرانكفورت في هذه اللحظة، إنه ينهي أعماله هناك ليكون حرًا في الذهاب أنى شاء ويستريح. إنني أتحدث عن صديقي الطبيب الذي جاء هنا في الخريف، والذي فكر بنصيحتك جيدًا وينوي الاستقرار في هذا الجوار. لأنه لم يشعر بسعادة في أي مكان بقدر السعادة برفقتك ورفقة هايدي. ولذا أنت ترى أن الطفلة سيكون لها وصيان قريبان منها، وأرجو أن يعيشا طويلًا ليتشاطرا المهمة».

«ليحقق الرب ذلك!»، أضافت الجدة مصافحة يد الخال بحرارة وهي تتحدث لتظهر أنها تردد بإخلاص أمنية ابنها. ثم وضعت ذراعها حول هايدي الواقفة هناك وتنحّت بها جانبًا: «وأنا لدي

سؤال لك يا عزيزتي هايدي، أخبريني إن كنت تودين الحصول على شيء بعينه».

«أجل، ثمة شيء»، أجابت هايدي بسرعة ناظرة إلى الجدة بفرح.

«أخبريني به في الحال إذن».

«أود الحصول على الفراش الذي نمت عليه في فرانكفورت مع الوسائد العالية والغطاء السميك، فلا تضطر الجدة أن تستلقي ورأسها للأسفل، فتجد صعوبة في التنفس، وحتى تشعر بالدفء تحت الغطاء فلا تضطر لارتداء وشاحها في الفراش ليقيها من التجمد حتى الموت».

وفي غمرة حماسها لتفضي عما في قلبها لم تتمهل هايدي في قول كل ما أرادت قوله، ولم تتوقف لالتقاط نفس حتى وصلت إلى نهاية جملتها.

أجابت الجدة وقد تأثرت بكلام هايدي «ما هذا الذي تقولينه عن الجدة يا هايدي الغالية؟ إنك محقة في تذكيري، ففي وسط سعادتنا ننسى كثيرًا ما يجب أن نتذكره قبل كل شيء حين رحمنا الرب رحمة خاصة، فحينئذ علينا التفكير فورًا بأولئك الذين لا يملكون الكثير. سأبرق إلى فرانكفورت في الحال بأن على الآنسة روتنماير أن تحزم الفراش هذا اليوم، وسيصل هنا في غضون يومين، وبعون الرب ستنام الجدة عليه براحة في وقت قريب».

دارت هايدي حول الجدة نشوى، ثم توقفت على حين غرة

وقالت بسرعة «علي النزول سريعًا وإخبار الجدة، كما أنها ستحزن لأنني لم أرها منذ وقت طويل»، فقد شعرت أنها لا تطيق صبرًا لحظة أخرى قبل أن تنقل الأخبار السعيدة إلى الجدة، وقد استعادت ذكرى الحزن الذي شعرت به الجدة حين رأتها آخر مرة.

«كلا، كلا يا هايدي. كيف تفكرين بذلك؟»، قال الجد مؤنبًا، «لا يمكنك الغدو والرواح هكذا ولدينا ضيوف».

لكن الجدة تدخلت لصالح هايدي «إن الطفلة ليست مخطئة أبدًا أيها الخال»، قالت، «وقد غابت هايدي عن الجدة طويلاً من أجلنا. دعونا نذهب جميعًا إليها. أظن حصاني بانتظاري ويمكنني النزول من هناك وحالما أصل دورفلي سأرسل الرسالة، ما رأيك بخطتي يا بني؟».

لم تسنح للسيد زيزمن فرصة للحديث عن خطط سفره، لذا رجا أمه أن تنتظر لحظات قليلة فيخبرها بما يقترح فعله.

كان السيد زيزمن يرتب جولة قصيرة له ولأمه في سويسرا، وكان عليه التأكد أولًا أن كلارا بحالة جيدة تسمح بمرافقتهما لجزء من الرحلة. لكنه سيستمتع بصحبة ابنته، وما دامت هذه هي الحال، فلم يرغب بإضاعة أي يوم من هذه الأيام الجميلة من أواخر الصيف، بل أراد الانطلاق بالرحلة من فوره وتطلع إليها بسعادة مضاعفة. فاقترح أن يمضيا الليلة في دورفلي ويأتي في اليوم التالي لأخذ كلارا، ثم ينطلق الثلاثة إلى راغاتز فتكون نقطة الانطلاق.

استاءت كلارا في البدء قليلًا لتوديع الجبل على هذا النحو، غير أنها لم تستطع إلا أن تسعد لفكرة الرحلة ولم يتح لها وقت للتذمر.

أخذت الجدة يد هايدي استعدادًا للنزول حين استدارت فجأة «ولكن ماذا سيحدث لكلارا؟»، متذكرة أن الطفلة لا تسير مسافات طويلة، ثم هزت رأسها هزة رضا حين رأت الخال قد حمل كلارا بين ذراعيه وتبعها بخطى ثابتة، وحل السيد زيزمن أخيرًا ونزلوا كلهم من الجبل.

ظلت هايدي تقفز فرحا وهي تمشي مع الجدة جنبًا إلى جنب، وسألتها الجدة كل شيء عن الجدة الأخرى؛ كيف تعيش وماذا تفعل وخاصة في الشتاء حين يكون الجو شديد البرودة. وقدمت لها هايدي سردًا مفصلًا عن كل شيء، لأنها تعرف كل ما يجري في بيت الجدة. وأخبرتها أن الجدة تجلس جاثمة في زاويتها وترتعش من البرد، وقد استطاعت منحها وصفًا دقيقًا لما تطعمه الجدة. وأصغت الجدة باهتمام بالغ وتعاطف حتى وصلوا بيت الجدة الأخرى، وكانت بريجيتا تنشر قميص بيتر الآخر في الشمس حتى يكون جاهزًا لارتدائه، بعد ارتداء الأول مدة طويلة، وحين رأت الجماعة يقتربون دخلت مسرعة.

«لقد مروا جميعهم يا أمي، ومن الواضح أنهم عائدون لديارهم»، قالت للمرأة العجوز، «والخال معهم يحمل الطفلة المريضة».

«واحسرتاه، أهذا ما سيحدث إذن؟»، تنهدت الجدة، «وهل رأيت هايدي معهم؟ سيأخذونها إذن، ليتها تأتي وتضع يدها في يدي ثانية! ليتني أسمع صوتها مرة أخرى!».

فُتح الباب في هذه اللحظة وجرت هايدي إلى الركن ولفت ذراعيها حول الجدة.

«جدتي! جدتي! سيُرسل إليك سريري مع كل الوسائد الثلاث والغطاء السميك. قالت الجدة الأخرى إنه سيصل في غضون يومين»، لم تستطع هايدي إلا أن تقول كلماتها بسرعة، لأنها لم تطق صبرًا لترى فرحة الجدة بالأخبار، فابتسمت الأخيرة وقالت بشيء من الحزن: «لا بد أنها سيدة طيبة، وسأكون مسرورة لأنها تأخذك معها، لكني لن أعيش طويلًا».

«ما هذا الذي أسمعه؟ من أخبر جدتي الطيبة بحكايات كهذه؟»، قال صوت عطوف وشعرت الجدة بيد أخذت يدها وضغطتها بحب، لأن الجدة الأخرى تبعت هايدي وسمعت كل ما قيل، «كلا، كلا، لا نية لذلك. ستظل هايدي معك وتسعدك، نريد أن نراها ثانية، لكننا سنأتي إلى هنا، ونأمل أن نزور الجبل كل عام، لأن لدينا سببًا جيدًا لتقديم الشكر للرب على هذه البقعة التي حدثت فيها معجزة لطفلتنا».

وأشرق وجه الجدة بسعادة فريدة، وضغطت يد السيدة زيزمن، عاجزة عن شكرها بالكلمات، وقد تدحرجت دمعتا فرح كبيرتين على خديها المجعدين، وشهدت هايدي التغيير السعيد الذي طرأ على وجه الجدة، وصارت سعيدة تمامًا هي الأخرى.

فتشبثت بالمرأة العجوز قائلة «ألم يحدث الأمر كله كما في الترنيمة التي قرأتها لك آخر مرة يا جدة؟ ألن يرسل السرير من فرانكفورت لجعلك معافاة؟».

«بلى يا هايدي، والكثير الكثير من الأمور الجيدة التي أرسلها لي الرب»، قالت الجدة وقد تأثرت للغاية، «لم أعرف أن في العالم كثيرًا من الأناس الطيبين، مستعدون لإزعاج أنفسهم بشان امرأة عجوز فقيرة ويفعلون الكثير لها. لا شيء يقوي إيماننا بأبينا الذي في السماء الذي لا ينسى أصغر خلقه أكثر من معرفة أناس كهؤلاء صالحين ورحماء بالضعفاء المساكين أمثالي».

«عزيزتي الجدة»، قالت السيدة زيزمن مقاطعة إياها، «إننا جميعًا فقراء وعاجزون على نحو متساوٍ في عين الرب، وكلنا نحتاج بالقدر مثله ألا ينسانا. ولكن علينا وداعك الآن، إلى أن نلتقي ثانية لأنك ستكونين أول من نزوره حين نأتي إلى الجبل في العام المقبل. وحتى ذلك الحين فإننا لن ننساك»، وأخذت السيدة زيزمن يد الجدة ثانية وصافحتها مودعة.

لكن الجدة لم تتركها دون مزيد من كلمات الشكر ودون الدعاء للمحسنة وكل أقربائها لكل نعمة وهبها لها الرب.

استطاع السيد زيزمن وأمه أخيرًا مواصلة رحلتهما نزولًا، وحمل الخال كلارا عائدًا للبيت، وهايدي قربه مفعمة بالفرح لما ينتظر الجدة، فغدت كل خطوة من خطواتها قفزة.

غير أن كثيرًا من الدموع ذرفت في الصباح التالي لفراق كلارا التي بكت وقالت وداعًا للجبل الجميل الذي كانت فيه أسعد من أي وقت في حياتها. وحاولت هايدي تهدئتها فقالت «سيعود الصيف سريعًا، وستأتين ثانية. وسيكون أجمل، لأنك ستقدرين على

المشي في أنحائه منذ البداية، ويمكننا الذهاب مع العنزات كل يوم إلى حيث تنمو الزهور فنستمتع منذ لحظة وصولك».

جاء السيد زيزمن كما اتفق لاصطحاب ابنته الصغيرة، ووقف يتحدث إلى الخال لأن لديهما الكثير مما يقولانه لبعضهما. شعرت كلارا بشيء من العزاء لكلمات هايدي ومسحت دمعها. «احرصي على أن تودعي بيتر والعنزات بدلًا مني، وبخاصة لتل سوان. ليتني أستطيع تقديم هدية للتل سوان لأنها ساعدتني كثيرًا في جعلي قوية». فأجابت هايدي «حسن يمكنك إن أردت، أرسلي لها شيئًا من الملح، فأنت تعرفين أنها تحب لعق الملح من يد الجد عند عودتها مساء».

سرت كلارا بالفكرة «أوه! إذن سأرسل لها مئة رطل من الملح من فرانكفورت، لأني أود أن تحصل على شيء تتذكرني به».

أومأ السيد زيزمن للطفلتين بأن الوقت قد حان للانطلاق. وجلب حصان الجدة الأبيض من أجل كلارا، لأنها لم تعد بحاجة للحمل على كرسي. جرت هايدي إلى الحافة البعيدة للجرف وظلت تلوّح بيدها لكلارا حتى اختفت آخر لمحة لراكبة الحصان.

ووصل السرير وأخذت الجدة تنام بهدوء طوال الليل وعرفت أنها ستصبح أقوى.

لم تنس الجدة الأخرى على أية حال برد الشتاء في الجبل فأرسلت طردًا كبيرًا من الملابس الدافئة من مختلف الصنوف، فتتمكن الجدة من لف نفسها ولا ترتجف من البرد إن جلست في ركنها.

أما دورفلي ففيها الكثير من البناء. فقد وصل الطبيب وهو يسكن مكانه القديم في الوقت الراهن. إذ أشار عليه أصدقاؤه بشراء البيت القديم الذي يسكنه الخال وهايدي في الشتاء، وقد كان حتمًا بيتًا لسيد محترم يومًا، نظرًا إلى ارتفاع الغرف والموقد الفخم ببلاطاته جميلة النقوش. وأخذ الطبيب يرمم هذا الجزء من البيت لأجله والجزء الآخر يرمم من أجل هايدي والجد. لأن الطبيب مدرك أن الجد رجل حر يحب أن يكون له بيته المستقل، وقد أعد في الخلف مقصورة دافئة مسورة جيدًا للعنزتين وستقضيان الشتاء هناك في راحة.

أصبح الطبيب والخال صديقين حميمين بمرور الأيام. وكلما سارا حول البناء الجديد ليريا سير العمل تحولت أفكارهما باستمرار نحو هايدي، لأن أكبر سعادة فيما يتعلق بالبيت أنهما سيحظيان بسكن الطفلة خلية القلب معهما.

«صديقي العزيز»، قال الطبيب إحدى هذه المرات وهما يقفان معًا، «أنا واثق أنك سترى هذا الأمر من منظوري نفسه. أشاطرك السعادة بالطفلة كأنني قريبها الأقرب بعدك. لكني أود أيضًا أن أشاطرك المسؤولية فيما يتعلق بها لأقوم بالأفضل للطفلة، وسأشعر عندئذ أن لي حقوقًا عليها، وأتطلع أن تكون معي وتعتني بي في هرمي. وهي إحدى أعظم أمنيات قلبي. سيكون لها علي الحقوق نفسها كأنها ابنتي، وسأؤدي ما لها من واجب، وستتمكن من تركها دون قلق حين يأتي اليوم الذي علينا فيه الرحيل أنا وأنت».

لم يتحدث الجد بل أمسك بيد الطبيب بيده واستطاع صديقه الطبيب أن يقرأ في عيني الرجل العجوز تأثره وسروره وامتنانه.

كانت هايدي وبيتر في هذه اللحظة يجلسان مع الجدة، وكان لديها الكثير مما تحكيه والآخران يستمعان. فاقتربا من بعضهما أكثر دون أن يتنفسا من حماسهما لئلا يضيعا كلمة. وكم كان لديهم أحداث كثيرة جرت الصيف الماضي ليقصوها على بعضهم، لأنهم لم يحظوا بفرصة اللقاء كثيرًا. ويصعب القول أي الثلاثة أسعد بجلوسهم معًا ولذكرى كل الأشياء التي حدثت. غير أن الأم بريجيتا كانت الأسعد لأنها فهمت قصة پنس پيتر الأسبوعي لأول مرة بمساعدة هايدي.

ثم تحدثت الجدة أخيرًا: «اقرأي لي واحدة من التراتيل يا هايدي، أشعر أن ليس بوسعي فعل شيء لبقية حياتي إلا أن أشكر أبانا الذي في السماء لكل النعم التي أنعم بها علينا».

النهاية

عن الكاتبة

ولدت يوهانا شپيري (١٨٢٧-١٩٠١) في بلدة صغيرة في سويسرا، غير أنها في طفولتها قضت فصول الصيف في قرية تشبه دورفلي كثيرًا، مسرح أحداث كتابها هايدي، وانتقلت إلى مدينة زيورخ بعد زواجها من محامٍ. كتبت شپيري روايات للبالغين والأطفال، غير أنها اشتهرت برواية هايدي وتصويرها لحياة الريف في جبال الألب السويسرية إبان القرن التاسع عشر.

"رغم الحزن والخوف
سيصول القلب على
بحار الحياة الهائجة وينتصر
وسيكون الفرح نصيبنا
في تلك الجنة المباركة"

نشرت الرواية عام ١٨٨١، ولم تزل مقروءة حتى يومنا هذا، إذ ترجمت إلى أكثر من سبعين لغة في أنحاء العالم، وقيل إنها ترجمت إلى الإنجليزية وحدها ثلاث عشرة مرة!

أصبحت هايدي جزءًا من التراث السويسري، بل إنها تتصدر قائمة الشخصيات السويسرية الكبرى وتفوقت على وليم تيل الشخصية الأسطورية، لأنها تحظى بشهرة أكبر من شهرته في خارج سويسرا وعدت أحسن سفير لهذا البلد في القارات الخمس، على حد وصف موقع سويس إنفو.

أضحت "هايدي لاند" معلمًا سياحيًا يزوره السياح من كل أنحاء العالم، وتعد قرية مينفيلد مركز هذا المعلم، غير أن قرية أوبرفلز تغير اسمها إلى هايدي دورف، أي قرية هايدي.

لا تجسد هايدي حب الطبيعة النقية فحسب، بل إنها تدعو إلى حب الآخر، الذي يؤدي بالضرورة إلى حب الذات، ونحن "نحتاج اليوم في مجتمعاتنا المشتتة إلى هذه القيم التقليدية التي تقدم لنا هايدي بصورتها الحقيقية"، كما يقول جان ميشيل فِسمر، أستاذ الأدب السويسري.

لعلنا نحتاج إلى إعادة النظر في تعاطينا مع العالم اليوم، العالم بوجوهه المتعددة التي بتنا نفتقدها ونسيء معاملتها مثل الطبيعة والآخر والذات، وكل ذلك بحاجة إلى شيء من الرفق واللين والحب، وهايدي في هذا خير مرشد ودليل، ولا بد من أن يكون "الفرح نصيبنا في تلك الجنة المباركة" يومًا ما!

المترجمة











www.takweeen.com | Publishing@takweeen.com